الفَصْل الخَامِس
النَّبَوِيَّات

وفيه ثلاثة مباحث:

المَبْحَث الأول: حاجة الإنسان إلىٰ النُّبُوَّة، مناقشة منكِري النُّبُوَّات.

المَبْحَث الثاني: النُّبُوَّة العامة.

النَّبِيّ والرَّسُوْل لُغَةً واصْطِلَاحاً، حكم إرسال الرسل، إثبات النُّبُوَّة، القُرْآن الكَرِيْم والكتب السماوية.

صفات الرسل والأنبياء.

الوَحْي.

المعجِزة.

المَبْحَث الثالث: النُّبُوَّة الخاصة: نُبُوَّة سَيِّدنا مُحَمَّد ﷺ.

معجزاته ﷺ، إعجاز القُرْآن ووجوهه.

شواهد أُخرىٰ علىٰ نُبُوَّته ﷺ.

رسالته خاتمة الشرائع، عمومها.

منزلته، شفاعته، أُصُوْل دعوته، واجبنا نحوه ﷺ.

المَبْحَث الأول
حاجة الإنسان إلى النُّبُوَّة

يتفق عامة العقلاء علىٰ أن العقل الإنساني أحد الطرق المُوْصِلَة إلىٰ العلم والمَعْرِفَة.

ولٰكِن عَارَضَ هٰذَا الأمر فريقان:

الفريق الأول: اعترف بوجود العقل، لٰكِنه لا يقيمُ وزناً لإدراكاته. وهو مَذْهَب السُّوْفُسْطَائِيِّيْن من فَلَاسِفَة اليونان، ومَذْهَب الإسْمَاعِيْلِيَّة القائلين بأنه لا بد من معونةِ معلِّمٍ إلٰهِيّ، وهو الإمَام المعصوم عن الخطأ عمداً أو سهواً، وهو وحده الذي يميز الحق من الباطل، والحقيقةُ وقفٌ عليه وحده.

وهو أَيضاً مَذْهَب بعض المُتَصَوِّفَة القائلين بأن الإلْهَام طريق المَعْرِفَة، لا العقل.

ورَدَّ العقلانيون هٰذَا الرأي، ومنهم الغَزَالِيّ في كتابيه: (القِسْطَاس المُستقِيم) و(مِشْكَاة الأَنْوَار) مبيناً أن العقل يُدرك المَعَارِف، ويفهم حَقَائِق الأشياء المحسوسات والمَعْقُوْلات، ويُطلق عليها أَحْكَاماً يقينيةً صَادِقَة، كحكمه علىٰ الأعداد مهما تضاعفت.

ورَدَّ ابن حَزْمٍ علىٰ القول بالإلْهَام بأنه لا يتفق اثنان منهم علىٰ ما يدعيه كُلُّ وَاحِد منهم إلْهَاماً، فلو أُعطي كل امرئٍ بدعواه المُعَرَّاة لما ثبت حقٌّ ولا بَطَل باطل[1].

---

(١) كتابنا أُصُوْل الدِّيْن الإسلامِيّ ص١٧٧ وفيه الإشارة إلىٰ مُقَدِّمَة القِسْطَاس المُستقِيم، وإلىٰ الإحْكَام لابن حَزْم وغيرهما.

الفريق الثاني: أنكر العقلَ بمفهومه السَّابِق، وذهب إلىٰ أن الحواس هي وَسَائِل المَعْرِفَة الوَحِيْدَة، وما يسمىٰ بالعقل إنما يرجع إليها. وهٰؤُلَاءِ هم الحسّيون أو التجريبيون أو الماديون. وظهر هٰذَا المَذْهَب في أوربا، وأهم رِجَاله: فرنسيس بيكون، المُتَوَفَّىٰ سنة ١٦٢٦م، وجون لوك، المُتَوَفَّىٰ سنة ١٧٠٤م، ودفيد هيوم، المُتَوَفَّىٰ سنة ١٧٧٦م. وصار لهٰذَا المَذْهَب أتباع في العالم.

ورَدَّهُ العُلَمَاء بأبحاث عِلْمِيَّة أثبتوا فيها قدرةَ العقل علىٰ الإدراك دون تدخُّل الحواس، ومثَّلوا لذٰلِكَ بظَاهِرَة (التلباثي) وهو انتقال الفكر، أو الإحساس بأفكار شخصٍ آخر بدون تدخل الحواس، وبظَاهِرَة (الاستشفاف، أو الجلاء البَصَرِيّ) وهو الإحساس بالحوادث دون تدخُّل الحواس. وأُقرت نتائج تلك الأبحاث بمؤتمرات عديدة[1].

أما المَذَاهِب الإسلامِيَّة فقد اتفقت علىٰ أهمية العقل في الإدراك، لٰكِنها قررت أن العقلَ لا يستقل بإدراك كثير من الأُمور، مثل الاعْتِقَاد بالله تعالىٰ وصفاته، وما يجب وما يجوز وما يستحيل في حقه عَزَّ وجَلَّ وفي حق النَّبِيّ، وأحوال الآخِرَة، وغيرها من أَحْكَام العَقَائِد، ومثل الأخلاق، والأَحْكَام العَمَلِيَّة، وما يحسن منها وما يقبح.

وفِرَق السُّوْفُسْطَائِيَّة هي:

أ- **اللا أَدْرِيَّة**: قالوا: نحن شاكُّون، وشاكُّون في أننا شاكُّون، وهلمَّ جَرّاً.

ب- **العِنَادِيَّة**: قالوا: ما من قضيةٍ بدهية أو نَظَرِيَّة إلَّا ولها مُعَارَضَة ومقاومةٌ لمثلها في القوة والقبول عند الأذهان.

ج- **العِنْدِيَّة**: قالوا: مَذْهَب كل قوم حقٌّ بالقياس إليهم، وباطلٌ بالقياس إلىٰ خصومهم. وقد يكون طرفا النقيض حقّاً بالقياس إلىٰ شخصين، وليس في نفس الأمر شيءٌ بحقٍّ.

انظر هٰذِهِ الفِرَق في: حَاشِيَة الطُّوْسِيّ علىٰ مُحَصِّل أفكار المُتَقَدِّمِيْن والمُتَأَخِّرِيْن ص٤٠ والفِصَل لابن حَزْم ج١ ص٤٣ والمَعَالِم الدِّيْنِيَّة ص٤٩.

(١) كتابنا أُصُوْل الدِّيْن الإسلامِيّ ص١٧٩.

لأن أنظار الناس مُخْتَلِفَة، فقد تكون المصلحةُ عند قومٍ مفسدةً عند آخرين، وقد تكون الفضيلةُ عند أُناسٍ رذيلةً عند آخرين، فلم يترك الإسلام التشريع لعُقُوْل الناس، لأن ذٰلِكَ يؤدي إلىٰ الفوضىٰ. لهٰذَا كان هَدْيُ النَّبِيّ ضرورةً للإنسان.

مناقشة منكري النُّبُوَّات

ذهب قومٌ إلىٰ القول بعدم حاجة الإنسان إلىٰ هَدْي النُّبُوَّة، فأنكروها زاعمين أن الإنسان يستطيع أن يكتفي بعقله في تنظيم حياته.

ومُنْكِرو النُّبُوَّة فريقان:

الفريق الأول: فريق ينكر النُّبُوَّات، لأنه ينكر الإلٰه تعالىٰ، ومَعْلُوْم أن من ينكر وجود المُرْسِل لا بد وأن ينكر رَسُوْله.

ومناقشة هٰذَا الفريق لا تكون في إثبات النُّبُوَّات، وإنما تكون في إثبات وجود الله عَزَّ وجَلَّ[1]. وتقدَّم الكلام عن ذٰلِكَ في فصل الإلٰهِيَّات.

الفريق الثاني: يعترف بوجود الله تعالىٰ، ويؤمن به، ولٰكِنه ينكر النُّبُوَّات، مكتفين بما تدركه عُقُوْلهم من خَيْر أو شر.

وعلىٰ رأس هٰذَا الفريق كثيرٌ من بَرَاهِمَة الهِنْد والصَّابِئَة وبعض الفَلَاسِفَة، وقد تأثر بفلسفتهم بعض الزنادقة من المُسْلِمِيْن كأبي الحُسَيْن أَحْمَد بن يَحْيَىٰ الرَّاوَنْدِيّ، المُتَوَفَّىٰ سنة ٢٤٥هـ.

ومن أَدِلَّة إنكار النُّبُوَّات:

١- إن ما يأتي به الرَّسُوْل لا يخلو: إما أن يكون مما يدركه العقل، أو مما لا يدركه.

فإن جاء بما يوصل إليه العقل كان لا فائدة من بعثه، ويكون في العقل كِفَايَة، وإذا

(١) تَبْصِرَة الأَدِلَّة ج١ ص٤٤٦و٤٤٨.

خلا عن غرض صَحِيْح فهو عَبَثٌ وسَفَهٌ.

وإن جاء بما لا يَدُلّ عليه العقل، فلا يُتلقىٰ بالقبول، لأن المقبول هو الذي تدركه العُقُوْل[١].

وأُجيب: بأن هٰذَا الدليل واضح البطلان، لأن كل مطلع علىٰ الرسالات السماوية يعلم أنها قد اشتملت علىٰ ما يعرفه العقل وعلىٰ ما لا يعرفه:

فأما ما يعرفه العقل فكان لهٰذِهِ الرسالات مهمة التأكيد عليه.

وأما ما لا يعرفه العقل - وهو الأكثر - فإن للرسالات السماوية دور إرْشَاد العقل إليه، وتَنْبِيْهه إلىٰ ما فيه النَّافِع الصالح[٢].

٢- إن الرَّسُوْل من جنس المُرْسَل إليه، وجوهرهما وَاحِد، وتفضيل أحد المتماثلين المتساويين علىٰ مثله ونوعه حَيف ومحاباة وخروج عن الحكمة، وذٰلِكَ غير جائز علىٰ الحَكِيْم سُبْحَانَهُ وتَعَالَىٰ[٣].

وأُجيب بما يأتي:

أ- إن لله تعالىٰ أن يخص بفضله من يشاء من خلقه، كما أن له أن يُسوِّي بين سائرهم، فإن ذٰلِكَ عَدْل منه وصواب من تدبيره. واللهُ تعالىٰ لا يفضل أحد الشخصين علىٰ الآخر المجانس له ابتداءً ولا لأجل جنسه، ولٰكِن لأجل أنه مستحقٌّ للتفضيل بالرِّسَالَة وإخلاصه في الاجتهاد[٤].

---

(١) الإرْشَاد للجُوَيْنِيّ ص٣٠٣. وانظر: تَبْصِرَة الأَدِلَّة للنَّسَفِيّ ج١ ص٤٤٤ وهي حُجَّة البَرَاهِمَة. وانظر أَيضاً: الفَائِق في أُصُوْل الدِّيْن ص٢٩٩.

(٢) كَشْف المُرَاد ص٣٧٥.

(٣) تَمْهِيْد الأوائل ص١٢٧. وانظر: تَبْصِرَة الأَدِلَّة ج١ ص٤٤٤.

(٤) تَمْهِيْد الأوائل ص١٢٨-١٢٩.

ب- يلزم من قولكم أن يكون الله غير عادل، لأنه خص بعض خلقه بالعلم والقوة وكَمَال العقل والحواس، وخلق في بعضٍ آخر الجهلَ والعمىٰ والزَّمَانَة.

وأنتم لا تقولون بذٰلِكَ، بل تقولون إن ذٰلِكَ لمصلحة الطرفين وسَبِيْل لهم إلىٰ نفع عَظِيْم، وهو تعالىٰ أعلم به، لذٰلِكَ فإن إرساله تعالىٰ بعضَ الخلق مصلحة للطرفين، الرَّسُوْل والمُرْسَل إليه، ولطفاً لهم في النَّظَر في حجج العُقُوْل التي أمرهم بالرجوع إليها والعَمَل علىٰ موجبها[1].

٣- لا يجوز في حكمة الله عَزَّ وجَلَّ أن يبعث رَسُوْلاً إلىٰ من يعلم أنه يكفر به، ويَردُّ قوله، فوجب نفي بعث الرسل إلىٰ هٰؤُلَاءِ، لأن ذٰلِكَ خلاف الصواب.

وأُجيب: بأنه يترتب علىٰ قولكم هٰذَا:

أ- جواز بعث الرسل إلىٰ من يعلم قبوله منهم وانتفاعه بهم.

ب- أن لا يخلق الله سُبْحَانَهُ من يعلم أنه يكفر به.

ج- أن لا يحتج الله تعالىٰ بالعُقُوْل، وما وضعه فيها من الأَدِلَّة علىٰ من يعلم أنه يجحدها ولا يستعملها[2].

فإن قالوا: لقد استدل بها كثير.

قيل لهم: وقد صدق بالرسل أَيضاً كثير[3].

٤- إن كان الله تعالىٰ إنما بعث الرسل إلىٰ الناس، ليُخرجهم من الضلال إلىٰ الإيمان، فقد كان أَوْلَىٰ به في حكمته، وأتم لمُرَاده أن يضطر العُقُوْل إلىٰ الإيمان به.

وأُجيب: بأنه يلزم من دليلكم القول بأنه كان أَوْلَىٰ في حكمته أن لا يدعو الناس

---

(١) تَمْهِيْد الأوائل ص١٢٩-١٣٠.

(٢) تَمْهِيْد الأوائل ص١٤٢. وانظر: تَبْصِرَة الأَدِلَّة ج١ ص٤٤٤و٤٦٤.

(٣) الفِصَل لابن حَزْم ج١ ص١٣٨.

إلىٰ الاستدلال، لكي يؤمنوا، لا سِيَّمَا وأنه تعالىٰ يعلم أَنَّ في الناس من لا يستدل، وفيهم من يغمض عليه الاستدلال.

فكان أَوْلَىٰ به أن يضطر عُقُوْلهم إلىٰ الإيمان به، ولا يكلفهم مؤونة النَّظَر والاستدلال، وأن يلطف بهم ألطافاً يختار جميعهم معها الإيمان كما فعل بالملائكة[١].

٥- إن مما يُبْطِل الرِّسَالَة هو أنا وجدنا المدعين لها يستدلون علىٰ صدقهم بمستحيلات عقلية. مثل: فلق البَحْر، وخلق ناقة من صَخْرة، وقلب العصا حَيَّة، وإحياء الموتىٰ، وإبراء الأكمه والأبرص، والمشي علىٰ الماء، وإنطاق الذئب والحصا...، ونحو ذٰلِكَ[٢].

وأُجيب: بأن امتناع هٰذِهِ الأُمور في نظركم، لا يخلو:

إما أن يكون في قدرة الصانع عَزَّ وجَلَّ، أو في العادة.

فإن قالوا: إنه ممتنع في قدرة الصانع. فقد ألحدوا وتركوا دينهم، لأنه يلزم أن يقولوا بامتناع خلقه تعالىٰ لآدم وسائر المخلوقات[٣]. ولما قام الدليل علىٰ أن الله تعالىٰ له الأمر والخلق والملك فله أن يتصرف في عِبَاده بالأمر والنهي، وله أن يختار منهم وَاحِداً لتعريف أمره ونهيه، فيبلغ عنه إليهم، فلا استحالة في ذٰلِكَ[٤].

فإن قالوا: بل ذٰلِكَ ممتنع في العادة.

قيل لهم: وما المَانِع من أن ينقض الله تعالىٰ العادات، ويظهر المعجزات علىٰ أيدي رسله[٥]، كدليل قاطع علىٰ صدقهم؟

٦- إن الإنسان يمكنه الاكتفاء بالعلم في تنظيم حياته.

---

(١) الفِصَل لابن حَزْم ج١ ص١٣٨.
(٢) تَمْهِيْد الأوائل ص١٣٥.
(٣) تَمْهِيْد الأوائل ص١٣٥-١٣٦.
(٤) نِهَايَة الإقدام للشَّهْرَسْتَانِيّ ص٤٢١.
(٥) تَمْهِيْد الأوائل ص١٣٦.

أُجيب: بأن العلم مع تقدمه لا يزال باعتراف أقطاب العلم عَاجِزاً عن استكناه الكثير من أسرار الكون وألغاز الحياة. ثم إن أغلب نَظَرِيَّاته ظنية دُحِضَ منها اليوم ما كان مسلَّماً به بالأمس.

ولو فرضنا أن العلم بعد نضوجه وبُلُوْغه مَرْحَلَة الكَمَال يستطيع أن يضمن للبَشَرِيَّة سعادتها وينظم لها شؤونها. فمن المحقق أنه لن يهيمن علىٰ النفس البَشَرِيَّة هيمنة النُّبُوَّة والتشريعات الإلٰهِيَّة، لذٰلِكَ يبقىٰ للنُّبُوَّة سُلْطَانها ودورها الرئيس في تَهْذِيْب النفس وكبح جماحها، وتوجيهها نحو الخَيْر والحب والسَّلَام[1].

٧- إن النُّظُم والتشريعات التي يضعها الإنسان من وحي تجربته، وحاجاته المتطورة تُغني عن هَدْي النُّبُوَّة فلا حاجة للبشر إليها.

أُجيب: بأن سَيْطَرَة القوانين الوضعية علىٰ النفس هي سَيْطَرَة ظَاهِرِيَّة فقط غَالباً، وامتثال الفرد لها امتثالٌ شكليٌّ في الغالب، وإذا تهرَّب الفردُ منها فقد لا تراه عَيْن القَانُوْن، وقد يتباهىٰ البعض بمهارته في الانفلات من عقوبة القَانُوْن.

في حين أن الدِّيْن يسيطر علىٰ نفسية الفرد المتدين ومشاعره، فيكون امتثاله حقيقياً ظَاهِراً وبَاطِناً، لاعْتِقَاده أن الله تعالىٰ ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴾ - غافر ١٩، وامتثال أوامره مدعاة إلىٰ رضوانه ونعمائه، وعصيانه بَاعِث علىٰ سخطه وعقابه.

فالرسالات السماوية فضلٌ من الله ورحمةٌ للبَشَرِيَّة. قال تعالىٰ: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾ ﴾ - النساء.

---

(١) كتابنا أُصُوْل الدِّيْن الإسلامِيّ ص١٩٦.

المَبْحَث الثاني

النُّبُوَّة العَامَّة

النَّبِيّ والرَّسُوْل في اللُّغَة والاصْطِلَاح

النَّبِيّ في أصل اللُّغَة: وردت لفظة (النَّبِيّ) مهموزة وغير مهموزة[١]:

١- فإذا كانت اللفظة بالهمز (النَّبِيء) فهي:

أ- إما مشتقة من النَّبَأ، وهو الخَبَر، فالنَّبِيء بزِنَة (فَعِيْل) يأتي بمعنىٰ اسم الفاعل، أي: المُنْبِئ (المُخبِر) عن الله تعالىٰ. أو (فَعِيْل) بمعنىٰ اسم المفعول، أي: هو المُنْبَأ (المُخبَر)، لأن المَلَك يُنبئه عن الله بالوحي[٢].

ب- أو أن تكون من (النَّبِيء)، الذي هو الطريق الواضح، لأن الأنبياء هم الطرق المُوْصِلَة إلىٰ الله تعالىٰ[٣].

٢- وإن كانت بلا همز (النَّبِيّ) فهي:

أ- إما أن تكون همزتها مخففة.

ب- وإما أن تكون مشتقة من النُّبُوَّة أو النَّبَاوَة، أي: الارتفاع. وهو أَيضاً (فَعِيْل) بمعنىٰ اسم الفاعل أو اسم المفعول، لأن النَّبِيّ مرتفع الرتبة علىٰ غيره أو مرفوعها[٤].

---

(١) النَّبِيء بالهمز قِرَاءَة نَافِع، والنَّبِيّ بغير الهمز قِرَاءَة الجُمْهُوْر. / المُسَامَرَة ص٢٣٢.

(٢) المُسَامَرَة ص٢٣٢. ونحوه في: لَوَامِع الأَنْوَار البَهِيَّة ج١ ص٤٩.

(٣) لَوَامِع الأَنْوَار البَهِيَّة ج١ ص٤٩.

(٤) المُسَامَرَة ص٢٣٢. وانظر: القَامُوْس المُحِيْط مادة (النبأ)، ولَوَامِع الأَنْوَار البَهِيَّة ج١

والرَّسُوْل في أصل اللُّغَة: لفظة مأخوذة:

أ- من قولهم جاءت الإبل رَسَلاً، أي: متتابعة، فالرَّسُوْل هو الذي يتابع أخبار الذي بعثه[١].

ب- من رسل اللَّبَن إذا تتابع درُّه، لأن الرَّسُوْل هو الذي يتتابع عليه الوحي[٢].

النَّبِيّ والرَّسُوْل في الاصْطِلَاح

جاء القُرْآن الكَرِيْم بهاتين الكَلِمَتَيْن معاً في قوله تعالىٰ: ﴿ **وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ** ﴾ - الحج ٥٢. وقد اختلف العُلَمَاء في بَيَان معناهما علىٰ أقوال أهمها:

القول الأول: النَّبِيّ: إنسان أُوحي إليه بشرعٍ (أي: أَحْكَام)، سواء أُمر بتبليغه والدعوة إليه أم لا، فإن أُمر بذٰلِكَ فهو نَبِيّ رَسُوْل، وإن لم يُؤمَر فهو نَبِيّ غير رَسُوْل.

فالفرق بينهما بالأمر بالتبليغ وعدمه[٣].

فالنَّبِيّ أعم من الرَّسُوْل، أي: يلزم من كونه رَسُوْلاً أن يكون نَبِيّاً، ولا عكس[٤].

ص٤٩ والمَوَاقِف ج٨ ص٢١٧-٢١٨ وشَرْح المَقَاصِد للتَّفْتَازَانِيّ ج٥ ص٥ وأُصُوْل الدِّيْن للبَغْدَادِيّ ص١٥٤.

(١) لِسَان العَرَب مادة (رسل).

(٢) أُصُوْل الدِّيْن للبَغْدَادِيّ ص١٥٤.

(٣) المُسَامَرَة ص٢٣١. وانظر: شَرْح الخَرِيْدَة للدَّرْدِيْر ص١٧ وشَرْح الجَوْهَرَة للبَاجُوْرِيّ ص٣٣.

(٤) شَرْح الخَرِيْدَة للدَّرْدِيْر وحَاشِيَة الصَّاوِيّ عليه ص١٧ وشَرْح العَقِيْدَة الطَّحَاوِيَّة لابن أبي العِزّ ص١٥٥ ولَوَامِع الأَنْوَار البَهِيَّة ج١ ص٤٩ و ج٢ ص٢٥٨. قال البَاجُوْرِيّ في شَرْح الجَوْهَرَة ص٣٣: (فبينهما العموم والخصوص المطلَق، لأن كل رَسُوْل نَبِيّ ولا عكس). وذكر في شَرْح العَقِيْدَة الطَّحَاوِيَّة ص١٥٥ أيضاً: (ولٰكِن الرِّسَالَة أعم من جهة نفسها، فالنُّبُوَّة جزء من الرِّسَالَة، إذ الرِّسَالَة تتناول النُّبُوَّة وغيرها، بخلاف الرسل فإنهم لا يتناولون الأنبياء وغيرهم، بل

وهٰذَا القول هو المشهور[١]. وبه قال الجُمْهُوْر وعامة الأَشَاعِرَة[٢] وصَحَّحَهُ المهدوي والقَاضِي عِيَاض في كتابه الشفا، حيث قال: (والصَّحِيْح والذي عليه الجَمَّاء الغَفِيْر، أَنَّ كل رَسُوْل نَبِيّ، وليس كل نَبِيّ رَسُوْلاً)[٣].

القول الثاني: النَّبِيّ: إنسان بعثه الله لتبليغ ما أوحىٰ إليه، وكذا الرَّسُوْل، فلا فرق بينهما، بل هما بمعنى وَاحِد[٤]. وهو الذي عَزَاه ابن الهُمَام إلىٰ بعض المحققين[٥]. وهو مَذْهَب جُمْهُوْر المُعْتَزِلَة[٦].

وردَّ هٰذَا القول بما يأتي:

١- بقوله تعالىٰ: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ ﴾ - الحج ٥٢، فلو كان النَّبِيّ مساوياً للرَّسُوْل لما عطف عليه، لأن نفي أحد المتساويين يستلزم نفي الآخر[٧].

٢- حَدِيْث أبي ذَرّ في بَيَان عدد الرسل والأنبياء يقتضي أن الرسل هم غير الأنبياء،

الأمر بالعكس. فالرِّسَالَة أعم من جهة نفسها. وأخص من جهة أهلها). وقال البَاجُوْرِيّ في شَرْح الجَوْهَرَة ص٣٣: (وجعل بعضُهم الرَّسُوْل أعم، لأن الرسل تكون من الملائكة).

(١) المُسَامَرَة ص٢٣١ ولَوَامِع الأَنْوَار البَهِيَّة ج١ ص٤٩ وحَاشِيَة الصَّاوِيّ علىٰ الدَّرْدِيْر ص١٧. وفي شَرْح العَقِيْدَة الطَّحَاوِيَّة لابن أبي العِزّ ص١٥٥: هو (أَحْسَنها).

(٢) حَاشِيَة المَرْجَانِيّ ج١ ص١٢ وحَاشِيَة الكَلَنْبَوِيّ ج١ ص٩ وكِفَايَة الطَّالِب الرَّبَّانِيّ ج١ ص١٦.

(٣) الشفا ج١ ص٢٥١ وتَفْسِيْر القُرْطُبِيّ ج٧ ص٤٤٧٢ نَقْلًا عن الشفا.

(٤) المُسَايَرَة وشرحه المُسَامَرَة ص٢٣١ وحَاشِيَة الصَّاوِيّ علىٰ الدَّرْدِيْر ص١٧ وأَعْلَام النُّبُوَّة للمَاوَرْدِيّ ص٣٨ والمَقَاصِد للتَّفْتَازَانِيّ ج٥ ص٥ وشَرْح الجَوْهَرَة للبَاجُوْرِيّ ص٣٣ نَقْلاً عن السَّعْد التَّفْتَازَانِيّ، وخَيْر القلائد ص١٢٠ نَقْلاً عن التَّفْتَازَانِيّ.

(٥) المُسَايَرَة وشرحه المُسَامَرَة ص٢٣١.

(٦) حَاشِيَة المَرْجَانِيّ ج١ ص١٢ وحَاشِيَة الكَلَنْبَوِيّ ج١ ص٩.

(٧) حَاشِيَة الكَلَنْبَوِيّ علىٰ الدَّوَّانِيّ ج١ ص٩.

وهٰذَا القول يقتضي اتحادهما، فهو مخالف للحَدِيْث[١].

وهناك أقوال أُخرىٰ لا مجال لذكرها هنا[٢].

حكم إرسال الرسل

اختلفوا في حكم إرسال الرسل جميعهم علىٰ الأقوال الآتية:

١- **الجواز**. فيجوز عقلاً في حقه تعالىٰ إرساله لجميع الرسل من آدم إلىٰ سَيِّدنا مُحَمَّد ﷺ. فلا يجب عليه تعالىٰ، ولا يستحيل، بل إرساله تعالىٰ الرسل هو بإحسانه وفضله الخالص. وهٰذَا قول الأَشَاعِرَة[٣].

٢- **الوجوب**. فيجب علىٰ الله تعالىٰ إرسال الرسل. وهو قول المُعْتَزِلَة والفَلَاسِفَة. ومبنىٰ كلام المُعْتَزِلَة علىٰ قاعدة وجوب الصَّلَاح والأصلح، فقالوا: النِّظَام المؤدي إلىٰ صَلَاح النوع الإنساني علىٰ العموم في المعاش والمعاد لا يَتِمّ إلَّا ببعثة الرسل. وكل ما كان كذٰلِكَ فهو واجب علىٰ الله تعالىٰ. وتقدم رد الأَشَاعِرَة علىٰ هٰذَا القول عند الكلام علىٰ الصَّلَاح والأصلح عند المُعْتَزِلَة[٤].

---

(١) المُسَامَرَة ص٢٣٢ وشَرْح المَقَاصِد ج٥ ص٦ وحَاشِيَة الكَلَنْبَوِيّ السَّابِقَة. وسيأتي حَدِيْث أبي ذَرّ في (الإيمان بالأنبياء والرسل).

(٢) انظرها في: حَاشِيَة الكَلَنْبَوِيّ علىٰ الدَّوَّانِيّ ج١ ص٩ وحَاشِيَة المَرْجَانِيّ علىٰ الدَّوَّانِيّ ج١ ص١١-١٣ وأَعْلَام النُّبُوَّة ص٣٨ وشَرْح المَقَاصِد للتَّفْتَازَانِيّ ج٥ ص٥ وتَفْسِيْر القُرْطُبِيّ ج٧ ص٤٤٧٢ وتَفْسِيْر البَيْضَاوِيّ ص٣٣٠ والمُسَامَرَة ص٢٣١.

(٣) شَرْح الجَوْهَرَة للبَاجُوْرِيّ ص١٩٨. وانظر: الإنْصَاف للبَاقِلَّانِيّ ص٦١. وفي نِهَايَة الإقدام للشَّهْرَسْتَانِيّ ص٤١٧: (صارت الأَشْعَرِيَّة وجَمَاعَة من أَهْل السُّنَّة إلىٰ القول بجواز وجود النُّبُوَّات عقلاً ووقوعها في الوجود عِيَاناً، وتنتفي استحالتها بتَحْقِيْق وجودها كما ثبت تصورها بنفي استحالتها).

(٤) شَرْح الجَوْهَرَة للبَاجُوْرِيّ ص١٩٨. وفي نِهَايَة الإقدام للشَّهْرَسْتَانِيّ ص٤١٧: (صارت المُعْتَزِلَة وجَمَاعَة من الشِّيْعَة إلىٰ القول بوجوب وجود النُّبُوَّات عقلاً من جهة اللطف).

ومبنىٰ كلام الفَلَاسِفَة هو علىٰ قاعدة التَّعْلِيْل أو الطبيعة، فيقولون: يلزم من وجود الله وجود العالم بالتَّعْلِيْل أو بالطبع، ويلزم من وجود العالم وجود من يُصْلِحُهُ.

وردَّ الأَشَاعِرَة علىٰ القول بالوجوب، بأنه تعالىٰ فاعلٌ بالاخْتِيَار لا بطريق الإِجْبَار[1].

٣- الاستحالة. فيستحيل علىٰ الله تعالىٰ إرسال الرسل. وهو قول السُّمَنِيَّة والبَرَاهِمَة. فزعموا أن إرسال الرسل عَبَثٌ لا يليق بالحَكِيْم، لأن العقلَ يُغْني عن الرسل، فإن الشيءَ إن كان حَسَناً عند العقل فَعَلَه وإن لم تأتِ به الرسل. وإن كان قبيحاً عنده تَرَكَه وإن لم تأتِ به الرسل. وإن لم يكن عنده حَسَناً ولا قبيحاً فإن احتاج إليه فَعَلَه وإلَّا تَرَكَه[2].

وتَقَدَّمَ الرَّدُّ علىٰ هٰذِهِ الشبهة في موضوع (مناقشة منكِري النُّبُوَّات).

طريق إثبات النُّبُوَّة

لا يكون إثبات النُّبُوَّة إلَّا باجتماع أمرين:

أولهما: ادعاء النُّبُوَّة.

ثانيهما: إظهار المعجزة.

فكل من ادعىٰ النُّبُوَّة وأظهر المعجزة تصديقاً لدعواه، فهو نَبِيّ[3].

---

(١) شَرْح الجَوْهَرَة للبَاجُوْرِيّ ص١٩٨.

(٢) شَرْح الجَوْهَرَة للبَاجُوْرِيّ ص١٩٨. وفي نِهَايَة الإقدام للشَّهْرَسْتَانِيّ ص٤١٧: (صارت البَرَاهِمَة والصَّابِئَة إلىٰ القول باستحالة النُّبُوَّات عقلاً). وذكر هٰذِهِ الأَحْكَام عُثْمَان الكليسي في خَيْر القلائد ص١٢٦.

(٣) المُسَامَرَة ص٢٤٠ وشَرْح المَوَاقِف للسَّيِّد الشَّرِيْف ج٨ ص٢٤٣ والمَقَاصِد وشرحه للتَّفْتَازَانِيّ ج٥ ص٢٧ وشَرْح العَقَائِد النَّسَفِيَّة للتَّفْتَازَانِيّ ص١٦٨ وشَرْح العَقَائِد العَضُدِيَّة للدَّوَّانِيّ ج٢ ص٢٧٧ وكَشْف المُرَاد ص٣٧٧ والمَعَالِم الدِّيْنِيَّة ص٩٦.

وسيأتي تفصيل ذٰلِكَ فيما بعد.

النُّبُوَّة اصطفاء واخْتِيَار من الله عَزَّ وجَلَّ

النُّبُوَّة فضل وهِبَة من الله تعالىٰ لمن يشاء من عِبَاده، فلا تُنال بالكسب، ولا بتكلف العِبَادَة واقتحام أشق الطاعات، ولا تدرك بتَهْذِيْب الروح وبتصفية النفس وتنقية البدن من رذائل الأخلاق، ولا بالوراثة، ولا أثر للذكاء فيها، ولا تَأْثِيْر للمجتمع فيها[1].

قال تعالىٰ: ﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ - الحج ٧٥.

وقال تعالىٰ: ﴿ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ ﴾ - يُوْنُس ١٥.

وقال تعالىٰ: ﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴾ - النَّحْل ٢.

بشرية الرسل والأنبياء

الأنبياء والرسل بَشَر، يأكلون ويشربون، ويجوعون ويعطشون، ويحزنون ويفْرَحُوْن، وينامون، ويمرضون، ويغضبون، وينسون، ويتعبون، ويستشيرون، ويتزوجون،... ونحو ذٰلِكَ من صفات البشر التي لا نقص فيها عليهم.

وإنما اختارهم الله عَزَّ وجَلَّ من جنس المُرْسَل إليهم، ليكونوا علىٰ صِلَة وثيقة بهم، شاعرين بأحاسيسهم، مطلعين علىٰ ما يعانونه من آلام، مقيمين عليهم الحُجَّة الدامغة، بإيْضَاح الطريق المُستقِيم لهم. ودليل ذٰلِكَ:

---

(١) انظر: لَوَامِع الأَنْوَار البَهِيَّة ج٢ ص٢٦٧ وشَرْح الجَوْهَرَة للبَاجُوْرِيّ ص٢١١ والمَوَاقِف وشرحه للسَّيِّد الشَّرِيْف ج٨ ص٢١٨ وشَرْح المَقَاصِد للتَّفْتَازَانِيّ ج٥ ص٥و٨ ونِهَايَة الإقدام ص٤٦٢.

أولاً: من القُرْآن الكَرِيْم:

أ- قوله تعالىٰ: ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾- التوبة ١٢٨.

ب- وقوله تعالىٰ: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ - الكهف ١١٠ وفُصِّلَت ٦.

ج- وقوله تعالىٰ: ﴿ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ ﴾ - الأعراف ١٨٨.

د- وقوله تعالىٰ: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً ۚ ﴾ - الرعد ٣٨.

هـ- وقوله تعالىٰ: ﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ۚ ﴾ - الأنعام ٥٠.

ثانياً: ومن السُّنَّة النَّبَوِيَّة:

أ- حَدِيْث أبي مَسْعُوْد قال: أتىٰ النَّبِيَّ ﷺ رجلٌ فكلَّمه، فجعل تُرْعَدُ فرائصُهُ، فقال له: هَوِّنْ عليك، فإني لستُ بملِك، إنما أنا ابن امرأة تأكل القَدِيْد[1].

ب- قوله ﷺ: (إنما أنا بَشَر مثلُكم أَنْسَىٰ كما تَنْسَوْن، فإذا نَسِيْتُ فذَكِّروني)[2].

---

(١) **حَدِيْث أبي مَسْعُوْد** في: سُنَن ابن مَاجَة في: ٢٩ كتاب الأطعمة، ٣٠ باب القَدِيْد، رقم ٣٣١٢ ج٢ ص١١٠١. وقال الشَّيْخ شُعَيْب في تَحْقِيْقِهِ سُنَن ابن مَاجَة ج٤ ص٤٣٠: صَحِيْحٌ ورِجَاله ثِقَات.

(٢) **حَدِيْث: إنما أنا بَشَر مثلكم**... إلخ، في: صَحِيْح البُخَارِيّ في: ٨ كتاب الصلاة، ٣١ باب التوجه نحو القِبْلَة، رقم ٤٠١، بِهٰذَا اللفظ، عن عبد الله بن مَسْعُوْد. وفي صَحِيْح مُسْلِم في: ٥ كتاب المساجد، ١٩ باب السهو في الصلاة، رقم ٥٧٢، عن عبد الله بن مَسْعُوْد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ج- تواضع الرَّسُوْل الأعظم ﷺ وسيرته تشهد ببشريته، ولا مجال لأحد في إنكار ذٰلِكَ.

د- عبوديته ﷺ لله تعالىٰ الظَّاهِرَة في كلامه وأدعيته، كما في قوله ﷺ: (اللهم إني عبدُكَ وابن عبدك، ابن أَمَتِكَ، ناصِيَتي بيدك، ماضٍ فِيَّ حكمُك، عَدْل فِيَّ قضاؤك)[1]، وأمثاله كثير.

فَوَائِد وقوع الأعراض البَشَرِيَّة بالأنبياء:

تقدم أن الأنبياء بَشَر، يقع عليهم من الأعراض البَشَرِيَّة كالابتلاء والمرض والنسيان والفقر... إلخ ما يقع علىٰ سائر الناس، إلَّا أن لوقوع هٰذِهِ الأعراض بالأنبياء فَوَائِد تتلخص بما يأتي:

١- تَعْظِيْم أُجورهم: فالبلاء والأمراض يترتب عليه الأجر العَظِيْم، لهٰذَا قال النَّبِيّ ﷺ: أشد الناس بلاءً الأَنبياءُ، ثم الأَمثَلُ فالأَمثَلُ[2].

وقال الإمَام القُشَيْرِيّ: ليس كل أحد أهلاً للبلاء، إذ البلاء للأَوْلِيَاء، وأما الأجانب فيتجاوز عنهم، ويخلي سَبِيْلهم[3].

واللهُ تعالىٰ وإن كان قَادِراً علىٰ أن يعظِّمَ أجورهم من غير ابتلاء ومشقة، إلَّا أن حكمته تعالىٰ اقتضت ترتب ذٰلِكَ علىٰ الابتلاء ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ ﴾ - الأنبياء ٢٣[4].

---

(١) **حَدِيْث: اللهم إني عبدك**... إلخ، رواه أَحْمَد في مُسْنَده ج١ ص٤٥٢.

(٢) شَرْح أُمّ البَرَاهِيْن للسَّنُوْسِيّ ص١٨٥-١٨٦ وشَرْح السَّنُوْسِيَّة للبَاجُوْرِيّ ص١٣٠. وانظر: شَرْح الخَرِيْدَة للدَّرْدِيْر ص١٠١.

وحَدِيْث: أشد الناس بلاءً... إلخ، أَخْرَجَهُ أَحْمَد والبُخَارِيّ والتِّرْمِذِيّ وابن مَاجَة، عن سَعْد، وهو صَحِيْح. / الجَامِع الصَّغِيْر ص٦٩.

(٣) شَرْح السَّنُوْسِيَّة للبَاجُوْرِيّ ص١٣٠.

(٤) شَرْح الخَرِيْدَة للدَّرْدِيْر ص١٠١ وشَرْح أُمّ البَرَاهِيْن للسَّنُوْسِيّ وحَاشِيَة الدُّسُوْقِيّ عليه

٢- التشريع: فسهو رَسُوْل الله ﷺ في الصلاة تشريع للناس، وتَعْلِيْم لهم كيفية سجود السهو، لأن دلالة الفعل أقوىٰ من دلالة القول[١].

٣- التَّسَلِّي بأحوال الأنبياء، إذا نزل بنا ما نزل بهم: فإذا نظر العاقل في أحوال الأنبياء، من مرض وأسقام، وقلة مال وأذىٰ الناس لهم، مع عُلُوّ مقامهم ورفعة شأنهم، فإنه يتسلَّىٰ ويتصبر، فلم يحزن علىٰ ما نزل به من بلاء[٢].

٤- تَنْبِيْه غير الأنبياء علىٰ خِسَّة قدر الدنيا عند الله تعالىٰ، حين يرون الأنبياء قد أعرضوا عنها، وانصرفوا عن ملاذها ومغانمها[٣].

وذم الدنيا الوارد في بعض النصوص، إنما هو في الدنيا الشاغلة عن الله تعالىٰ، وعليه يحمل قوله ﷺ: (ألا إن الدنيا ملعونةٌ، ملعونٌ ما فيها، إلَّا ذِكْرَ الله وما والَاهُ وعالماً أو متعلماً) أي: من التسبيح والتحميد والتهليل.

أما الدنيا التي لم تشغل عنه فلا ذم فيها، بل هي مَحْمُوْدة، وعليه يحمل قوله ﷺ: (نِعْمَ الدنيا مطيَّةُ المُؤْمِن، بها يصل إلىٰ الخَيْر، وبها ينجو من الشر).

وبذٰلِكَ يعلم: أن الدنيا ليست مَحْمُوْدة، ولا مذمومة لذاتها[٤].

ص١٨٥-١٨٦.

(١) شَرْح الخَرِيْدَة للدَّرْدِيْر ص١٠١ وشَرْح أُمّ البَرَاهِيْن للسَّنُوْسِيّ وحَاشِيَة الدُّسُوْقِيّ عليه ص١٨٥ وشَرْح السَّنُوْسِيَّة للبَاجُوْرِيّ ص١٣٠.

(٢) شَرْح الخَرِيْدَة للدَّرْدِيْر وحَاشِيَة الصَّاوِيّ عليه ص١٠١-١٠٢ وشَرْح أُمّ البَرَاهِيْن للسَّنُوْسِيّ وحَاشِيَة الدُّسُوْقِيّ عليه ص١٨٥ وشَرْح السَّنُوْسِيَّة للبَاجُوْرِيّ ص١٣١.

(٣) شَرْح الخَرِيْدَة للدَّرْدِيْر ص١٠١ وشَرْح أُمّ البَرَاهِيْن للسَّنُوْسِيّ ص١٨٥ وشَرْح السَّنُوْسِيَّة للبَاجُوْرِيّ ص١٣١.

(٤) شَرْح السَّنُوْسِيَّة للبَاجُوْرِيّ ص١٣٢ وشَرْح أُمّ البَرَاهِيْن للسَّنُوْسِيّ السَّابِق.

وحَدِيْث: أَلَا إن الدنيا ملعونةٌ... إلخ، في: سُنَن التِّرْمِذِيّ في: ٣٣ كتاب الزهد، ١٤ باب منه، رقم ٢٣٢٢، ص٣٨٣، عن أبي هُرَيْرَة، وقال: حَدِيْث حَسَن غَرِيْب. وفيه: (... إلَّا ذِكْرُ الله

عدد الأنبياء

قدّر الله تعالىٰ ما يحتاج إليه الناس بمجموعهم من المَوَاهِب والكفاءات المُخْتَلِفَة التي تهيئ لهم الحياة الرغيدة والعيش السَّعِيْد، فقسمها بين الأفراد بناء علىٰ حاجتهم إليها، فرِجَال الجيش والنَّجَّارون والحَدَّادون والزرَّاعون وأصحاب المهن كثيرون جداً، بينما يقل عدد ذوي الكفاءات القيادية أو العِلْمِيَّة، ويهبط عدد مَالِكِيّ المهارة والحذق في لون معين، ويتضاءل عدد مَالِكِيّ قيادة العالم الفكرية وأصحاب الهِدَايَة إلىٰ سواء السَّبِيْل وهم الأنبياء والرسل، لأن أَعْمَالهم تغني البشر إلىٰ أجيال طَوِيْلَة.

فلو أخذنا بحَدِيْث الأنبياء وهم (١٢٤٠٠٠) نَبِيّ، والرسل منهم (٣١٣) رَسُوْلاً، نرىٰ العدد ضئيلاً جداً بالنسبة لأُمَم العالم جَميعاً من بَدْء الخليقة إلىٰ زمن الرَّسُوْل مُحَمَّد ﷺ، ولا يقاس إلىٰ تلك الأجيال القادمة[1].

لٰكِن لا ينبغي في الإيمان بالأنبياء القطع بحصرهم في عدد معين، لأنه:

أ- لم يرد بحصرهم دليل قطعي، وحصر عددهم يخالف ظَاهِر قوله تعالىٰ: ﴿مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ - غافر ٧٨، والحَدِيْث الوارد في عددهم ضعيف، وهو: خبر وَاحِد، لم يقترن بما يفيد القطع، وخبر الوَاحِد لا يفيد إلَّا الظن، ولا عبرة بالظن في باب الاعْتِقَادات.

٢- وقد يؤدي حصرهم بهٰذَا العدد إلىٰ أن يدخل فيهم من ليس منهم، أو يخرج من هو منهم[2].

وما والاهُ وعَالِمٌ أو مُتَعَلِّمٌ).

(١) مبادئ الإسلام ص٣٣.

(٢) المُسَايَرَة وشرحها المُسَامَرَة ص٢٢٥. وانظر: شَرْح المَقَاصِد للتَّفْتَازَانِيّ ج٥ ص٦١-٦٢ وشَرْح العَقَائِد النَّسَفِيَّة ص١٦٩-١٧٠ وشَرْح الخَرِيْدَة للدَّرْدِيْر ص١١١ ولَوَامِع الأَنْوَار البَهِيَّة ج٢ ص٢٥٨ وبَحْر الكَلَام للنَّسَفِيّ ص١٨٧.

لٰكِن القُرْآن الكَرِيْم ذكر أسماء خمسة وعشرين، وهم: آدم، وإدْرِيْس، ونُوْح، وهُوْد، وصالح، وإبْرَاهِيْم، ولُوْط، وإسْمَاعِيْل، وإسْحَاق، ويَعْقُوْب، ويُوْسُف، وشُعَيْب، وأَيُّوْب، وذو الكِفْل، ومُوسَىٰ، وهارون، وسُلَيْمَان، ودَاوُد، وإلياس، واليَسَع، ويُوْنُس، وزَكَرِيَّا، ويَحْيَىٰ، وعِيسَىٰ، ومُحَمَّد ﷺ[1].

مهمة الأنبياء وبعثتهم إلى أُمَم العالم جَميعاً

الأنبياء والرسل هُدَاة البشر إلىٰ الصراط المُستقِيم، وأهل المبادئ التَّهْذِيْبيَّة التي عالجت المشاكل المادية والروحية يبشرون بالجنة أهل التقىٰ، وينذرون بالنار أهل الفساد والكفر، ويبينون للناس ما يحتاجون إليه من أُمور الدِّيْن والدنيا.

الحَدِيْث الوارد في عدد الأنبياء، في: مُسْنَد أَحْمَد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من حَدِيْث أبي ذَرّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (قلت يا نَبِيّ الله: كم عدد الأنبياء؟ قال مئة ألف وأربعة عشرون، الرسل من ذٰلِكَ ثلاثمائة وخمسة عشر جَمّاً غَفِيْراً).

ورواه الطَّبَرَانِيّ في المُعْجَم الكَبِيْر بلفظ: وأربعة وعشرون ألفاً. وهي مُصَرّحَة بما أُبهم في رِوَايَة أَحْمَد.

ومدار الحَدِيْث علىٰ عَلِيّ بن يَزِيْد وهو ضعيف. / المُسَامَرَة ص٢٢٦.

وله لفظ آخر في صَحِيْح ابن حِبَّان: عدد الأنبياء مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً، الرسل منهم ثلاثمائة وثلاثة عشر. وفي رِوَايَة: وأربعة عشر. وفي رِوَايَة: وخمسة عشر. / كِفَايَة الطَّالِب الرَّبَّانِيّ ج١ ص١٧. وانظر: لَوَامِع الأَنْوَار البَهِيَّة ج٢ ص٢٥٨.

وتكلم فيه ولي الدِّيْن العِرَاقِيّ، وردَّ علىٰ ابن حِبَّان جَمَاعَة من الحُفَّاظ، لإدخاله هٰذَا الحَدِيْث في الصَّحِيْح. / لَوَامِع الأَنْوَار البَهِيَّة ج٢ ص٢٦٤. وللحَدِيْث ألفاظ أُخرىٰ بأسانيد أُخرىٰ في مُسْنَد أَحْمَد والبَزَّار والطَّبَرَانِيّ في الأَوْسط الذي ذكر في مَجْمَع الزَّوَائِد. / المُسَامَرَة ص٢٢٦. وذكر قَاسِم بن قُطْلُوْبُغَا الخبر عن رواته إسْحَاق بن رَاهَوَيْه وابن أبي شَيْبَة ومُحَمَّد بن أبي عُمَر وأبي يَعْلَىٰ. / شَرْح المُسَايَرَة لقَاسِم بن قُطْلُوْبُغَا ص٢٢٥.

(١) شَرْح الخَرِيْدَة للدَّرْدِيْر ص١١٠-١١١.

وقد أرسلهم الله تعالىٰ إلىٰ أُمَم العالم جَميعاً، فكل أُمَّة لها رَسُوْل، وإن لم يخبرنا الله بأسمائهم بدلالة قوله تعالىٰ:

أ- ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ - فاطر ٢٤.

ب- ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ - النَّحْل ٣٦.

ج- ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴾ - القصص ٥٩.

هٰذِهِ النصوص جَميعاً تدل علىٰ أن بعث الأنبياء، لا ينحصر في أُمَّة معينة، أو مكان معين كالجزيرة العَرَبِيَّة.

وجوب الإيمان بالأنبياء والرسل

الإيمان بالأنبياء والرسل جميعهم، وتصديقُهم في أخبارهم، وطاعتُهم في أوامرهم ونواهيهم، فرضٌ علىٰ كل مُسْلِم، بدليل:

أ- قوله تعالىٰ: ﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ - البقرة ١٣٦[1].

ب- وقال سُبْحَانَهُ: ﴿ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ ﴾ - البقرة ٢٨٥.

ج- وجعل سُبْحَانَهُ للذين يؤمنون بالجميع الأجر العَظِيْم، قال تعالىٰ: ﴿ وَالَّذِينَ

(١) لَوَامِع الأَنْوَار البَهِيَّة ج٢ ص٢٦٣.

ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمۡ يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ أُوْلَٰٓئِكَ سَوۡفَ يُؤۡتِيهِمۡ أُجُورَهُمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴾ - النساء ١٥٢.

تكذيب الأنبياء أو تنقيصهم كفر:

وهم جَميعاً يشتركون في قدر وَاحِد وهو: النُّبُوَّة.

ولذا اتفق عُلَمَاء الإسلام جَميعاً علىٰ كفر من كذَّب نَبيّاً مَعْلُوْم النُّبُوَّة، وكذا من سب نَبيّاً أو انتقصه، ويجب قتله. بدليل قوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ١٥٠ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ١٥١ ﴾ - النساء[1].

القُرْآن الكَرِيْم والكتب السماوية الأُخرى

أُصُوْل الرسالات السماوية وعَقَائِدها وهدفها وَاحِد، وهو: توجيه البشر إلىٰ طريق الصَّلَاح، قال تعالىٰ: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ ﴾ - الشُّوْرَىٰ ١٣.

وقال سُبْحَانَهُ: ﴿ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾ - النساء ٥٩.

ولذٰلِكَ طلب القُرْآن الكَرِيْم الإيمان بجميع الرسل، وما أُنزل عليهم من كتب: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ ﴾ - البقرة ٤.

---

(١) لَوَامِع الأَنْوَار البَهِيَّة ج٢ ص٢٦٣.

لٰكِن الإيمان المطلوب شرعاً بالكتب السماوية - ومنها الإنجيل والتوراة والزبور -، إنما يراد به التَّصْدِيْق بأن هٰذِهِ الكتب كانت من عند الله تعالىٰ، وكانت صَادِقَة، وما جاءت إلَّا للغرض الذي جاء لإتمامه القُرْآن. فما جاء بها مخالفاً لما في القُرْآن الكَرِيْم فهو مُحَرَّف قطعاً، لا يعوَّل عليه.

وهنا لا بد أن نبين **أهم فُرُوْق القُرْآن الكَرِيْم عن الكتب السماوية** فيما يأتي:

١- الكتب التي نزلت قبل القُرْآن ضاعت نُسخُها الأصلية، ولم يبقَ منها إلَّا ترجمتها.

أما القُرْآن فهو محفوظ بلفظه وبكلماته، التي أنزلها الله تعالىٰ علىٰ نبيه مُحَمَّد ﷺ، ووصل إلينا بهٰذَا الشكل متواتراً.

٢- اختلط كلام الناس من فُقَهَاء أو مُفَسِّرِيْن أو مؤرخين بتلك الكتب.

أما القُرْآن فلم يختلط به شيء حتىٰ من كلام رَسُوْل الله ﷺ. ولقد منع النَّبِيّ ﷺ من كتابة الحَدِيْث في بِدَايَة نُزُوْل القُرْآن، لئلا يختلط الحَدِيْث بالقُرْآن. وكتب التَّفْسِيْر والحَدِيْث والفِقْه مستقلة تَماماً عن القُرْآن، كما هو معروف.

٣- لم يستطع أحد أن يثبت باستناد تاريخي أن أيّاً من هٰذِهِ الكتب الموجودة الآن نزل علىٰ النَّبِيّ الذي نسب إليه ذٰلِكَ الكتاب، كما لم يمكن تعيين الزمن الذي نزل به.

أما القُرْآن فالتاريخ قاطع بشواهده أنه نزل علىٰ مُحَمَّد ﷺ، وأن آياته منها ما عُيِّنَ مكان نُزُوْله أو زمنه أو سببه.

٤- لُغَات الكتب السماوية القديمة اندرست منذ زمن طَوِيْل، فلم نجد متكلماً بها، بل إن من يفهمها قليل جداً.

أما لُغَة القُرْآن الكَرِيْم فهي لُغَة حية يتكلم بها إلىٰ الآن مئات الملايين من المُسْلِمِيْن في أقطار العالم المُخْتَلِفَة.

٥- أَحْكَام كل من الكتب القديمة - كما يبدو من قِرَاءتها - خاصةٌ بالزمن وبالأُمَّة التي نزل فيها ذٰلِكَ الكتاب، جاءت تلبية لحاجاته ووفق أحواله.

في حين أن أَحْكَام القُرْآن عامة لجميع الناس ولكل زمان.

٦- كل من الكتب القديمة وإن كان فيه من الدعوة إلىٰ الخَيْر والصَّلَاح والأخلاق، فإنه لم يستوفِ الفَضَائِل.

لٰكِن القُرْآن استوفىٰ الفَضَائِل كَامِلَة، سواء نُصَّ عليها في الكتاب القديم أم لم يُنَصّ.

٧- تسرَّب إلىٰ كل من الكتب القديمة التحريف، والأُمور التي لا توافق العقل، وتقوم علىٰ الظلم، بل تحوي أُموراً من قبيل الفحشاء والمُنْكَر.

أما القُرْآن فإنه صَلَاح كله ومنزَّه عن الفاحشة وليس فيه ما يخالف العقل[1].

٨- الشرائع القديمة اختصت بالعلاج الروحي.

أما الشَّرِيْعَة الإسلامِيَّة فقد وضعت المبادئ الكفيلة بحلِّ مشاكل الإنسان وتلبية حاجاته المادية والروحية في كل زمان ومكان.

هٰذِهِ المزايا هي التي لأجلها أمر الناس باتباع القُرْآن وحده دون سواه.

---

(١) انظر: مبادئ الإسلام ص٨٠-٨٤.

وانظر الفصل الذي كتبه العالم الجَلِيْل رحمة الله الهِنْدِيّ في كتابه (إظهار الحق) الذي أثبت فيه تحريف الكتب السماوية التي سبقت القُرْآن.

صفات الرسُل والأنبياء

جَبَل الله تعالىٰ بعض الناس علىٰ مَوَاهِب معينة كالقوة والشعر والفُنُوْن... يتفوق بها علىٰ الآخرين، ووَهَبَ الأنبياء والرسل الكفاءة العالية لقيادة الناس وهدايتهم إلىٰ الصراط المُستقِيم، لذٰلِكَ امتازوا بصفات فيها جميع خصال الخَيْر، بعيدة عن جميع النقائص، التي لا تليق بهم.

وهٰذِهِ الصفات الواجبة في حقهم هي: العِصْمَة، والتبليغ، والفطانة، والذكورة، والسَّلَامَة من النقائص[1].

الصفة الأُوْلَى: العِصْمَة

العِصْمَة لُغَةً: الحفظ.

واصْطِلَاحاً: هي أن لا يخلق الله تعالىٰ فيهم ذنباً[2].

---

(١) اختلفوا في تعداد الصفات الواجبة في حق الرسل، فذكر السَّنُوْسِيّ ثلاث صفاتٍ هي: الصدق، والأمانة، والتبليغ. / أُمّ البَرَاهِيْن وشرحها للسَّنُوْسِيّ وحَاشِيَة الدُّسُوْقِيّ عليه ص١٧٣.

وأضاف الدَّرْدِيْر في شَرْح الخَرِيْدَة ص٩٦ صفةً رابعةً وهي الفطانةُ، بقوله:

وصِفْ جميعَ الرُّسْلِ بالأمانهْ ... والصِّدْقِ والتبليغِ والفَطَانهْ

وهٰذِهِ الصفات الأربع ذكرها اللَّقَانِيّ في جَوْهَرَة التَّوْحِيْد. / انظرها في شرحها للبَاجُوْرِيّ ص٢٠٠.

ويُعبِّر المتكلمون عن الأمانة بالعِصْمَة. / حَاشِيَة الدُّسُوْقِيّ علىٰ شَرْح أُمّ البَرَاهِيْن ص١٧٨.

وهٰذَا التعداد أُريدَ به التَّوْضِيْح والبَيَان، وفي بعض جزئياته تداخل، وما عَدَدْتُهُ من الصفات مستقاةٌ من أقوال الجُمْهُوْر كما سيأتي، وتعدادها للتَّوْضِيْح أيضاً.

(٢) شَرْح العَقَائِد العَضُدِيَّة للدَّوَّانِيّ ج٢ ص٢٧٩ والمَوَاقِف ج٨ ص٢٨٠ وفيه قال: (عندنا، بناءً علىٰ ما يقتضيه أصلنا من استناد الأشياء كلها إلىٰ الفاعل المُخْتَار ابتداءً. خلافاً للفَلَاسِفَة...).

أو هي لُطف من الله تعالىٰ، يحمله علىٰ فعل الخَيْر، ويزجره عن فعل الشر. مع بَقَاء الاخْتِيَار، تَحْقِيْقاً للابتلاء[1].

والذنب إما أن يكون من الكبائر أو من الصغائر.

النوع الأول: العِصْمَة من الكبائر

للكبائر تَعْرِيْفَات مُخْتَلِفَة، أرجحها:

أَنَّ **الكبائر** هي: ما تَرتب عليها حَدٌّ أو توعد عليه بالنار أو اللعنة أو الغضب.

أما **الصغائر** فهي: ما ليس فيها حَدٌّ في الدنيا، ولا وعيد في الآخِرَة[2].

والكبائر إما كفر أو كذب أو غيرهما من الذنوب الكَبِيْرَة الأُخرىٰ. وتفصيل عِصْمَة الأنبياء عن هٰذِهِ الأنواع من الكبائر هو:

أولاً: العِصْمَة من الكفر:

اتفق جُمْهُوْر المُسْلِمِيْن علىٰ أن الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ معصومون من الكفر قبل الوحي وبعده، ولا يجوز الكفر عليهم في حال صِغَرهم تَبَعاً للوالدَيْن، لأنهم مُؤْمِنون

وفي المُسَايَرَة وشرحها المُسَامَرَة ص٢٢٧-٢٢٨: (العِصْمَة تخصيص القدرة بالطاعة، فلا يخلق لمن وُصِفَ بها قدرة المعصية. ولَخَّصَ ابنُ الهُمَام في التَّحْرِيْر هٰذَا التعريف، وذكر معه تعريفاً آخر فقال: العِصْمَةُ عدم قدرة المعصية، أو هي خلقٌ مَانِع منها غير ملجئ إلىٰ تركها، بل يبقىٰ معه الاخْتِيَار. والتعريف الثاني يلائم قول الإمَام أبي مَنْصُوْر المَاتُرِيْدِيّ: العِصْمَةُ لا تزيل المحنةَ. أي الابتلاء المقتضي لبَقَاء الاخْتِيَار. قال صاحب البِدَايَة: ومعناه - يعني قول أبي مَنْصُوْر - أنها لا تجبره علىٰ الطاعة، ولا تعجزه عن المعصية، بل هي لُطْفٌ من الله تعالىٰ يحمله علىٰ فعل الخَيْر... للابتلاء). وانظر: التَّحْرِيْر وشرحه التَّقْرِيْر والتَّحْبِيْر ج٢ ص٢٢٣.

(١) المُسَامَرَة ص٢٢٩ ومِفْتَاح الباب ص١٧٥.

(٢) شَرْح العَقِيْدَة الطَّحَاوِيَّة لابن أبي العِزّ ص٣٥٦ وكتابنا: الشُّوْرَىٰ بين النَّظَرِيَّة والتَّطْبِيْق ص١١٤-١١٥.

بالله، عارفون به حقيقة، فلا يجري عليهم حكم الكفر تَبَعاً[١].

ثانياً: العِصْمَة من الكذب:

الصدق: هو مطابقة حكم الخبر للواقع. وأنواعه ثلاثة:

١- الصدق في دعوىٰ الرِّسَالَة.

٢- الصدق في ما يبلغونه عن الله عَزَّ وجَلَّ إلىٰ الناس من الأَحْكَام الشَّرْعِيَّة.

٣- الصدق في جميع ما ينطق به مما يتعلق بأُمور الدنيا[٢].

وضده: الكذب. فيستحيل صدور الكذب عن الأنبياء فيما دَلَّ المُعجِز القاطِع علىٰ صدقهم فيه كدعوىٰ الرِّسَالَة، وما يبلغونه عن الله تعالىٰ إلىٰ الخلائق، علىٰ سَبِيْل العمد بإجماع أهل المِلَل والشرائع كلها، ويستحيل صدوره علىٰ سَبِيْل السهو والنسيان عند أكثر الأَئِمَّة الأَعْلَام. وهو المعتمد علىٰ ما أفاده المحققون[٣].

---

(١) شَرْح المُسَايَرَة لقَاسِم بن قُطْلُوْبُغَا ص٢٢٧-٢٢٨. ونقل الإيْجِيّ في المَوَاقِف ج٨ ص٢٦٤ إجماع الأُمَّة علىٰ عِصْمَة الأنبياء من الكفر قبل النُّبُوَّة وبعدها. وانظر: شَرْح العَقَائِد العَضُدِيَّة للدَّوَّانِيّ السَّابِق، وشَرْح العَقَائِد النَّسَفِيَّة للتَّفْتَازَانِيّ ص١٧٠ وشَرْح المَقَاصِد للتَّفْتَازَانِيّ ج٥ ص٤٩ ولَوَامِع الأَنْوَار البَهِيَّة ج٢ ص٣٠٤.

غير أن الأزراقة من الخَوَارِج جَوَّزوا عليهم الذنب، وكلُّ ذنبٍ عندهم كفرٌ، فلزمهم تجويز الكفر، بل يُحكىٰ عنهم أنهم قالوا بجواز بعثة نَبِيّ عَلِمَ اللهُ تعالىٰ أنه يكفر بعد نبوته. / المَوَاقِف وشرحه للسَّيِّد الشَّرِيْف ج٨ ص٢٦٤. وانظر: المَقَاصِد وشرحه للتَّفْتَازَانِيّ ج٥ ص٤٩-٥٠ والتَّقْرِيْر والتَّحْبِيْر ج٢ ص٢٢٤ ولَوَامِع الأَنْوَار البَهِيَّة السَّابِق.

(٢) شَرْح الخَرِيْدَة للدَّرْدِيْر ص٩٧ ورِسَالَة في التَّوْحِيْد للطَّائِيّ ص٦٧.

الصدق من الصفات الأربع عند الدَّرْدِيْر واللَّقَانِيّ كما تَقدَّم، وأنواعه هي هٰذِهِ الثلاثة، لٰكِنهم قالوا بأن الصدق هو النوعان الأولان، أما النوع الثالث منه فهو من جزئيات الأمانة. / حَاشِيَة الدُّسُوْقِيّ علىٰ شَرْح أُمّ البَرَاهِيْن للسَّنُوْسِيّ ص١٧٣ وشَرْح الجَوْهَرَة للبَاجُوْرِيّ ص٢٠٢.

(٣) المَوَاقِف وشرحه للسَّيِّد الشَّرِيْف ج٨ ص٢٦٣، وفيه: الخلاف في جواز صدور الكذب عنهم علىٰ سَبِيْل السهو والنسيان، قال: (منعه الأُستاذ أبو إسْحَاق وكثير من الأَئِمَّة الأَعْلَام لدلالة

أما الكذب فيما يتعلَّق بغير الإرسال والتبليغ فالحقُّ أنه من عِداد سائر الذنوب علىٰ التفصيل الذي سيأتي[١].

والدليل العقلي علىٰ صدق الأنبياء هو:

أ- لو جاز عليهم الكذب والافتراء، للزم الكذب في خبره تعالىٰ، وهو مُحال، لأنه تعالىٰ صدَّقهم بالمعجزات[٢].

ب- الكذب معصية، وهم معصومون منها.

ج- لو كذبوا، وعرف الناس منهم ذٰلِكَ، لانتفت فائدة الرِّسَالَة[٣].

المعجزة علىٰ صدقهم في تبليغ الأَحْكَام، فلو جاز الخُلْفُ في ذٰلِكَ لكان نقضاً لدلالة المعجِزة وهو ممتنع. وجَوَّزَهُ القَاضِي أبو بَكْر مصيراً منه إلىٰ عدم دخوله في التَّصْدِيْق المقصود بالمعجِزة، فإن المعجِزة إنما دَلَّت علىٰ صدقه فيما هو مُتذكِّرٌ له عامدٌ إليه، وأما ما كان من النسيان وفَلَتَات اللِّسَان فلا دلالة لها علىٰ الصدق فيه، فلا يَلْزَم من الكذب هناك نقضٌ لدلالتها).

وفي شَرْح العَقَائِد النَّسَفِيَّة للتَّفْتَازَانِيّ ص١٧٠: (الأنبياء معصومون عن الكذب خصوصاً فيما يتعلَّقُ بأمر الشرائع وتبليغ الأَحْكَام وإرْشَاد الأُمَّة، إما عمداً فبالإجماع، وإما سهواً فعند الأكثرين. وعَلَّقَ الكَسْتَلِيّ علىٰ قوله: «إما عمداً فبالإجماع، وإما سهواً فعند الأكثرين» بقوله: هٰذَا في الكذب فيما يتعلَّق بالتبليغ والإرسال، إذ قد دَلَّت المعجزةُ علىٰ صدقهم فيه دلالةً قطعيةً، لٰكِن القَاضِي أبا بَكْر خصَّصها بما يعمدونه ويتذكرونه، فجَوَّز صدور الكذب عنهم سهواً أو نسياناً في الأُمور التبليغية بناءً علىٰ أنه لا دلالة للمعجزة علىٰ عصمتهم عن ذٰلِكَ).

وانظر: شَرْح العَقَائِد العَضُدِيَّة للدَّوَّانِيّ ج٢ ص٢٧٩ وشَرْح المَقَاصِد للتَّفْتَازَانِيّ ج٥ ص٥٠ والتَّقْرِيْر والتَّحْبِيْر ج٢ ص٢٢٤ ولَوَامِع الأَنْوَار البَهِيَّة ج٢ ص٣٠٧ والوسيلة ص٦٩٥.

(١) حَاشِيَة الكَسْتَلِيّ ص١٧٠.

(٢) المَوَاقِف ج٨ ص٢٦٣ وشَرْح الخَرِيْدَة للدَّرْدِيْر ص٩٧ ورِسَالَة في التَّوْحِيْد للطَّائِيّ ص٦٧ ولَوَامِع الأَنْوَار البَهِيَّة ج٢ ص٣٠٧ وشَرْح الجَوْهَرَة للبَاجُوْرِيّ ص٢٠٢.

(٣) رِسَالَة في التَّوْحِيْد للطَّائِيّ السَّابِقَة.

والدليل النقلي علىٰ صدقهم:

أ- قوله تعالىٰ: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤ ﴾ - النَّجْم[1].

ب- قوله تعالىٰ: ﴿ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ - يس ٥٢.

ج- قوله تعالىٰ: ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ۝٤٤ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ۝٤٥ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ۝٤٦ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ۝٤٧ ﴾ - الحَاقَّة.

د- في الحَدِيْث: قالوا يا رَسُوْل الله: إنك تداعبنا. قال: إني لا أقول إلَّا حقاً.

أما ما ظَاهِره الكذب في حق الأنبياء، كما في واقعة إبْرَاهِيْم الخَلِيْل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ حين كسر الأصنام، وأبقىٰ كَبِيْرها فقط، فلما سئل ﴿ قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۝٦٢ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ۝٦٣ ﴾ - الأنبياء، فإنه يؤول بأن قصده عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ التهديد والتبكيت والاستهزاء، لأنه لم يكن عند الأصنام غيره، فما فائدة قولهم من فعل هٰذَا؟[2].

وقيل معناه: سلوهم إن نطقوا فإنهم يصدقون، وإن لم يكونوا ينطقون فليس هو الفاعل. وفي ضمن هٰذَا الكلام اعتراف بأنه هو الفاعل. فقوله هٰذَا من المعاريض، وفي المعاريض مندوحة عن الكذب، وهو الذي صَحَّحَهُ القُرْطُبِيّ[3] وقيل غيره[4].

---

(١) شَرْح الخَرِيْدَة للدَّرْدِيْر ص٩٧.

(٢) حَاشِيَة الصَّاوِيّ علىٰ الدَّرْدِيْر ص٩٧ وتَفْسِيْر البَيْضَاوِيّ ص٣٢١.

وحَدِيْث المداعبة، في: سُنَن التِّرْمِذِيّ في: ٢٤ كتاب البِرّ والصِّلَة، ٥٧ باب ما جاء في المِزَاح، رقم ١٩٩٠، ص٣٣٢، عن أبي هُرَيْرَة، وهو حَدِيْث حَسَن صَحِيْح.

(٣) تَفْسِيْر القُرْطُبِيّ ج٦ ص٤٣٤٠.

(٤) انظر: تَفْسِيْر البَيْضَاوِيّ السَّابِق.

ثالثاً: العِصْمَة من الكبائر الأُخرىٰ:

ونبين هنا حال صدور الكَبِيْرَة عنهم عمداً أو سهواً، قبل البعثة أو بعدها.

قبل البعثة:

الأنبياء قبل بعثتهم معصومون عن صدور الكَبِيْرَة، التي توجب النُّفْرَة منهم مطلقاً، كعُهْر الأُمَّهَات والفجور في الآباء[١].

أما الكبائر الأُخرىٰ فلا يمتنع صدورها عنهم عند أكثر الأَشَاعِرَة وجمع من المُعْتَزِلَة، إذ لا دلالة للمعجزة علىٰ امتناع الكَبِيْرَة قبل البعثة. وبه قال الإِبَاضِيَّة.

وقال أكثر المُعْتَزِلَة: يمتنع صدور الكَبِيْرَة منهم، لأنها توجب النُّفْرَة عمن ارتكبها، وهي تمنع عن اتباعه، فتفوت مصلحة البعثة[٢].

وبعد البعثة:

هم معصومون منها عمداً، وهو قول الجُمْهُوْر من المحققين والأَئِمَّة. ومعصومون منها سهواً أو علىٰ سَبِيْل الخطأ في التأويل، وهو المُخْتَار[٣].

وأطلق الزَّيْدِيَّة والإمَامِيَّة المنعَ من وقوع الكبائر منهم، علىٰ ما سيأتي.

---

(١) المَوَاقِف ج٨ ص٢٦٥ وشَرْح العَقَائِد النَّسَفِيَّة للتَّفْتَازَانِيّ ص١٧١ وشَرْح العَقَائِد العَضُدِيَّة للدَّوَّانِيّ ج٢ ص٢٧٩ نَقْلاً عن شَرْح العَقَائِد.

(٢) المَوَاقِف وشرحه للسَّيِّد الشَّرِيْف ج٨ ص٢٦٥. وانظر: شَرْح العَقَائِد النَّسَفِيَّة للتَّفْتَازَانِيّ ص١٧١. وقول الإِبَاضِيَّة في: مَشَارِق أَنْوَار العُقُوْل ج٢ ص٢٥.

(٣) المَوَاقِف وشرحه للسَّيِّد الشَّرِيْف ج٨ ص٢٦٤-٢٦٥ وفيه: (صدور الكبائر عنهم عمداً بعد الوحي منعه الجُمْهُوْر من المحققين والأَئِمَّة، ولم يخالف فيه إلَّا الحَشْوِيَّة. أما صدورها عنهم سهواً أوعلىٰ سَبِيْل الخطأ في التأويل فجَوَّزَهُ الأكثرون، والمُخْتَار خلافه). وانظر: المُسَايَرَة وشرحها المُسَامَرَة ص٢٣٢ وشَرْح العَقَائِد النَّسَفِيَّة للتَّفْتَازَانِيّ ص١٧٠-١٧١ وشَرْح المَقَاصِد للتَّفْتَازَانِيّ ج٥ ص٥١ والوسيلة ص٦٩٥ ومَشَارِق أَنْوَار العُقُوْل ج٢ ص٢٥.

النوع الثاني: العِصْمَة من الصغائر

الصغائر نوعان:

أ- صغائر الخِسَّة التي تلحق فاعلها بالأراذل، كسرقة حَبَّة أو لقمة والتطفيف بتمرة.

والأنبياء قبل البعثة: معصومون منها[١].

وبعد البعثة كذٰلِكَ، فلا تصدر عنهم أَصلاً، لا عمداً ولا سهواً بالاتفاق[٢].

ب- الصغائر الأُخرىٰ:

والأنبياء غير معصومين منها، قبل البعثة عمداً وسهواً.

أما بعد البعثة فهم معصومون منها عمداً، وتجوز سهواً، لٰكِن لا يُصِرُّون عليها، ولا يُقَرُّون من الله تعالىٰ عليها، بل يُنَبَّهُون فيتنبهون. وعليه المحققون من المُحَدِّثِيْن والسَّلَف الصالح[٣]، لقوله ﷺ: (إنما أنا بَشَر أَنْسَىٰ كما تَنسَون، فإذا نَسِيت فذكّروني)[٤]. هٰذَا قول الأَشَاعِرَة.

وذهب المُعْتَزِلَة إلىٰ تجويز الصغائر علىٰ الأنبياء، إما علىٰ سَبِيْل السهو علىٰ

---

(١) المَوَاقِف وشرحه للسَّيِّد الشَّرِيْف ج٨ ص٢٦٥ وشَرْح العَقَائِد النَّسَفِيَّة للتَّفْتَازَانِيّ، وشَرْح العَقَائِد العَضُدِيَّة للدَّوَّانِيّ، السَّابِقَان، والمُسَامَرَة ص٢٣٣-٢٣٤.

(٢) المَوَاقِف وشرحه للسَّيِّد الشَّرِيْف، وشَرْح العَقَائِد النَّسَفِيَّة للتَّفْتَازَانِيّ، والوسيلة، ومَشَارِق أَنْوَار العُقُوْل، السَّابِقَة، والمُسَامَرَة ص٢٣٣.

(٣) شَرْح العَقَائِد العَضُدِيَّة للدَّوَّانِيّ ج٢ ص٢٧٩ وشَرْح المَقَاصِد للتَّفْتَازَانِيّ ج٥ ص٥١. وانظر: المَوَاقِف وشرحه للسَّيِّد الشَّرِيْف ج٨ ص٢٦٥ ولَوَامِع الأَنْوَار البَهِيَّة ج٢ ص٣٠٤-٣٠٥ والمُسَايَرَة وشرحها المُسَامَرَة ص٢٣٢. وهناك أقوال أُخرىٰ في هٰذِهِ المصادر وفي شَرْح العَقَائِد النَّسَفِيَّة للتَّفْتَازَانِيّ ص١٧١ والوسيلة ص٦٩٥. وفي شَرْح المَقَاصِد السَّابِق: ذهب إمَام الحَرَمَيْن وأبو هَاشِم من المُعْتَزِلَة إلىٰ تجويز الصغائر عمداً.

(٤) المُسَايَرَة وشرحها المُسَامَرَة ص٢٣٤. وقد تقدم تَخْرِيْج الحَدِيْث آنِفاً.

قول بعضهم، أو علىٰ سَبِيْل التأويل علىٰ قول قومٍ منهم، أو لأنها تقع محبَطةً بكثرة ثوابهم[١].

فعِصْمَة الأنبياء عند المُعْتَزِلَة هي عن الكبائر عمداً أو سهواً، والصَّغِيْرَة عندهم لا تُخِلُّ بالعِصْمَة[٢].

وذهب الزَّيْدِيَّة كالمُعْتَزِلَة إلىٰ تجويز الصغائر علىٰ الأنبياء، والمنع من وقوع الكبائر منهم[٣].

وقالت الإمَامِيَّة: يجب عصمتهم عن الذنوب كلها صَغِيْرَة أو كَبِيْرَة[٤]، عمداً وسهواً، قبل الوحي وبعده[٥].

أَدِلَّة عِصْمَة الأنبياء

استدل العُلَمَاء علىٰ عِصْمَة الأنبياء بأَدِلَّة كثيرة منها:

١- لو صدر منهم الذنب، لحرم أتباعهم فيما يصدر عنهم، مع أن أتباعهم فرض، وللإجماع، ولقوله تعالىٰ: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ - آل عِمْرَان ٣١.

٢- لو أذنبوا لردت شهادتهم، إذ لا شهادة لفاسق بالإجماع، ولقوله تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ ﴾ - الحُجُرَات ٦، لأن من لا تُقبل شهادته في القليل الزائل من متاع الدنيا، كيف تسمع شهادته في الدِّيْن القَيِّم؟ أي: القائم إلىٰ يوم القيامة.

٣- إنْ صدر عنهم ذنب وجب زجرهم وتعنيفهم، لعموم وجوب الأمر

---

(١) كَشْف المُرَاد ص٣٧٦.

(٢) خُلَاصَة علم الكلام ص٢٦٧.

(٣) المَعَالِم الدِّيْنِيَّة ص٩٥.

(٤) كَشْف المُرَاد ص٣٧٦ والباب الحادي عشر وشرحه النَّافِع ص٣٧ ومِفْتَاح الباب ص١٧٦ وخُلَاصَة علم الكلام ص٢٦٧ والمَوَاقِف وشرحه للسَّيِّد الشَّرِيْف ج٨ ص٢٦٥.

(٥) المصادر السَّابِقَة، إلاَّ كَشْف المُرَاد.

بالمعروف والنهي عن المُنْكَر، ولا شك أَنَّ زجرهم إيذاء لهم، وإيذاؤهم حرام إجماعاً، لقوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾ - الأحزاب ٥٧.

٤- لو أذنبوا لاستحقوا العذاب واللوم والطعن، لدخولهم تحت قوله تعالىٰ: ﴿ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴾ - الجن ٢٣، وقوله سُبْحَانَهُ: ﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ - البقرة ٤٤، لٰكِن ذٰلِكَ منتفٍ بالإجماع، ولكونه من أعظم المنفِّرات.

٥- قوله تعالىٰ في إبْرَاهِيْم وإسْحَاق ويَعْقُوْب ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ﴾ - الأنبياء ٩٠، والجمع المُحَلَّىٰ بالألف واللام للعموم، فيتناول جميع الخَيْرَات من الأفعال والتروك، وقوله ﴿ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴾ - ص ٤٧، أي: من المصطفين الأخيار في كل الأُمور، فلا يجوز صدور ذنب عنهم[1].

٦- لو جاز عنهم أن يخونوا الله تعالىٰ بفعل محرم أو مكروه، للزم أن يكون ذٰلِكَ المحرم أو المكروه طاعة، لأن الله تعالىٰ أمرنا باتباعهم في أقوالهم وأفعالهم من غير تفصيل، إلَّا فيما ثبت اختصاصهم به، فكل ما صدر منهم فنحن مَأْمُوْرون به، وكل مَأْمُوْر به، فهو طاعة، لأن الله تعالىٰ لا يأمر بالفحشاء[2].

وما نقل عن الأنبياء مما يشعر بمعصية:

فما نقل بطريق خبر الآحاد فمردود، لأن نسبة الخطأ إلىٰ الرُّوَاة أهون من نسبة المعاصي إلىٰ الأنبياء.

أما ما **نقل** بطريق التواتر فما دام له مَحْمَل آخر حملناه عليه وصرفناه عن ظَاهِره

---

(١) المَوَاقِف وشرحه للسَّيِّد الشَّرِيْف ج٨ ص٢٦٥-٢٦٧ وشَرْح المَقَاصِد للتَّفْتَازَانِيّ ج٥ ص٥١-٥٢ وفيهما أَدِلَّة أُخرىٰ.

(٢) شَرْح الخَرِيْدَة للدَّرْدِيْر ص٩٧ وشَرْح أُمّ البَرَاهِيْن للسَّنُوْسِيّ وحَاشِيَة الدُّسُوْقِيّ عليه ص١٧٦ وشَرْح السَّنُوْسِيَّة للبَاجُوْرِيّ ص١٢٦ وشَرْح الجَوْهَرَة للبَاجُوْرِيّ ص٢٠١.

لدلائل العِصْمَة، أما إذا لم نجد له مَحْمَلاً فنفسره علىٰ:

أنه كان قبل البعثة، أو أنه من قبيل ترك الأَوْلَىٰ، أو أنه من قبيل صغائر صدرت عنهم سهواً[1].

ومن النصوص التي تشعر بمعاصي الأنبياء:

أولاً: ما ورد في قصة آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ في القُرْآن الكَرِيْم:

قوله تعالىٰ: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ - طه ١٢١.

والعصيان من الكبائر، بدلالة قوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ - الجن ٢٣.

والغواية تؤكد ذٰلِكَ لأنها اتباع الشيطان، لقوله تعالىٰ: ﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ - الحِجْر ٤٢. وقوله تعالىٰ: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ - البقرة ٣٦. واستحقاق الإخْرَاج من الجنة بسبب إزلال الشيطان لهما، يَدُلّ علىٰ أن الصادر منهما كَبِيْرَة.

وخالف آدم النهي عن الأكل من الشَّجَرَة، وارتكاب المنهي عنه ذنب.

وأُجيب عنها:

بأن ذٰلِكَ كان قبل النُّبُوَّة، لأنه لم تكن له في الجنة أُمَّة. وإنما صار نَبِيّاً بعد خروجه من الجنة، بدليل قوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ﴾ - طه ١٢٢، إذ الاجتباء كان متأخِّراً عن الواقعة.

وكان ذٰلِكَ عن نسيان، لقوله تعالىٰ: ﴿فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ - طه ١١٥.

---

(١) المَوَاقِف وشرحه للسَّيِّد الشَّرِيْف ج٨ ص٢٦٨. وانظر: شَرْح المَقَاصِد للتَّفْتَازَانِيّ ج٥ ص٥٣ وشَرْح العَقَائِد للتَّفْتَازَانِيّ والخَيَالي عليه ص١٧١-١٧٢ وشَرْح العَقَائِد العَضُدِيَّة للدَّوَّانِيّ ج٢ ص٢٧٩ عن شَرْح العَقَائِد.

أو كان زلة وسهواً، حيث ظن آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّ المنهي عنها شَجَرَة بعينها، وقد قَرَّبَ فرداً آخر من جنسها[١].

ثانياً: ما ورد في قصة مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ من قتله المِصْرِيّ في قوله تعالىٰ: ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ - القصص ١٥.

وقتله كان عدواناً، لقوله سُبْحَانَهُ: ﴿قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ - القصص ١٥، وقوله تعالىٰ: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي﴾ - القصص ١٦، وقوله عَزَّ وجَلَّ: ﴿قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ - الشعراء ٢٠.

أُجيب:

بأن قتله المِصْرِيّ كان قبل النُّبُوَّة.

وجاز أن يكون قتله خطأً.

وما صدر منه من أقوال، فهو محمول علىٰ التواضع وهضم النفس[٢].

ثالثاً: ما ورد في حق نبينا مُحَمَّد ﷺ من نصوص، مثل:

١- قوله تعالىٰ: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ - الفَتْح ٢، وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ - غافر ٥٥ ومُحَمَّد ١٩، وقوله سُبْحَانَهُ: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾ - التوبة ١١٧، فأسند الذنب للنَّبِيّ ﷺ وتاب عليه، ولا وجود للتوبة إلَّا مع الذنب.

أُجيب:

---

(١) المَوَاقِف وشرحه للسَّيِّد الشَّرِيْف ج٨ ص٢٦٨-٢٦٩ وشَرْح المَقَاصِد للتَّفْتَازَانِيّ ج٥ ص٥٣ وشَرْح المُسَايَرَة لقَاسِم بن قُطْلُوْبُغَا ص٢٣٢.

(٢) المَوَاقِف وشرحه للسَّيِّد الشَّرِيْف ج٨ ص٢٧١. وانظر: شَرْح المَقَاصِد للتَّفْتَازَانِيّ ج٥ ص٥٥.

بأن ذٰلِكَ الذنب كان قبل النُّبُوَّة.

أو إنه محمول علىٰ ما فرط منه من الزلة وترك الأفضل.

أو نسب إليه ذنب قومه، فإن رئيس القوم قد ينسب إليه ما فعله بعضُ أتباعه. والمعنىٰ: ليغفر لأجلك ما تقدم من ذنب أُمتك، وما تأخر عنه، واستغفر لذنب أُمتك، وتاب الله علىٰ أُمَّة النَّبِيّ[1].

٢- قوله تعالىٰ: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ۝٢﴾ - عَبَس.

أُجيب:

بأنه محمول علىٰ أنه عتاب علىٰ ترك الأفضل والأَوْلَىٰ مما يليق بخلقه العَظِيْم، ومثله يُعاتَب علىٰ مثله[2]، فأخطأ في اجتهاده، فعَبَس في وجه الأعمىٰ ابن أُمّ مَكْتُوْم، حين جاء يسأله عن الدِّيْن، لأنه رأىٰ أن مجادلة صناديد قُرَيْش قد تؤدي إلىٰ أنهم سيميلون إليه فيسلمون، وأن الإعراض عنهم قد يَزِيْد في حقدهم ونفرتهم عن الإسلام.

لذٰلِكَ انشغل بهم عن ابن مَكْتُوْم الأعمىٰ المسلم، الذي جاء مستَزِيْداً من الإسلام. فالأَوْلَىٰ أن لا يَعْبِسَ بوجهه، فيتولَّىٰ عنه، بل يتلطَّف معه، لما له من منزلة الإسلام.

٣- قوله تعالىٰ: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ﴾ - التوبة ٤٣.

أُجيب:

بأنه تلطف في الخطاب، وعتاب علىٰ ترك الأفضل، وإرْشَاد إلىٰ الاحتياط في تدبيره الخَيْرَات[3]. فإنه ﷺ أذن لجَمَاعَة تعللوا بأعذار - كان الأَوْلَىٰ أن لا تُقبل

(١) المَوَاقِف وشرحه للسَّيِّد الشَّرِيْف ج٨ ص٢٧٩ وشَرْح المَقَاصِد للتَّفْتَازَانِيّ ج٥ ص٥٨.

(٢) المَوَاقِف وشرحه للسَّيِّد الشَّرِيْف ج٨ ص٢٧٩ وشَرْح المَقَاصِد للتَّفْتَازَانِيّ ج٥ ص٥٩.

(٣) شَرْح المَقَاصِد للتَّفْتَازَانِيّ ج٥ ص٥٩.

منهم - فتخلفوا عن غزوة تَبُوْك، وتارك الأفضل في أُمور الحَرْب قد يعاقب.

٤- قوله تعالىٰ: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٦٧﴾ لَّوۡلَا كِتَٰبٞ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمۡ فِيمَآ أَخَذۡتُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٦٨﴾ ﴾ - الأنفال.

أُجيب:

بأنه عتاب علىٰ ترك الأَوْلَىٰ الذي هو الإثخان، فإن تحريم الفِدَاء مُسْتَفَاد من هٰذِهِ الآية، فقبل نُزُوْلها لا تحريم. ومعنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿ لَّوۡلَا كِتَٰبٞ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمۡ فِيمَآ أَخَذۡتُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴾- الأنفال ٦٨: أنه لولا سبق تحليل الغنائم لعذَّبتكم بسبب أخذكم هٰذَا الفِدَاء[1]، لأن الرَّسُوْل ﷺ حين استشار أصحابه في أخذ الفِدَاء من أسرىٰ بَدْر، ومنهم سبعون من أشراف قُرَيْش، وآثر أكثرهم أخذ الفِدَاء علىٰ القتل، اجتهد فأيدهم، لأنه رق لحالهم، ورجا أن يسلموا، أو يخرج من أَصلابهم المُؤْمِنون، ولينتفع المُسْلِمُوْن بمال الفدية في شؤونهم، فأخطأ في اجتهاده وكان الأفضل أن لا يؤثر أخذ الفِدَاء علىٰ نصرة الإسلام.

وبعد كل هٰذَا:

فإن الله تعالىٰ لم يُبْقِ رَسُوْله علىٰ خطأ، لأنه لو أقره علىٰ الخطأ، لتساوىٰ الخطأ والصواب في الشَّرْع، وفي ذٰلِكَ تضليل ومدعاة إلىٰ التشكيك في الشَّرِيْعَة.

وكان الرَّسُوْل ﷺ يرجع إلىٰ الصواب الذي بينه الله تعالىٰ له، ولا يكتم من الوحي شَيئاً من تسجيل الخطأ عليه، أو توجيه العتاب إليه[2].

---

(١) المَوَاقِف وشرحه للسَّيِّد الشَّرِيْف ج٨ ص٢٧٨. وانظر أمثلة أُخرىٰ من هٰذَا في: شَرْح المَوَاقِف، وشَرْح المَقَاصِد، وشَرْح المُسَايَرَة لقَاسِم بن قُطْلُوْبُغَا ص٢٣٢-٢٣٣.

(٢) مناهل العِرْفَان ج٢ ص٢٨٨.

حكمة تسجيل زلة الأنبياء

فإن قيل: فما بال زلة الأنبياء حكيت في القُرْآن، بحيث تتلىٰ علىٰ مر الزمان، مع أن الله تعالىٰ غَفَّار ستار، وقد أمرنا بالسِّتْر علىٰ مرتكب الذنب؟

أُجيب:

بأن تسجيل زلتهم يَدُلّ علىٰ:

١- صدق الأنبياء، وأن ما يبلغونه يكون بأمر الله تعالىٰ بلا إخفاء شيء منه.

٢- أن الأنبياء علىٰ جَلَالَة قدرهم وكثرة طاعتهم، يلجؤون إلىٰ الله تعالىٰ دائماً بالاستغفار والتضرع في أدنىٰ زلة، فعلىٰ الناس - وهم أدنىٰ مرتبة منهم بكثير - أن يتضرعوا إلىٰ الباري كل حين.

٣- أن الصغائر ليست مما يقدح في الإيمان، فلا تكفِّر الإنسان[١].

الصفة الثانية: التبليغ

هو إيصال الأَحْكَام التي أُمروا بتبليغها إلىٰ المُرْسَل إليهم[٢]، ليرشدوهم إلىٰ سَعَادَة الدنيا والآخِرَة، وكل منهم لم يُخفِ عن الناس من ذٰلِكَ شَيئاً عمداً أو سهواً[٣].

وأقسام الموحىٰ به ثلاثة:

١- قسم أُمروا بكتمانه، كبعض الأسرار الإلٰهِيَّة، فهو خاص بينهم وبين ربهم، لم

(١) انظر: شَرْح المَقَاصِد للتَّفْتَازَانِيّ ج٥ ص٦٠.
(٢) شَرْح الخَرِيْدَة للدَّرْدِيْر ص١٠٠.
(٣) رِسَالَة في التَّوْحِيْد للطَّائِيّ ص٦٨.

يُبلِّغوا منه حرفاً.

٢- قسم خُيِّرُوا فيه بين التبليغ وعدمه، بلغوا بعضه وكتموا البعض الآخر.

٣- قسم أُمروا بتبليغه، فلم يكتموا منه حرفاً.

وهٰذَا القسم (الأَخِيْر) هو الذي بَلَّغوه إلىٰ من أُرسلوا إليه، لأنهم مَأْمُوْرون بتبليغه، لوجوبه عليهم[١].

والدليل العقلي علىٰ وجوبه:

١- أنهم لو كتموا شَيئاً مما أُمروا بتبليغه للخلق، لأَصبحنا مَأْمُوْرين بكتمان العلم، لأن الله أمرنا بالاقتداء بهم، مع أن الأَحَادِيْث صريحة في أن كاتم العلم ملعون[٢].

٢- أنهم لو كتموا شَيئاً مما أُمروا بتبليغه، لكانوا خائنين، مع أنهم معصومون عن الخيانة[٣].

٣- أنهم مبشرون ومُنْذِرون، لقوله تعالىٰ: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾ - النساء ١٦٥، ولا يَتِمّ التبشير والإنذار إلَّا بالتبليغ.

٤- لو أنهم كتموا ما أُمروا بتبليغه لكانوا ملعونين بنص الكتاب، قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ ﴾ - البقرة ١٥٩[٤].

---

(١) شَرْح الخَرِيْدَة للدَّرْدِيْر وحَاشِيَة الصَّاوِيّ عليه ص١٠١. وانظر: شَرْح الجَوْهَرَة للبَاجُوْرِيّ ص٢٠٣ ورِسَالَة في التَّوْحِيْد للطَّائِيّ السَّابِقَة.

(٢) شَرْح الجَوْهَرَة للبَاجُوْرِيّ ص٢٠٣.

(٣) شَرْح الخَرِيْدَة للدَّرْدِيْر ص١٠٠ ورِسَالَة في التَّوْحِيْد للطَّائِيّ ص٦٩. وانظر: لَوَامِع الأَنْوَار البَهِيَّة ج٢ ص٣٠٨.

(٤) شَرْح الخَرِيْدَة للدَّرْدِيْر ص١٠٠-١٠١.

والدليل النقلي:

قوله تعالىٰ: ﴿ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ﴾ - المائدة ٩٩.

وقوله تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ﴾ - المائدة ٦٧[١].

الصفة الثالثة: الفَطَانَة

هي: التَّيَقُّظ والتَّفَطُّن[٢] وحِدَّة العقل وذكاؤه[٣] وقوة الرأي[٤].

فلا يجوز أن يكون النَّبِيّ مُغَفَّلاً أو بليداً أو أبله[٥].

الدليل العقلي علىٰ وجوب هٰذِهِ الصفة للأنبياء:

١- لأنهم أُرسلوا لإقامة الحجج وإبطال شُبَه المجادلين، ولا يكون ذٰلِكَ من أبله ولا من مُغَفَّل[٦].

٢- لأنهم ساسة الجميع ومرجعهم في المشكلات[٧].

---

(١) شَرْح الخَرِيْدَة للدَّرْدِيْر، ورِسَالَة في التَّوْحِيْد للطَّائِيّ، السَّابِقَان.

(٢) شَرْح الجَوْهَرَة للبَاجُوْرِيّ ص٢٠٢.

(٣) شَرْح الخَرِيْدَة للدَّرْدِيْر ص١٠٠.

(٤) في المَقَاصِد وشرحه للتَّفْتَازَانِيّ ج٥ ص٦١: (من شروط النُّبُوَّة: كَمَال العقل والذكاء والفِطْنَة وقوة الرأي، ولو في الصِّبَا كعِيسَىٰ ويَحْيَىٰ عَلَيْهِمَاٱلسَّلَامُ). وكذا في لَوَامِع الأَنْوَار البَهِيَّة ج٢ ص٢٦٧.

(٥) شَرْح الخَرِيْدَة للدَّرْدِيْر ص١٠٠ وشَرْح الجَوْهَرَة للبَاجُوْرِيّ ص٢٠٢ ولَوَامِع الأَنْوَار البَهِيَّة السَّابِق.

(٦) شَرْح الخَرِيْدَة للدَّرْدِيْر، وشَرْح الجَوْهَرَة للبَاجُوْرِيّ، السَّابِقَان، ورِسَالَة في التَّوْحِيْد للطَّائِيّ ص٧٠.

(٧) المُسَامَرَة ص٢٢٦.

٣- لأننا مَأْمُوْرون بالاقتداء بهم في الأقوال والأفعال، والمقتدىٰ به لا يكون بليداً.

٤- البلادة صفة نقص، تُخِلّ بمنصبهم الشَّرِيْف[١].

والدليل النقلي عليها:

١- قوله تعالىٰ: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ﴾ - الأنبياء ٧٩.

٢- قوله تعالىٰ: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ - ص ٢٠.

٣- قوله تعالىٰ: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ﴾ - النَّحْل ١٢٥. أي: بالطريق التي هي أرفق بهم، والجدال لا يكون إلَّا من فَطِن ذكيّ[٢].

الصفة الرابعة: الذكورة

اختلف العُلَمَاء في أن الذكورة شرطٌ في الأنبياء علىٰ قولين:

القول الأول: الذكورة شرط في النَّبِيّ، وهو الذي اتفق عليه جُمْهُوْر العُلَمَاء، فلا يجوز أن تكون المرأة نبية، بل إن بعضهم[٣] نقل الإجماع علىٰ هٰذَا القول. ومن أَدِلَّة هٰذَا الشرط ما يأتي:

أ- قوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم﴾ - يُوْسُف ١٠٩[٤].

---

(١) شَرْح الخَرِيْدَة للدَّرْدِيْر ص١٠٠ ورِسَالَة في التَّوْحِيْد للطَّائِيّ السَّابِقَة.

(٢) شَرْح الجَوْهَرَة للبَاجُوْرِيّ ص٢٠٢ ورِسَالَة في التَّوْحِيْد للطَّائِيّ السَّابِقَة.

(٣) قال الإمَام جَلَال الدِّيْن جَارُ الله: اتفق أَهْل السُّنَّة والجَمَاعَة أن الذكورة شرط النُّبُوَّة، خلافاً للأَشْعَرِيّ. / شَرْح المُسَايَرَة لقَاسِم بن قُطْلُوْبُغَا ص٢٣٠.

ونقل الإجماعَ علىٰ عدم نُبُوَّة النساء، الكَرْمَانِيُّ في شَرْح البُخَارِيّ. / حَاشِيَة المَرْجَانِيّ علىٰ شَرْح العَقَائِد العَضُدِيَّة ج١ ص٩. وحكىٰ الإجماعَ علىٰ عدم نُبُوَّة مريم، البَيْضَاوِيُّ وغيره. / المُسَامَرَة ص٢٣١ وتَفْسِيْر البَيْضَاوِيّ ص٦٨.

(٤) شَرْح المُسَايَرَة لقَاسِم بن قُطْلُوْبُغَا ص٢٣٠.

فأثبت الرِّسَالَة للرِّجَال الموحىٰ إليهم، وأشعر بنفي ذٰلِكَ عن غيرهم، فلا تكون أُنثىٰ نَبِيَّةً[١].

ب- وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا﴾ - الأنعام ٩.

ج- النُّبُوَّة والرِّسَالَة تقتضي: الاشتهار بالدعوة، وإظهار المعجزة، ولزوم الاقتداء. والأُنوثة توجب السِّتْر، فبينهما تَنَافٍ[٢].

د- النساء لا يَصْلُحن للإمارة والسَّلْطَنَة والقَضَاء وإقامة الصلاة بالإجماع، فلا يَصْلُحن للنُّبُوَّة من باب أَوْلَىٰ[٣].

القول الثاني: لا تُشترط الذكورة في النَّبِيّ، وهو قول الأَشْعَرِيّ[٤] والقُرْطُبِيّ[٥] وبعض أهل الظَّاهِر والحَدِيْث[٦]، فقالوا بنُبُوَّة مريم، بدليل:

قوله تعالىٰ: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ﴾ - مريم ١٦، فذكرها تعالىٰ في عداد الأنبياء[٧].

وبإرسال جِبْرِيْل إليها بقوله تعالىٰ: ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ - مريم ١٧[٨].

---

(١) لَوَامِع الأَنْوَار البَهِيَّة ج٢ ص٢٦٥.

(٢) شَرْح المُسَايَرَة لقَاسِم بن قُطْلُوْبُغَا ص٢٣٠ عن الصَّابُوْنِيّ الذي صَحَّحَ هٰذَا القول. ولَوَامِع الأَنْوَار البَهِيَّة ج٢ ص٢٦٦.

(٣) شَرْح المُسَايَرَة لقَاسِم بن قُطْلُوْبُغَا السَّابِق.

(٤) شَرْح المُسَايَرَة لقَاسِم بن قُطْلُوْبُغَا عن الإمَام جَلَال الدِّيْن جَار الله، ولَوَامِع الأَنْوَار البَهِيَّة، السَّابِقَان.

(٥) لَوَامِع الأَنْوَار البَهِيَّة السَّابِق. وانظر رأي القُرْطُبِيّ في تَفْسِيْره عند تَفْسِيْر الآية ٤٢ من آل عِمْرَان و١٦ من مريم.

(٦) المُسَايَرَة ص٢٣٠.

(٧) شَرْح المُسَايَرَة لقَاسِم بن قُطْلُوْبُغَا ص٢٣٠-٢٣١ وذكر أنها حُجَّة الأَشْعَرِيّ.

(٨) شَرْح المُسَايَرَة لقَاسِم بن قُطْلُوْبُغَا ص٢٣١ وذكر أنها حُجَّة الأَشْعَرِيّ. والمُسَامَرَة ص٢٣١.

وباصطفاء الله تعالىٰ لها بقوله: ﴿ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ ﴾ - آل عِمْرَان ٤٢[1].

وقال البعضُ بنُبُوَّة أُمّ مُوسَىٰ[2]، بدليل:

وحي الله تعالىٰ إليها، بقوله سُبْحَانَهُ: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾ - القصص ٧.

ورَدَّ الجُمْهُوْر هٰذَا القول بأن اصطفاء مريم وإرسال جِبْرِيْل إليها لم يكن وحياً بشرع، إذ لا دلالة عليه في الآيات المذكورة[3]، والوَحْي إلىٰ أُمِّ مُوسَىٰ لا يراد به إلاَّ معنىٰ الإلْهَام، كقوله تعالىٰ: ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ ﴾ - النَّحْل ٦٨.

الصفة الخامسة: السَّلَامَة من النقائص

وأعني بهٰذَا الشرط الأُمور الآتية:

أ- أن يكون سالماً من نقص الخِلْقَة. فشرطه أن يكون أَكْمَل أهل زمانه خَلْقاً حال الإرسال (أي: حال بعثه إلىٰ الناس).

وقد يُعترَض بعُقْدَة لِسَان مُوسَىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فيُجاب:

بأن عُقْدَة لِسَان مُوسَىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كانت قبل الإرسال، وأُزيلت بدعوته عند الإرسال، بدليل:

دعاء مُوسَىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ حين أوحىٰ الله تعالىٰ إليه، وأمره بالدعوة قال: ﴿ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً

(١) المُسَامَرَة السَّابِق.

(٢) لَوَامِع الأَنْوَار البَهِيَّة ج٢ ص٢٦٦. لٰكِن في تَفْسِيْر القُرْطُبِيّ عند تَفْسِيْر الآية ٧ من سورة القصص: (وأجمع الكل علىٰ أَنَّ أُمَّ مُوسَىٰ لم تكن نَبِيَّة).

(٣) المُسَامَرَة ص٢٣١.

مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِي ﴿٢٨﴾ ﴾- طه، فأجابه تعالىٰ: ﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴾ - طه ٣٦[١].

ب- أن يكون سالماً من العيوب المُنَفِّرَة للطِّبَاع من الأمراض والأسقام كالبَرَص والجُذَام[٢].

وقد يُعترَض ببلاء أَيُّوب عَلَيْهِ السَّلَامُ الذي أُصيب بداء جِلْدِيّ نَفَّرَ الناس منه، فيُجاب:

بأن بلاءه كان قبل نبوته عَلَيْهِ السَّلَامُ[٣]، وقد زال بعدها، قال سُبْحَانَهُ: ﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ﴾ - الأنبياء ٨٤.

ج- أن يكون سالماً من دناءة الصِّنَاعَة كالحِجامة، ومن قلة المروءة كالأكل علىٰ الطريق[٤]. وهٰذَا مبني علىٰ تقدِير: أن العُرف كان يستنكر ذٰلِكَ في زمن النَّبِيّ ﷺ[٥].

د- أن يكون سالماً من القسوة[٦] والفَظَاظَة والغلظة[٧]، لأن قسوة القلب مُوجِبَةٌ للبعد عن الله تعالىٰ، إذ هي مَنْبَع المعاصي، لأن القلب هو المُضْغَة التي إذا صَلَحَت

(١) المُسَايَرَة وشرحها المُسَامَرَة ص٢٢٦.

(٢) المُسَامَرَة ص٢٢٦ والمَقَاصِد وشرحه للتَّفْتَازَانِيّ ج٥ ص٦١ ولَوَامِع الأَنْوَار البَهِيَّة ج٢ ص٢٦٧.

(٣) المُسَايَرَة وشرحها المُسَامَرَة ص٢٣٢.

(٤) المُسَايَرَة وشرحها المُسَامَرَة ص٢٢٦ والمَقَاصِد وشرحه للتَّفْتَازَانِيّ ج٥ ص٦١ ولَوَامِع الأَنْوَار البَهِيَّة ج٢ ص٢٦٧ والوسيلة ص٦٩٣.

(٥) المُسَايَرَة وشرحها المُسَامَرَة ص٢٣٢.

(٦) المُسَايَرَة وشرحها المُسَامَرَة ص٢٢٦.

(٧) المَقَاصِد وشرحه للتَّفْتَازَانِيّ ج٥ ص٦١ ولَوَامِع الأَنْوَار البَهِيَّة ج٢ ص٢٦٧.

صَلَحَ الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، كما نطق به الحَدِيْث الصَّحِيْح، قال ﷺ: (إن أبعد الناس من الله القلبُ القاسي)[١].

ولأن الغلظة والشدة وعدم اللين مع الناس، يوجب النُّفْرَة من النَّبِيّ، لذٰلِكَ يقول الله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ - آل عِمْرَان ١٥٩.

وأَخيراً:

فإن هٰـذِهِ الصفات التي مرت بنا الواجبة للأنبياء، تعني اتصافهم بكل كَمَال إنساني، وتنفي عنهم كل نقص بشري، لأن النُّبُوَّة أَشْرَف مناصب الخلق، ومقتضية لغَايَة الإِجْلَال اللائق بها، فيعتبر لها انتفاء ما ينافي ذٰلِكَ[٢].

لذا يستحيل علىٰ الأنبياء أضداد الصفات المتقدِّمة الواجبة في حقهم عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ، فيستحيل عليهم:

ما هو ضد العِصْمَة، مثل الخيانة والكذب والكفر وارتكاب الذنوب.

وما هو ضد التبليغ، مثل كتمان ما أُمروا بتبليغه.

وما هو ضد الفَطَانَة، مثل البلادة والغفلة والبَلَاهَة[٣].

وما هو ضد السَّلَامَة من النقائص، كالعيوب التي تُخِلُّ بالشخصية، التي تُخِلُّ بحكمة بعثتهم رسلاً مبشرين ومُنْذِرِيْن.

---

(١) المُسَامَرَة ص٢٢٦.

وحَدِيْث: إن أبعد الناس... إلخ، في: سُنَن التِّرْمِذِيّ في: ٣٣ كتاب الزهد، ٦٢ باب منه، رقم ٢٤١١، ص٣٩٤، وقال: حَدِيْث حَسَن غَرِيْب.

(٢) المُسَامَرَة ص٢٢٧.

(٣) شَرْح الخَرِيْدَة للدَّرْدِيْر ص١٠٠-١٠١. وانظر: شَرْح الجَوْهَرَة للبَاجُوْرِيّ ص٢٠٤.

الوَحْي

الوَحْي لُغَةً: قال أبو إسْحَاق: أصل الوَحْي في اللُّغَة كلها إعْلَام في خفاء. ولذٰلِكَ صار الإلْهَام يسمىٰ وَحْياً، قال الأَزْهَرِيّ: وكذٰلِكَ الإشارة والإيماء يسمىٰ وَحْياً، والكتابة تسمىٰ وَحْياً... وكل هٰذَا إعْلَام، وإن اختلفت أسباب الإعْلَام فيها[1].

والوَحْي اصْطِلَاحاً: هو أن يُعْلِمَ الله تعالىٰ من اصطفاه من عِبَاده كلَّ ما أراد اطلاعه عليه من ألوان الهِدَايَة والعلم، ولٰكِن بطريقة سرية خفية غير معتادة للبشر[2].

سُئِلَ الزُّهْرِيّ عن الوَحْي فقال: الوَحْي ما يوحي الله إلىٰ نَبِيّ من الأنبياء، فيثبته في قلبه، فيتكلم به ويكتبه، وهو كلام الله. ومنه ما لا يتكلم به، ولا يكتبه لأحد، ولا يأمر بكتابته، ولٰكِنه يحدِّث به الناس حَدِيْثاً، ويبين لهم أن الله أمره أن يبينه للناس، ويبلغهم

---

(١) لِسَان العَرَب مادة (وحي).

من المعاني **اللُّغَوِيَّة لكلمة (الوَحْي)** في القُرْآن الكَرِيْم ما يأتي:

أ- الكلام الخفي: ومنه قوله تعالىٰ: ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ - الأنعام ١١٢، أي: يُسِرُّ بعضهم إلىٰ بعض.

ب- الإلْهَام: ومنه قوله تعالىٰ: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾ - النَّحْل ٦٨، أي: أَلْهَمَ النَّحْل.

ج- الإشارة: ومنه قوله تعالىٰ: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ - مريم ١١، أي: أشار إليهم.

د- الأمر: ومنه قوله تعالىٰ: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ - الزلزلة ٥.

انظر: المفردات للرَّاغِب، مادة (وحي).

وذكر القَاضِي عِيَاض في الشفا ج١ ص٢٥٢ قولين في أصل الوَحْي: أولهما: الإسراع، ومنه تلقي النَّبِيّ لأنه علىٰ عَجَل، ومنه الإلْهَام، ومنه الخط لسرعة حركة اليد... . وثانيهما: السر والإخفاء ومنه الإلْهَام، وإيحاء الشياطين، أي: وسوستهم.

(٢) مناهل العِرْفَان ج١ ص٥٦.

إياه[١].

فإذا أُطلق (الوَحْي) في لِسَان أهل الشَّرْع انصرف إلىٰ التَّعْلِيْم السِّرِّيّ الصادر من الله تعالىٰ الوارد إلىٰ الأنبياء، فهو أخص من المعنىٰ اللُّغَوِيّ بخصوص مصدره وموردِه[٢].

أنواع الوَحْي

جمع أنواعَ الوَحْي قولُه عَزَّ وجَلَّ: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ - الشُّوْرَىٰ ٥١.

تفيد هٰذِهِ الآية الكَرِيْمَة أنه: ما صح لأحد من البشر أن يكلمه الله إلَّا علىٰ أحد ثلاثة أوجه[٣]:

الوجه الأول: وَحْياً. أي: إما عن الوَحْي وهو:

أ- الإلْهَام والقذف في القلب: كما أوحىٰ الله تعالىٰ إلىٰ أُمّ مُوسَىٰ أن أرضعيه، ومنه قوله ﷺ: (إن رُوح القُدُس نَفَثَ في رُوْعي: أن نفساً لن تموت حتىٰ تستكمل أَجَلَهَا وتَستوعِبَ رزقَها...).

ب- الرؤيا في المنام: كما أوحىٰ الله إلىٰ إبْرَاهِيْم بذبح ولده إسْمَاعِيْل، ومنه مبدأ وَحْي النَّبِيّ مُحَمَّد ﷺ الرؤيا الصالحة في النوم، وكان لا يرىٰ رؤيا إلَّا جاءت مثل فلق الصبح، كما جاء في الحَدِيْث الصَّحِيْح.

---

(١) الإتْقَان ص١٢٠، وفيه: أَخْرَجَهُ ابن أبي حَاتِم من طريق عُقَيْل عن الزُّهْرِيّ.

(٢) المُخْتَار من كنوز السُّنَّة النَّبَوِيَّة ص١.

(٣) قال الإمَام الرَّازِيّ في تَفْسِيْر هٰذِهِ الآية ج٢٧ ص١٨٧: (واعلم أن كل وَاحِد من هٰذِهِ الأقسام الثلاثة وحي، إلَّا أنه تعالىٰ خصص القسم الأول باسم الوَحْي لأن ما يقع في القلب علىٰ سَبِيْل الإلْهَام، فهو يقع دفعة، فكان تخصيص لفظ الوَحْي به أَوْلَىٰ. فهٰذَا هو الكلام في تَمْيِيْز هٰذِهِ الأقسام بعضها عن بعض). وانظر أقوالاً أُخرىٰ أَيضاً في: سُبُل الهُدَىٰ والرَّشَاد ج٢ ص٣٥٢.

الوجه الثاني: أو من وراء حجاب. أي: وإما علىٰ أن يسمعه من غير واسطة مبلغ، كما أسمع الله تعالىٰ مُوسَىٰ كلامه من غير واسطة، وكذا الملائكة الذين كلمهم الله تعالىٰ في خلق آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

الوجه الثالث: أو يرسل رَسُوْلاً. أي: وإما علىٰ أن يرسل إليه رَسُوْلاً من الملائكة، فيبلغ ذٰلِكَ المَلَك ذٰلِكَ الوَحْي إلىٰ الرَّسُوْل البشري. ورَسُوْل الملائكة هو جِبْرِيْل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ[1].

أساليب نُزُوْل جِبْرِيْل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ على رَسُوْل الله مُحَمَّد ﷺ

لنُزُوْل جِبْرِيْل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ علىٰ الرَّسُوْل مُحَمَّد ﷺ أساليب مُخْتَلِفَة هي:

أ- أن يأتي إلىٰ النَّبِيّ ﷺ علىٰ صورته الحقيقية المَلَكِيَّة.

ب- أن يأتي إلىٰ النَّبِيّ ﷺ علىٰ صورة رجل فيكلمه، كما في الصَّحِيْح: (وأَحيَاناً يَتَمَثَّل لي المَلَكُ رَجُلاً فيكلِّمني، فأعِي ما يقول). وزاد أبو عَوَانَة في صَحِيْحه: (وهو أهونه عَلَيّ).

فيراه الحاضرون ويستمعون إليه، كما في حَدِيْث عُمَر بن الخَطَّاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: (قال: بينما نحن عندَ رَسُوْل الله ﷺ ذاتَ يومٍ، إذْ طَلَعَ علينا رجلٌ شديدُ بياض الثياب، شديدُ

---

(١) انظر: تَفْسِيْر الرَّازِيّ ج٢٧ ص١٨٦ وتَفْسِيْر القُرْطُبِيّ ج٨ ص٥٨٧٣ وروح المعاني للآلُوْسِيّ ج٢٥ ص٥٤ وزاد المعاد ج١ ص١٨ والإتْقَان ص١٢٠.

وحَدِيْث: إن رُوح القُدُس... إلخ، رواه أبو نُعَيْم في الحِلْيَة عن أبي أُمَامَة. / الجَامِع الصَّغِيْر ص١٣٨ وضَعَّفَهُ السُّيُوْطِيّ.

الرُّوْع (بضم الراء): العقل والقلب.

وحَدِيْث: أول ما بدئ به رَسُوْل الله ﷺ من الوَحْي الرؤيا الصالحة... إلخ، في: صَحِيْح البُخَارِيّ في: ١ كتاب بَدْء الوَحْي، ٣ باب، رقم ٣، عن عَائِشَة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا. وفي صَحِيْح مُسْلِم في: ١ كتاب الإيمان، ٧١ باب بَدْء الوَحْي إلىٰ رَسُوْل الله ﷺ، رقم ١٦٠، عن عَائِشَة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا.

سواد الشَّعَرِ، لا يُرَىٰ عليه أَثَرُ السفَر، ولا يَعرفه منا أَحَدٌ، حتىٰ جلس إلىٰ النَّبِيّ ﷺ، فأسند رُكْبَتَيْهِ إلىٰ رُكْبَتَيْهِ، ووَضَعَ كَفَّيْهِ علىٰ فَخِذَيْهِ، وقال: يا مُحَمَّد أَخْبِرْنِي عن الإسلام... إلخ).

وكان قد سأل النَّبِيّ ﷺ عن الإسلام والإيمان وأمارات الساعة، ورَسُوْل الله ﷺ يجيبه، حتىٰ إذا انتهىٰ من أسئلته وذهب، قال رَسُوْل الله ﷺ: (فإنه جِبْرِيْل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، أتاكم يُعلمُكم دينكم).

ج- أن يأتي إلىٰ النَّبِيّ ﷺ خفية دون أن يراه أحد، فيظهر عليه أثر التغير والانفعال.

والرَّسُوْل ﷺ يصف حالته عند الوَحْي فيقول: (أَحيَاناً يأتيني مِثْلَ صَلْصَلَة الجَرَس، وهو أَشَدُّه عَلَيّ، فيُفْصَم عني، وقد وَعَيْتُ عنه ما قال).

قال الخَطَّابِيّ: والمُرَاد أنه صوت متدارك يسمعه، ولا يتثبته أول ما يقرع سمعه، حتىٰ يفهمه من بعد ذٰلِكَ.

والحكمة في تقدمه: أن يفرغ سمعه للوَحْي، فلا يبقىٰ فيه مكان لغيره.

وفي الصَّحِيْح كما تقدم آنِفاً أن هٰذِهِ الحالة أشد حالات الوَحْي عليه.

قيل: إنه إنما كان ينزل هٰكَذَا، إذا نزلت آية وعيد أو تهديد[1].

---

(١) الإتْقَان، وزاد المعاد، السَّابِقَان، وإرْشَاد السَّارِي ج١ ص٥٨ وشَرْح صَحِيْح مُسْلِم للنَّوَوِيّ بهامش إرْشَاد السَّارِي ج٩ ص١٨٣.

وحَدِيْث: وأَحيَاناً يَتَمَثَّل لي المَلَك... إلخ، في: صَحِيْح البُخَارِيّ في: ١ كتاب بَدْء الوَحْي، ٢ باب، رقم ٢، بهٰذَا اللفظ، عن عَائِشَة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا. و٥٩ كتاب بَدْء الخلق، ٦ باب ذكر الملائكة، رقم ٣٢١٥، عن عَائِشَة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا. وصَحِيْح مُسْلِم في: ٤٣ كتاب الفَضَائِل، ٢٣ باب عَرَق النَّبِيّ ﷺ في البرد وحين يأتيه الوَحْي، رقم ٢٣٣٣، عن عَائِشَة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا.

وحَدِيْث: بينما نحن عند رَسُوْل الله ﷺ ذات يوم... إلخ، في: صَحِيْح مُسْلِم في: ١ كتاب الإيمان، أول باب الإيمان والإسلام والإحسان...، رقم ٨، عن عُمَر بن الخَطَّاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

وسيأتي كلام آخر عن أحوال النَّبِيّ ﷺ عند الوَحْي، وذٰلِكَ عند الكلام عن الوَحْي (الوَحْي أمر خارج عن النفس) بعد قليل.

كيفية الوَحْي ونُزُوْله على النَّبِيّ ﷺ

العلم بكيفية الوَحْي سِرٌّ من الأسرار التي لا يدرك كيفيتها العقل، وسَمَاع المَلَك من الله تعالىٰ ليس بَحْرف أو صوت، بل يخلق الله تعالىٰ للسامع علماً ضرورياً. فكما أن كلامه تعالىٰ ليس من جنس كلام البشر، فسَمَاعه الذي يخلقه لعَبْده ليس من جنس سَمَاع الأصوات[1].

ولنُزُوْل الوَحْي علىٰ النَّبِيّ ﷺ طريقان:

أحدهما: أن النَّبِيّ ﷺ انخلع من صورة البَشَرِيَّة إلىٰ صورة المَلَكِيَّة، وأخذه من جِبْرِيْل.

وثانيهما: أن المَلَك انخلع إلىٰ البَشَرِيَّة حتىٰ يأخذه الرَّسُوْل منه[2].

وفي الحالتين صعوبة وشدة علىٰ الجِبِلَّة البَشَرِيَّة، لذٰلِكَ كان يحدث في تلك الحالة غيبة وغَطِيْط[3].

وحَدِيْث: أَحيَاناً يأتيني مثل صَلْصَلَة الجَرَس... إلخ، في الحَدِيْث المتقدم: (وأَحيَاناً يَتَمَثَّل لي المَلَك رَجُلاً...)، وتَخْرِيْجه هناك.

(١) إرْشَاد السَّارِي ج١ ص٥٩.

(٢) الإتْقَان ص١١٨ والوَحْي المُحَمَّدِيّ ص٨٣ وفيه قول ابن خَلْدُوْن. وإرْشَاد السَّارِي ج١ ص٥٩ وسُبُل الهُدَىٰ والرَّشَاد ج٢ ص٣٤٢.

(٣) إرْشَاد السَّارِي ج١ ص٦٠.

الجِبِلَّة: الخِلْقَة والطبيعة والغريزة. / المِصْبَاح المُنِيْر مادة (جَبَل)، والقَامُوْس المُحِيْط مادة (الجبل).

الغَطِيْط: تردُّد النَّفَس صاعداً إلىٰ الحلق حتىٰ يسمعه من حوله. / المِصْبَاح المُنِيْر مادة (غطه).

وصورة اندماج النَّبِيّ بالمَلَك يمكن أن يتصورها الذهن، حين يتصور التنويم المغناطيسي، الذي كَشَفَهُ الدكتور مسمر الألماني في القرن الثامن عشر، وأقام عليه البَرَاهِيْن، حتىٰ اعترف به العُلَمَاء عِلْمِيّاً، بعد أن اختبروا الآلاف من الخلق، وله في الغرب أَنْصَار كثيرون، وله دور وكتب ومستشفيات يؤمها الناس للتداوي به.

وفيه يسيطر الأُستاذ المنوِّم علىٰ الوَسِيْط بإيحاءاته، فيغط الوَسِيْط بنومه، فيسأله عما يريد، فيجد الجواب حاضراً، وقد يأمره أو ينهاه، فينفذ الوَسِيْط ذٰلِكَ ولو بعد صحوه. ولا بد أن يكون بين نفسين مُخْتَلفي الطبائع أحدهما أقوىٰ إرادة من الأُخرىٰ، فلا يستطيع امرؤ أن يقوم بهٰذِهِ التَّجْرِبَة علىٰ نفسه.

فالتنويم المغناطيسي يقرِّب أمر الوَحْي، فاتصال المَلَك بالرَّسُوْل يؤثر به لاستعداد خاص فيهما، ففي المَلَك قوة الإلقاء والتَّأْثِيْر لأنه روحاني محض، والثاني فيه قابلية التَّلَقِّي عن هٰذَا المَلَك، لصفاء روحانيته وطهارة نفسه المناسبة لطهارة المَلَك، وعند تسلط المَلَك ينسلخ الرَّسُوْل عن حالته العادية، فيظهر التغير عليه، فيتلقىٰ من المَلَك، وينطبع في قلبه ما تلقاه، حتىٰ إذا انجلىٰ عن الوَحْي، وجد ما تلقاه منقوشاً علىٰ قلبه، لا ينساه[1].

ثم إننا لم نجد ما يدفع هٰذَا الاتصال بين المَلَك والنَّبِيّ، بدليل:

أن العلم الحَدِيْث يَسَّرَ لنا الأجهزة العِلْمِيَّة، التي أدركنا بها ما كان مجهولاً من قبل. فمن هٰذِهِ الأجهزة ما سجل تصادم الأشعة الكونية في الفضاء، ومنها ما يَدُلّنا علىٰ صوت ذباب طائر علىٰ بعد بضعة أميال، وكأنه يطير عند أذنك، وهٰذِهِ الآلات الحَدِيْثَة تستطيع إدراك ما لا يمكننا سَمَاعه بالطرق السمعية التقليدية.

وهٰذِهِ الطاقة غير العادية للسَّمَاع لا تخص الآلات العِلْمِيَّة الحَدِيْثَة وإنما وَهْبها الله

(١) مناهل العِرْفَان ج١ ص٥٩-٦٠ وفيه أمثلة عن تَجَارِب التنويم المغناطيسي، والنبأ العَظِيْم ص٧٥-٧٦.

تعالىٰ لبعض الحيوانات.

فالكلب يستطيع أن يشم ريح الحيوان الذي مر من الطريق، وقد استُغلت هٰذِهِ الحاسة لكَشْف المجرمين، فالقفل الذي كسره اللص يشمه الكلب المدرب، ثم يقتفي أثره، فيميزه من بين الآلاف.

وحشرة (العُثَّة) مجنَّحة، لو وضعتها علىٰ نافذة فستحدث صوتاً يسمعه قرينها علىٰ مسافة بعيدة جداً، ويجيبها بطريقته الخاصة.

والجُنْدُب يحك رجليه وجناحيه، ويصوت بطريقة غير عادية، ويسمع علىٰ بُعد نصف ميل.

ولأبي النطيط قدرة خارقة، فهو يسمع ويحس بالحركة التي تحدث في نصف قطر من ذرة الهيدروجين... .

وهناك أمثلة أُخرىٰ كثيرة تدل علىٰ أن هناك وَسَائِل غير مرئية لدىٰ ذوي الحواس الخاصة، وإذا كان الأمر كذٰلِكَ فلا غرابة في ادعاء النَّبِيّ أنه يسمع صوتاً من ربه لا يدركه عامة الناس، ما دام من الممكن أن توجد في هٰذَا العالم حركات وأصوات لا يسمعها الإنسان، ولٰكِن تسجلها الآلات، وما دامت هناك رَسَائِل تدركها حيوانات دون أُخرىٰ[1].

الوَحْي أمر خارج عن النفس

الاعْتِقَاد بالوَحْي الإلٰهِيّ هو الأَسَاس الذي يبنىٰ عليه الإيمان بالنُّبُوَّات، وهو الطريقة التي جاءت بها العَقَائِد والأَحْكَام الشَّرْعِيَّة وغيرها.

لذٰلِكَ اهتم كثير من أعداء الإسلام بإثارة الشكوك حول الوَحْي مقتفين أثر جهلاء قُرَيْش، وسفهاء المُشْرِكِيْن في ادعاءاتهم الملفقة الكاذبة حول الرَّسُوْل الأعظم ﷺ،

(١) الإسلام يتحدىٰ ص٩٦-٩٧.

حين قالوا عنه: إنه ساحر أو مجنون أو شاعر.

حتىٰ قال هٰؤُلَاءِ من المستشرقين[١] وغيرهم: إن الوَحْي ما هو إلاَّ حَدِيْث النفس وإلْهَامها.

أما نحن فنعتقد: أن الوَحْي ليس هو من قبيل الحدس، والشعور البَاطِنِيّ، ودلالات النفس، والفراسة السَّرِيْعَة، التي غَالباً ما تتأثر بالرِّيَاضات الروحية، والتفكير المستديم الطَّوِيْل. أي: إنه ليس من قبيل الوَحْي النفسي، الذي هو الإلْهَام الفائض من استعداد النفس العالية والسَّرِيْرَة الطاهرة[٢].

لأن هٰذِهِ لا تنشئ المَعْرِفَة التامة واليقين الكَامِل، الذي لا ريب فيه فلا تسمو بصاحبها إلىٰ درجة النُّبُوَّة.

بل إن الوَحْي هو (أمر طارئ زائد علىٰ الطباع البَشَرِيَّة)[٣]، خارجي عن النفس والبَاطِن، لا يخضع لأي تَأْثِيْر يطرأ عليهما، يتلقاه النَّبِيّ ﷺ من الذات الإلٰهِيَّة، بواسطة المَلَك الموكل بذٰلِكَ.

والذي يدقق النَّظَر في كيفية الوَحْي ومَعَالِمه، وما يطرأ علىٰ النَّبِيّ ﷺ من ظواهر، يدرك أن الوَحْي لا يتصل بهوىٰ النفس.

يتضح ذٰلِكَ في الأُمور الآتية[٤]:

١- حين جاء المَلَك جِبْرِيْل في غار حِرَاء إلىٰ النَّبِيّ ﷺ أمره بالقِرَاءَة - وهو

---

(١) انظر: تاريخ الأدب العَرَبِيّ لبروكلمان ج١ ص١٣٤.

(٢) الكلام عن الوَحْي النفسي في: الوَحْي المُحَمَّدِيّ ص٦٦.

(٣) إرْشَاد السَّارِي ج١ ص٦٠.

(٤) انظر: الوَحْي المُحَمَّدِيّ ص٨٩ وما بعدها، ومناهل العِرْفَان ج١ ص٥٦ وما بعدها، و ج٢ ص٢٨٥ وما بعدها، والنبأ العَظِيْم ص٢٠ وما بعدها، والظَّاهِرَة القُرْآنية ص١٦٥ وما بعدها، ومباحث في عُلُوْم القُرْآن ص٢٢ وما بعدها، وكبرىٰ اليقينيات الكونية ص١٩٨ وما بعدها، والرَّسُوْل لسَعِيْد حوىٰ ج٢ ص١٣ وما بعدها.

أُمِّيّ - كما جاء في الصَّحِيْح: (فقال - له جِبْرِيْل - اقرأ[١]. قال: ما أنا بقارئ، قال: - أي: النَّبِيّ ﷺ - فأَخَذَني فغَطَّني حتىٰ بَلَغَ مني الجَهْدَ، ثم أَرسلَني فقال: اقرأ. قلتُ: ما أنا بقارئ. فأَخَذَني فغَطَّني الثانيةَ، حتىٰ بَلَغَ مني الجَهْدَ، ثم أَرسلَني، فقال: اقرأ. فقلتُ: ما أنا بقارئ. فأَخَذَني فغَطَّني الثالثةَ، ثم أَرسلَني فقال: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣﴾ - العَلَق.

فَرَجع بها رَسُوْل الله ﷺ يَرْجُفُ فؤادُه، فدخل علىٰ خَدِيْجَةَ بنت خُوَيْلِد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فقال: زَمِّلُوني زَمِّلُوني، فَزَمَّلُوه، حتىٰ ذهبَ عنه الرَّوْعُ. فقال لخَدِيْجَة، وأخبرها الخبرَ: (لقد خَشِيْتُ علىٰ نفسي)[٢].

وفي رِوَايَة أُخرىٰ للبُخَارِيّ: (فَجَئِثْتُ منه رُعباً)[٣]، وفي رِوَايَة أُخرىٰ: (فَجَئِثْتُ

---

(١) الأمر بالقِرَاءَة أمر تكوين لا تكليف، أي: كن قارئاً. ولذٰلِكَ قال له في الثالثة: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ - العلق ١، أي: كن قارئاً باسمه ومن قبله وبإقداره إياك علىٰ القِرَاءَة، لا بحولك وقوتك، فهو يعلم أنك أُمِّيّ، أما وقد شاء ربك أن يخلق الإنسان من عَلَق، ويجعله بَصِيْراً وسَمِيْعاً، شاء أن يجعلك قارئاً، لما يوحيه إليك، لتقرأه علىٰ الناس، فأنت تكون قارئاً. / الوَحْي المُحَمَّدِيّ هامش ص٨٥.

وغَطُّ جِبْرِيْل الرَّسُوْلَ ﷺ ليفرغه عن النَّظَر إلىٰ أُمور الدنيا، ويُقبل بكُلِّيته إلىٰ ما يُلقىٰ إليه، وكرره للمُبَالغَة، وقيل: غيره. / إرْشَاد السَّارِي ج١ ص٦٣.

(٢) **حَدِيْث: فقال: اقرأ. قال: ما أنا بقارئ**... إلخ، في: صَحِيْح البُخَارِيّ في: ١ كتاب بَدْء الوَحْي، ٣ باب، رقم ٣، بهٰذَا اللفظ، عن عَائِشَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

وصَحِيْح مُسْلِم في: ١ كتاب الإيمان، ٧١ باب بَدْء الوَحْي إلىٰ رَسُوْل الله ﷺ، رقم ١٦٠، عن عَائِشَة أُمّ المُؤْمِنين.

غَطَّني: ضَمَّني بشدَّة وعَصْرني.

(٣) **كلمة: (فَجَئِثْتُ منه رُعباً)**، في: صَحِيْح البُخَارِيّ في: ٦٥ كتاب التَّفْسِيْر - تَفْسِيْر سورة المُدَّثِّر، ٤ باب ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ - المُدَّثِّر ٤، رقم ٤٩٢٥، عن جَابِر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

منه حتىٰ هَوَيْتُ إلىٰ الأرض)[١]، وجَئِثْتُ بمعنىٰ: فزعتُ وخفتُ.

فلجأت زوجته خَدِيْجَة لتُطَمْئِنَ النَّبِيّ ﷺ علىٰ نفسه، وتَطْمَئِنَّ هي عليه، إلىٰ سؤال ابن عمها وَرَقَة بن نَوْفَل، الذي قرأ كتب اليَهُوْد والنَّصَارَىٰ فطمأنها، وقال: هٰذَا الناموس الذي نَزَّلَ الله علىٰ مُوسَىٰ.

فضَمَّ جِبْرِيْل للنَّبِيّ ﷺ بشدة، وأَمْرُهُ بالقِرَاءَة ثلاثاً، تأكيدٌ لهٰذَا التَّلَقِّي الخارجي، ونفيُ كونه خيالياً، ولذٰلِكَ أسرع إلىٰ زوجته خائفاً من هول ما رآه، فقال لها: (زَمِّلُوني زَمِّلُوني)، فدَثَّروه حتىٰ ذهب عنه الرَّوْع.

ويعاوده الوَحْي بعد مدة، يأمره ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾ - المُدَّثِّر، فقال لخَدِيْجَةَ متحيِّراً: لقد أمرني جِبْرِيْل أن أُنذر الناسَ، فمن ذا أدعو، ومن ذا يستجيب؟

وهٰذَا يَدُلّ علىٰ أن الوَحْي أمر خارجي عن نفس النَّبِيّ ﷺ من الله تعالىٰ بواسطة المَلَك جِبْرِيْل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

٢- الظواهر التي تصاحب النَّبِيّ ﷺ حين يوحىٰ إليه، تشهد أن الوَحْي لم يكن من قبيل حَدِيْث النفس منها:

أ- يسمع النَّبِيّ ﷺ صَلْصَلَة شديدة عليه، كصَلْصَلَة الجَرَس المُتَّصِلَة الشديدة المتداركة. قال ﷺ: (أَحيَاناً يأتيني مِثْلَ صَلْصَلَة الجَرَس، وهو أَشدُّهُ عَلِيّ، فيُفْصَمُ عني، وقد وَعَيْتُ عنه ما قال)[٢].

---

(١) كلمة: (**فَجَئِثْتُ منه حتىٰ هَوَيْتُ إلىٰ الأرض**)، في: صَحِيْح البُخَارِيّ في: ٦٥ كتاب التَّفْسِيْر - تَفْسِيْر سورة المُدَّثِّر، ٥ باب قوله ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾ - المُدَّثِّر ٥، رقم ٤٩٢٦، عن جَابِر بن عبد الله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) حَدِيْث: **أَحيَاناً يأتيني مثل صَلْصَلَة الجَرَس**... إلخ، تَقَدَّمَ آنِفاً.

وفي مُسْنَد أَحْمَد ج٢ ص٢٢٢: عن عبد الله بن عَمْرو رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: سألت النَّبِيّ ﷺ هل تحسّ بالوَحْي؟ فقال: نعم أسمع صلاصل ثم أسكت عند ذٰلِكَ، فما من مرة يوحىٰ إلَيَّ، إلَّا ظننت أن نفسي تفيض.

ب- يَتَفَصَّدُ عَرَقاً في اليوم الشديد البرد:

فعن عَائِشَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: (ولقد رأيتُه يَنزِل عليه الوَحْيُ في اليوم الشديد البَرْد، فيُفْصَمُ عنه، وإنَّ جبينه لَيَتَفَصَّدُ عَرَقاً)[1].

ج- يَغِطُّ في رأسه، ويتربَّد وجهه، (أي: يتغير فيصبح كلون الرماد):

قال عُبَادَة بن الصَّامِت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (كان نَبِيّ الله ﷺ إذا أُنزِل عليه الوَحْيُ كُرِبَ لذٰلِكَ، وتَرَبَّدَ وجهُه)[2].

لذٰلِكَ كان يُستر وجهه بثوب عند نُزُوْل الوَحْي عليه، وله غَطِيْط من الآلام التي

---

(١) **حَدِيْث: ولقد رأيته ينزل عليه الوَحْي**... إلخ، في: صَحِيْح البُخَارِيّ في: ١ كتاب بَدْء الوَحْي، ٢ باب، رقم ٢.

وفي صَحِيْح مُسْلِم في: ٤٣ كتاب الفَضَائِل، ٢٣ باب عَرَق النَّبِيّ ﷺ في البرد وحين يأتيه الوَحْي، رقم ٢٣٣٣، عن عَائِشَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: (إن كان لَيُنْزَلُ علىٰ رَسُوْل الله ﷺ في الغَدَاة الباردة، ثم تَفِيض جَبهتُه عَرَقاً). وفي صَحِيْح مُسْلِم في: ٤٩ كتاب التوبة، ١٠ باب في حَدِيْث الإفك...، رقم ٢٧٧٠، عن عَائِشَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: (... حتىٰ أنزل الله عَزَّ وجَلَّ علىٰ نبيه ﷺ فأَخَذَه ما كان يأخُذُه من البُرَحَاء عندَ الوَحْي، حتىٰ إنه لَيَتَحَدَّرُ منه مِثْلُ الجُمَان من العَرَق في اليوم الشَّات، من ثِقَل القول الذي أُنزل عليه). وهو في صَحِيْح البُخَارِيّ في: ٥٢ كتاب الشهادات، ١٥ باب تعديل النساء بعضهن بعضاً، رقم ٢٦٦١، عن عَائِشَة. وفي: ٦٤ كتاب المَغَازِي، ٣٤ باب حَدِيْث الإفك، رقم ٤١٤١، عن عَائِشَة. و٦٥ كتاب التَّفْسِيْر - سورة النُّوْر، ٦ باب: ﴿**وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم**... ﴾ - النُّوْر ١٦، رقم ٤٧٥٠، عن عَائِشَة.

(٢) **حَدِيْث: كان نَبِيّ الله ﷺ إذا أُنزل عليه الوَحْي**... إلخ، في: صَحِيْح مُسْلِم في: ٤٣ كتاب الفَضَائِل، ٢٣ باب عَرَق النَّبِيّ ﷺ في البَرْد...، رقم ٢٣٣٤.

وفي رِوَايَة أُخرىٰ بعدها في رقم ٢٣٣٥، عن عُبَادَة بن الصَّامِت: (كان النَّبِيّ ﷺ إذا أُنزِلَ عليه الوَحْيُ، نَكَسَ رأسَه، ونَكَسَ أصحابُه رؤوسَهم، فلما أُثْلِيَ عنه - أي: ارتفع عنه الوَحْي - رَفَعَ رأسه).

يعانيها من الوَحْي.

فعن يَعْلَىٰ بن أُمَيَّة: أن رجلاً أتىٰ النَّبِيّ ﷺ وهو بالجِعْرَانَة، وعليه جُبَّة، وعليه أثر الخَلُوق، أو قال: صُفْرَة، فقال: كيف تأمرُني أن أصنع في عُمْرَتِي؟ فأنزل الله علىٰ النَّبِيّ ﷺ، فسُتِر بثوب، ووَدِدْتُ أَنِّي قد رأيتُ النَّبِيّ ﷺ وقد أُنزل عليه الوَحْيُ، فقال عُمَر: تَعالَ، أَيَسُرُّكَ أن تَنْظُرَ إلىٰ النَّبِيّ ﷺ وقد أنزلَ اللهُ الوَحْيَ؟ قلتُ: نعم. فرَفع طَرَف الثوب، فنظرتُ إليه، له غَطِيطٌ، وأَحسِبُه قال: كغَطِيط البَكْر. فلما سُرِّيَ عنه، قال: أين السَّائِل عن العُمْرَة؟ اخلَعْ عنك الجُبَّة، واغسِل أَثَرَ الخَلُوق عنك، وأَنْقِ الصُّفْرَةَ، واصنع في عُمْرَتِكَ كما تصنع في حَجِّكَ[1].

د- يسمع الصَّحَابَة عند وجه النَّبِيّ ﷺ حين الوَحْي دَوِيّاً شديداً، كدَوِيّ النَّحْل حين ينطلق من خليته. قال عُمَر بن الخَطَّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (كان النَّبِيّ ﷺ إذا أُنزل عليه الوَحْي، سُمِعَ عندَ وجهه كدَوِيِّ النَّحْل)[2].

هـ- يثقل جسمه ﷺ عليه:

ففي حَدِيْث البُخَارِيّ عن ابن عَبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: (كان رَسُوْل الله ﷺ يُعالج من التنزيل - أي القُرْآني لثقله عليه - شدةً).

وسيأتي الحَدِيْث بلفظه كَامِلاً بعد قليل.

وفي زاد المعاد: يذكر حال نُزُوْل الوَحْي عليه ﷺ: (حتىٰ إن رَاحِلَتَه لَتَبْرُكُ به إلىٰ

---

(١) **حَدِيْث يَعْلَىٰ بن أُمَيَّة: أن رجلًا**... إلخ، في: صَحِيْح البُخَارِيّ في: ٢٦ كتاب العُمْرَة، ١٠ باب يَفْعَلُ في العُمْرَة ما يَفْعَلُ في الحَجِّ، رقم ١٧٨٩.

الخَلُوق: نوع من الطِّيْب.

البَكْر: الفتىٰ من الإبل.

(٢) **حَدِيْث عُمَر بن الخَطَّاب: كان النَّبِيّ ﷺ**... إلخ، في: سُنَن التِّرْمِذِيّ في: ٤٣ كتاب تَفْسِيْر القُرْآن، ٢٣ باب ومن سورة المُؤْمِنين، رقم ٣١٧٣، ص٥٠٤.

الأرض، إذا كان راكبَها، ولقد جاء الوَحْي مرة كذٰلِكَ وفَخِذُهُ علىٰ فَخِذِ زَيْد بن ثَابِت فثَقُلَت عليه، حتىٰ كادت تَرُضُّها)[1].

وهٰذَا مصداق قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ - المُزَّمِّل ٥.

ولا يحتمل هٰذَا الثقل إلَّا نَبِيّ، ليرتاض جسده علىٰ تحمُّل عِبْء النُّبُوَّة.

كل هٰذِهِ الظواهر من الآلام، والغَطِيْط، وتَرَبُّد الوجه، وتَفَصُّد العَرَق في اليوم الشديد البرد...، تدل علىٰ أن الوَحْي مستقل عن نفس مُحَمَّد ﷺ، لأن حَدِيْث النفس والإلْهَام والتأمل لا يستدعي ظهورها.

٣- الوعي الكَامِل والحفظ المضبوط لما أُنزل عليه ﷺ عند الوَحْي وبعده.

وعرض جِبْرِيْل عَلَيْهِ السَّلَامُ القُرْآن الكَرِيْم كلَّ سَنَة علىٰ النَّبِيّ ﷺ، لا يدخل في هوىٰ النفس، ولا يعتبر من إلْهَاماتها بأية حال.

ففي صَحِيْح البُخَارِيّ يقول النَّبِيّ ﷺ: (أَحيَاناً يأتيني مثل صَلْصَلَة الجَرَس، وهو أَشَدُّه عَلِيّ، فيُفْصَم عني، وقد وعيتُ عنه ما قال، وأَحيَاناً يَتَمَثَّل لي المَلَك رَجُلاً، فيكلِّمني، فأعي ما يقول)، وتَقَدَّمَ آنِفاً.

ففي الحالتين يحصل الوعي الكَامِل لكل ما أُوحي عليه.

وكان رَسُوْل الله ﷺ في أول نُزُوْل الوَحْي يحرك لِسَانه، متابعاً جِبْرِيْل أثناء الوَحْي،

---

(١) زاد المعاد ج١ ص١٨.

وحَدِيْث الرَّضّ، في: صَحِيْح البُخَارِيّ في: ٥٦ كتاب الجِهَاد والسِّيَر، ٣١ باب قوله تعالىٰ: ﴿لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ﴾ - النساء ٩٥، رقم ٢٨٣٢، عن سَهْل بن سَعْد السَّاعِدِيّ. و٦٥ كتاب التَّفْسِيْر، ١٨ باب ﴿لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ - النساء ٩٥، رقم ٤٥٩٢، عن سَهْل بن سَعْد السَّاعِدِيّ.

وانظر: سُبُل الهُدَىٰ والرَّشَاد ج٢ ص٣٤٤.

يردد ما أُوحي إليه مخافة أن ينساه، فطمأنه تعالىٰ، بأن يتكفل له بحفظه، فلا مُسَوِّغ لتحريك اللِّسَان به، قال تعالىٰ: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾ – القيامة[1].

(١) وقال سُبْحَانَهُ: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ – طه ١١٤.

وفي صَحِيْح البُخَارِيّ في: ١ كتاب بَدْء الوَحْي، ٤ باب، رقم ٥: (عن سَعِيْد بن جُبَيْر عن ابن عَبَّاس في قوله تعالىٰ: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾ – القيامة ١٦، قال: كان رَسُوْل الله ﷺ يُعَالِج من التنزيل – أي: القُرْآني لِثقله عليه – شِدَّةً، وكان مما يُحَرِّكُ شَفَتَيْهِ، فقال ابنُ عَبَّاس: فأنا أُحرِّكُهما لكم كما كان رَسُوْل الله ﷺ يُحرِّكُهما. وقال سَعِيْد: أنا أُحَرِّكُهما، كما رأيتُ ابنَ عَبَّاس يُحَرِّكُهما، فحَرَّكَ شَفَتَيْهِ، فأنزل الله تعالىٰ: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾﴾ – القيامة، قال – أي: ابن عَبَّاس –: جَمْعُهُ له في صدرك، وتَقْرَأَه. ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ – القيامة ١٨، قال: فاستَمِعْ له وأَنْصِتْ. ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ – القيامة ١٩، ثم إن علينا أن تَقْرَأَه. فكان رَسُوْل الله ﷺ بعدَ ذٰلِكَ إذا أتاه جِبْرِيْل اسْتَمَعَ، فإذا انطلق جِبْرِيْل، قرأه النَّبِيّ ﷺ كما قرأه).

وهو في صَحِيْح مُسْلِم في: ٤ كتاب الصلاة، ٣٢ باب الاستماع للقِرَاءَة، رقم ٤٤٨، عن سَعِيْد بن جُبَيْر عن ابن عَبَّاس.

ولذٰلِكَ كان جِبْرِيْل عَلَيْهِ السَّلَامُ يلقاه في كل ليلة من رَمَضَان، فيدارسه القُرْآن. ففي صَحِيْح البُخَارِيّ في: ٦٦ كتاب فَضَائِل القُرْآن، ٧ باب كان جِبْرِيْل يعرِض القُرْآن علىٰ النَّبِيّ ﷺ، قبل رقم ٤٩٩٧، عن عَائِشَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عن فاطمة عَلَيْهَا السَّلَامُ: (أَسَرَّ إِلَيَّ النَّبِيّ ﷺ أن جِبْرِيْل يُعارِضُني بالقُرْآن كُلَّ سَنَةٍ، وإنه عارَضَني العامَ مرتين، ولا أراه إلَّا حَضَرَ أَجَلي).

قال ابن كَثِيْر: هٰكَذَا رواه البُخَارِيّ مُعَلَّقاً، وقد أسنده في مواضع أُخَر في أَحَادِيْث عن ابن عَبَّاس (رقم ٤٩٩٧) وأبي هُرَيْرَة (رقم ٤٩٩٨)، ورواه أبو دَاوُد والنَّسَائِيّ وابن مَاجَة.

والمُرَاد من معارضته له بالقُرْآن كل سَنَة، مقابلته علىٰ ما أوحاه إليه عن الله تعالىٰ، وذٰلِكَ حتىٰ يكون أثبت وأرسخ. فلا ينساه. وانظر مُعَارَضَة جِبْرِيْل للنَّبِيّ ﷺ بالقُرْآن في: فَضَائِل القُرْآن لابن كَثِيْر وهو ذيل تَفْسِيْره ص٢٦-٢٧.

٤- انقطاع الوَحْي وإبطاؤه عن النَّبِيّ ﷺ، وهو يَتحرَّق شوقاً إليه، دليل علىٰ أن الوَحْي لا يصدر عن ذاته، فلا ينزل عليه إلَّا إذا شاء الله. ومن أمثلة انقطاعه:

أ- بعد نُزُوْل جِبْرِيْل بآيات ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١﴾ - سورة العَلَق، انقطع عنه ثلاثة أعوام، وفي بعض الأَحَادِيْث سنتين ونصف[1]. فحَزِنَ النَّبِيّ ﷺ حزناً، حتىٰ غدا منه مراراً أن يَتَرَدَّىٰ من رؤوس شواهق الجبال، كما رَوَىٰ البُخَارِيّ[2].

ب- وفَتَرَ الوَحْيُ شهراً كما في صَحِيْح البُخَارِيّ، والنَّبِيّ في أشد الشوق إليه، ليحل أزمة الإفْكِ، الذي رمىٰ المنافقون فيه أُمَّ المُؤْمنين عَائِشَة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا بالفاحشة، حتىٰ قال لها النَّبِيّ ﷺ: (يا عَائِشَةُ، إنه بَلغَنِي عنكِ كذا وكذا، فإن كنتِ بَريئةً فسَيُبَرِّئُكِ اللهُ، وإن كنتِ أَلْمَمْتِ بذنبٍ، فاستغفري الله)، فنزلت آيات سورة النُّوْر ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ﴾ - النُّوْر ١١، في تبرئتها بعد كلام الناس بشهر، كما ورد في الحَدِيْث المذكور: (وقد لَبِثَ شهراً لا يُوحَىٰ إليه في شأني بشيءٍ)[3].

والمتأمل يرىٰ أن هٰذَا الشهر أطول من سنين، والنَّبِيّ ﷺ فيه ينتظر الوَحْي مع القلق والشك المستديم، فلو كان الوَحْيُ ذاتياً لادَّعىٰ نُزُوْله حين حدث الإفْك، وقطع النزاع فيه.

---

(١) إرْشَاد السَّارِي ج١ ص٦٧.

(٢) في صَحِيْح البُخَارِيّ في: ٩١ كتاب التعبير، ١ باب أول ما بُدِئَ به رَسُوْل الله ﷺ من الوَحْي الرؤيا الصالحة، رقم ٦٩٨٢، عن عَائِشَة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا: (**وفَتَرَ الوَحْيُ فترةً حتىٰ حَزِنَ النَّبِيّ - فيما بَلَغنا - حُزْناً**، غدا منه مِرَاراً كي يَتَرَدَّىٰ من رؤوس شواهِق الجبال، فكلما أَوْفَىٰ منه بذِرْوَة جَبَل، لكي يُلقيَ منه نفسَه، تَبَدَّىٰ له جِبْرِيْلُ، فقال: يا مُحَمَّد إنك رَسُوْل الله حَقّاً، فيَسْكُنُ لذٰلِكَ جَأْشُهُ، وتَقِرُّ نفسُه، فيرجِعُ، فإذا طالت عليه فترة الوَحْي غَدَا لمثل ذٰلِكَ، فإذا أَوْفَىٰ بذِرْوَة جَبَل تَبَدَّىٰ له جِبْرِيْلُ، فقال له مثلَ ذٰلِكَ). وانظر: إرْشَاد السَّارِي ج١٠ ص١٢١.

(٣) **حَدِيْث: يا عَائِشَة، إنه بَلغَنِي**... إلخ، في: صَحِيْح البُخَارِيّ في: ٦٤ كتاب المَغَازِي، ٣٤ باب حَدِيْث الإفك، رقم ٤١٤١، عن عَائِشَة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا.

ج- ولم ينزل الوَحْي ستة عشر شهراً أو سبعة عشر شهراً، بشأن تحويل القِبْلَة من بَيْت المَقْدِس إلىٰ الكَعْبَة، مع حبه التحويل، فنزل الوَحْي بعد ذٰلِكَ بالآية: ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ ﴾ - البقرة ١٤٤[1].

٥- من أسباب نُزُوْل القُرْآن الكَرِيْم أن النَّبِيّ ﷺ كان يُسأل في بعض الأَحْيَان، فلا يملك للسؤال جواباً، فيسكت، وقد يستمر سكوته مدة طَوِيْلَة.

فإذا نزلت الآية، دعا بالسَّائِل، وتلا عليه ما نزل من القُرْآن بشأن سؤاله.

وكان يجيب أَحيَاناً فيأتي الوَحْيُ بخلاف جوابه، وفيه بعض العتاب أو الملامة.

فهٰذَا دليل علىٰ أن الوَحْي أمر خارجي عن النفس، إذ لو كان بوحي نفسي، لا يحتاج إذا سئل إلىٰ انتظار الجواب، ولا إلىٰ تَصْحِيْح إذا أجاب أول الأمر.

٦- نهي النَّبِيّ عليه الصلاة والسَّلَام عن تدوين كلامه إبان نُزُوْل الوَحْي، خشية اختلاطه بالقُرْآن الكَرِيْم، لأنه يعلم تَماماً، أن القُرْآن كلام أُوحي إليه من الله تعالىٰ بلفظه ومعناه، ولا يملك أن يغير منه حرفاً وَاحِداً.

وشَتَّان ما بين أُسْلُوْب القُرْآن، لأنه من الله رب البشر، وبين أُسْلُوْب الحَدِيْث، وإن كان من أفصح الناس.

---

(١) في سُنَن التِّرْمِذِيّ في: ٤٣ كتاب تَفْسِيْر القُرْآن، ٢ باب ومن سورة البقرة، رقم ٢٩٦٢، ص٤٧٤: (عن البَرَاء بن عَازِب قال: **لما قَدِمَ رَسُوْل الله ﷺ المَدِيْنَةَ صلىٰ نحو بَيْت المَقْدِس ستةَ أو سبعةَ عشرَ شهراً**، وكان رَسُوْل الله ﷺ يُحِبُّ أَنْ يُوَجَّهَ إلىٰ الكَعْبَة، فأنزل الله: ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ ﴾- البقرة ١٤٤. فَوُجِّهَ نحو الكَعْبَة، وكان يُحِبُّ ذٰلِكَ). قال: هٰذَا حَدِيْث حَسَن صَحِيْح.

كما ذكر هٰذِهِ المدة البُخَارِيّ في صَحِيْحِهِ في: ٦٥ كتاب التَّفْسِيْر، ١٢ باب ﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ﴾ - البقرة ١٤٢، رقم ٤٤٨٦، عن البَرَاء بن عَازِب أيضاً.

٧- موضوع الوَحْي:

الرَّسُوْل ﷺ أُمِّيّ، لا يعرف القِرَاءَة والكتابة[١]، عاش في بيئة بَدَوِيَّة وثنية، ومَعَارِف أهلها وعُلُوْمهم بدائية بسيطة، لا تقارن بمَعَارِف الرُّوْم وفَارِس.

وكان الرَّسُوْل ﷺ يَتَعَبَّد في غار حِرَاء، معتزلاً الناس، ولم يكن له من علم إلَّا ما تعلمه من مجتمعه البدائي.

وهو في هٰذِهِ الحال ينزل عليه الوَحْي بالقُرْآن الكَرِيْم، وفيه من الحَقَائِق التاريخية والكونية والنَّظَرِيَّات الاجتماعية والاقْتِصَادِيَّة والسياسية وغيرها مما يعالج جوانب الحياة المُخْتَلِفَة، التي لم يسبق أن فكر بها، أو ذكرها، أو اهتم بها، هو أو أي وَاحِد في عَصْره من بيئته أو غيرها.

وتلك الحَقَائِق دقيقة محددة - وسيأتي الكلام عنها في إعجاز القُرْآن - ليس لأحدٍ إنكارها، حتىٰ إن أحبار اليَهُوْد الذين كانوا يجادلون النَّبِيّ ﷺ كانوا يذهلون، حين يرون القُرْآن يقص عليهم أنباء بني إسرائيل وأنبيائهم.

كل ذٰلِكَ يَدُلّ علىٰ أن هٰذَا النَّبِيّ الأُمِّيّ في وسطه البدائي لا يستطيع أن يأتي بهٰذِهِ التشريعات والحَقَائِق العِلْمِيَّة والغيبية من نفسه وفكره. فلا بد إذن من مصدر خارج ذات النَّبِيّ، هو الوَحْي المنزل عليه من الله تعالىٰ.

٨- الرَّسُوْل ﷺ بَشَر. وقد تقدَّمت الآيات علىٰ بشرية الرسل والأنبياء، ولٰكِنه يفترق عن البشر بأنه أوحىٰ الله إليه، قال سُبْحَانَهُ: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ - الكهف ١١٠ وفُصِّلَت ٦.

وتصدير الآيات بكلمة ﴿قُلْ﴾، التي تكررت في القُرْآن أكثر من ثلاثمائة مرة.

وقوله تعالىٰ: ﴿ٱقْرَأْ﴾ - العَلَق ١.

---

(١) انظر كتابنا: أُمِّيَّة الرَّسُوْل مُحَمَّد ﷺ.

و﴿ وَٱتْلُ ﴾ - الكهف ٢٧.

و﴿ وَرَتِّلِ ﴾ - المُزَّمِّل ٤.

دليل علىٰ أن هناك من يوجه النَّبِيّ ﷺ إلىٰ القول بكذا وكذا، ودليل علىٰ أن القُرْآن الكَرِيْم من عند الله تعالىٰ بلفظه ومعناه.

٩- تَمْيِيْز الرَّسُوْل ﷺ بين تجربته الإنسانية الظنية التي تحتمل الشك والوهم، وبين يقينه الصادر عن الوَحْي، يَدُلّ علىٰ أنه يتلقىٰ ما يوحىٰ إليه تلقياً لا يقبل الشك. وحادثة تأبير النخل شَاهدة علىٰ ذٰلِكَ[1].

١٠- العتاب الشديد أو اللين، الذي جاء في القُرْآن الكَرِيْم للرَّسُوْل ﷺ كقوله تعالىٰ: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴾ - عَبَس ١، وقوله سُبْحَانَهُ: ﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ ﴾ - التوبة ٤٣، وقوله عَزَّ وجَلَّ: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ - الأنفال ٦٧... إلخ، مما تقدم ذكره في (عِصْمَة الأنبياء)، يَدُلّ علىٰ أن النَّبِيّ ﷺ مُبلِّغ، وأَنَّ ما أُوحي به إليه كان أمراً خارجياً، ولو كان نفسياً لكتمه. وما ذكر منه شَيئاً يتلىٰ علىٰ ألسنة الناس.

---

(١) في صَحِيْح مُسْلِم في: ٤٣ كتاب الفَضَائِل، ٣٨ باب وجوب امتثال ما قاله شرعاً...، رقم ٢٣٦١، عن مُوسَىٰ بن طَلْحَة عن أبيه قال: (**مررتُ مع رَسُوْل الله ﷺ بقوم علىٰ رُؤوس النَّخْل**، فقال: ما يصنعُ هٰؤُلَاءِ؟ فقالوا: يُلَقِّحُونه، يجعلون الذَّكَرَ في الأُنثىٰ فتَلْقَح، فقال رَسُوْل الله ﷺ: ما أَظُنُّ يُغْني ذٰلِكَ شَيئاً، قال: فأُخبروا بذٰلِكَ فتركوه. فأُخبر رَسُوْلُ الله ﷺ بذٰلِكَ فقال: إن كان يَنفَعُهم ذٰلِكَ فَلْيَصنَعوه، فإني إنما ظننتُ ظَنّاً، فلا تُؤَاخِذُوني بالظَّنِّ، ولٰكِن إذا حَدَّثْتُكم عن الله شَيئاً، فخُذُوا به، فإنِّي لن أَكذِبَ علىٰ الله عَزَّ وجَلَّ).

وفي رِوَايَة له بعدَ هٰذَا الحَدِيْث، رقم ٢٣٦٣: (**أَنتم أَعلَمُ بأمر دنياكم**).

وفي رِوَايَة لابن مَاجَة في سُنَنه في: ١٦ كتاب الرهون، ١٥ باب تلقيح النخل، رقم ٢٤٧١، ج٢ ص٨٢٥ عن عَائِشَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أَنَّ النَّبِيّ ﷺ قال: (إن كان شَيئاً من أمر دنياكم فشَأْنُكُم به، وإن كان من أُمور دينكم فإلَيَّ). وقال الشَّيْخ شُعَيْب في تَحْقِيْقِهِ سُنَن ابن مَاجَة ج٣ ص٥٢٨: إسناده صَحِيْحٌ.

١١- التهديد الشديد والإنذار المخيف الموجَّهُ من الله تعالىٰ إلىٰ نبيه، يَدُلّ علىٰ أن الله عَزَّ وجَلَّ هو مصدر الوَحْي، والنَّبِيّ شخص مَأْمُوْر بتبليغ ما كلفه اللهُ به فقط.

قال تعالىٰ: ﴿ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ﴾ - الإسراء.

وقال سُبْحَانَهُ: ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾ - الحَاقَّة.

قال الزَّمَخْشَرِيّ في تَفْسِيْر آيات الحَاقَّة: (والمعنىٰ: ولو ادعىٰ علينا شَيئاً لم نقله، لقتلناه صبراً، كما يفعل الملوك بمن يتكذب عليهم، معاجلةً بالسخط والانتقام، فصوَّر قتل الصبر بصورته ليكون أهول، وهو: أن يؤخذ بيده، وتضرب رقبته. وخص اليمين عن اليَسَار، لأن القَتَّال إذا أراد أن يوقع الضرب في قفاه، أخذ بيَسَاره، وإذا أراد أن يوقعه في جِيده، وأن يكفحه بالسَّيْف، وهو أشد علىٰ المَصْبُوْر، لنظرهِ إلىٰ السَّيْف، أخذ بيمينه)[1].

١٢- لو كان مصدر القُرْآن العَظِيْم من ذات النَّبِيّ عَلَيْهِ السَّلَامُ ومن عبقريته وذكائه، لكان من الفَخْر له أن ينسبه إلىٰ نفسه، إذ لا يوجد من ينسب لغيره أنفس آثار عقله، وأغلىٰ ما تجود به قريحته، أو أنه يدعي الأُلوهية لا النُّبُوَّة، وشَتَّان ما بين مقامها ومقام الأُلوهية، لٰكِنه ﷺ يؤكد دائماً بأنه عبدٌ لله وبَشَر، وهو يقيم الليل ويتضرع ويتوسل، فيقول في دعائه: (اللهم اغفِرْ لي خطيئتي وجَهلي، وإسرافي في أمري، وما أَنتَ أَعلمُ به مِنِّي، اللهم اغفِرْ لي جِدِّي وهَزْلي، وخَطئي وعَمْدي، وكُلَّ ذٰلِكَ عندي، اللهم اغفِرْ لي ما قَدَّمْتُ وما أَخَّرْتُ، وما أَسْرَرْتُ وما أَعْلَنْتُ، وما أَنتَ أعلم به مني، أَنتَ المُقَدِّم وأَنتَ المُؤَخِّر، وأَنتَ علىٰ كل شيءٍ قَدِيْر)[2].

---

(١) تَفْسِيْر الكَشَّاف للزَّمَخْشَرِيّ ج٣ ص٢٦٦.

(٢) حَدِيْث: **اللهم اغفر لي خَطِيْئَتِي وجهلي**... إلخ، في: صَحِيْح مُسْلِم في: ٤٨ كتاب الذِّكْر

١٣ - حين نزل الوَحْي علىٰ مُحَمَّد ﷺ يأمره بالقِرَاءَة وإنذار الناس، تحيَّر في هٰذَا الأمر الطارئ، وأخذ يشك، أهي النفس أم غيرها؟ فجاء قوله تعالىٰ: ﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾ - يُوْنُس ٩٤.

لذٰلِكَ قال ﷺ بعد نُزُوْل هٰذِهِ الآية: (لا أَشكُّ ولا أَسأل)[1].

هٰذِهِ الأُمور وغيرها جعلت النَّبِيّ ﷺ يتيقن الوَحْي تيقناً دفعه لتَحَمُّل الأعباء الشديدة، مع إغراء المُشْرِكِيْن له بالمال والملك إذا ترك دعوته، فرفض إغراءاتهم، وقاسىٰ هو وأصحابه الآلام، التي تنوء بها الرواسي في سَبِيْل دعوته، وعادىٰ أهله وقبيلته، والعَرَب وغيرهم، فأعلن حَرْباً شعواء علىٰ مُعْتقداتهم، فنصره الله تعالىٰ علىٰ أعدائه وأظهر رِسَالَة الإسلام في الأرض، فلم يقف أمامه عائق مهما عظم، ولم يصمد بوجهه جَبَّار مهما عتىٰ وتجبر.

شبهات حول الوَحْي[2]

تَقَوَّلَ البعضُ علىٰ النَّبِيّ ﷺ فقالوا: بأن الوَحْيَ إليه هو رؤىٰ النائم، أو افتراءات الكاذب، أو أخيلة الشاعر، أو أقاويل المجنون، وأن علمه ﷺ مستقَى من بَحِيْرا ووَرَقَة بن نَوْفَل والحَدَّاد الرُّوْمِيّ.

والدعاء، ١٨ باب التعوذ من شر ما عَمل ومن شر ما لم يعمل، رقم ٢٧١٩، عن أبي مُوسَىٰ الأَشْعَرِيّ.

(١) الظَّاهِرَة القُرْآنية ص١٨٨ ناقلًا الحَدِيْث عن تَفْسِيْر السُّيُوْطِيّ. وذكره ابن كَثِيْر في تَفْسِيْره ج٢ ص٤٣٢ عن قَتَادَة وقال: وكذا قال ابن عَبَّاس وسَعِيْد بن جُبَيْر والحَسَن البَصْرِيّ.

وفيه: حَدِيْث: **لا أشك ولا أسأل**، أَخْرَجَهُ عبد الرَّزَّاق وابن جَرِيْر عن قَتَادَة.

(٢) انظر: الوَحْي المُحَمَّدِيّ ص٩٠ وما بعدها، ومناهل العِرْفَان ج٢ ص٣١٧ والظَّاهِرَة القُرْآنية ص١٨٢ ومباحث في عُلُوْم القُرْآن ص٣٨ والرَّسُوْل: سَعِيْد حوىٰ ج٢ ص١٤.

وتفصيل هٰذِهِ الشبهات ورَدُّها فيما يأتي:

١- قيل:

إن الوَحْي من قبيل رُؤَىٰ النائم. وحكىٰ القُرْآن الكَرِيْم هٰذِهِ الشبهة بقوله سُبْحَانَهُ: ﴿ بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ ﴾ - الأنبياء ٥.

هٰذِهِ الشبهة مردودة بيقظة النَّبِيّ ﷺ المستديمة منذ نُزُوْل الوَحْي عليه.

ورِوَايَة الصَّحِيْحَيْن: البُخَارِيّ ومُسْلِم[1]، قاطعة في أن الوَحْي فاجأه وهو يقظان متأمل في الوجود وخَالِقه، فقال له: اقرأ، ويَعْصِره حتىٰ يبلغ الجهد ثلاثاً، وبعدها يذهب إلىٰ خَدِيْجَة زوجته مرتعباً، يرجف فؤاده، يقول: زَمِّلُوني زَمِّلُوني، فأخبرها بالخبر... .

وهٰذَا يَدُلّ علىٰ أن الوَحْي لو كان مناماً لزال خوفه ورعبه في اليقظة.

ويرد علىٰ هٰذَا الزعم أَيضاً ما تقدم آنِفاً من الظواهر التي تبدو علىٰ الرَّسُوْل ﷺ عند الوَحْي، والعتاب والتهديد وغيرها التي تقطع بأن الوَحْي لم يكن مناماً، بل هو حقيقة.

٢- وقيل:

إن الوَحْي من افتراءات الكاذب. وأشارت الآية الكَرِيْمَة المذكورة آنِفاً إلىٰ هٰذِهِ الشبهة.

وهي شبهة مردودة بشهادة العَرَب قبل النُّبُوَّة حتىٰ سموه بالصَّادِق الأمين، وكانوا يأتمنونه علىٰ أموالهم.

وكذٰلِكَ بعد النُّبُوَّة بشهادة العَرَب جَميعاً من أعدائه وأَنْصَاره، بدليل سؤال

(١) صَحِيْح البُخَارِيّ في: ١ كتاب بَدْء الوَحْي، ٣ باب، رقم ٣، عن عَائِشَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا. وصَحِيْح مُسْلِم في: ١ كتاب الإيمان، ٧٣ باب بَدْء الوَحْي...، رقم ١٦٠، عن عَائِشَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

هِرَقْل ملك الرُّوْم لأبي سُفْيَان، عن النَّبِيّ ﷺ كما ورد ذٰلِكَ في صَحِيْح البُخَارِيّ[1]: (قال - أي: هِرَقْل -: فهل كنتم تَتَّهِمُوْنَه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قلت - أي: أبو سُفْيَان -: لا...).

وحين أتم هِرَقْل أسئلته لأبي سُفْيَان، أجابه عن كل سؤال وَجَّهه إليه، وكان جوابه عن سؤاله السَّابِق: (وسألتُكَ هل كنتُم تَتَّهِمُوْنَهُ بالكَذِب قبل أن يقول ما قال؟ فذكرتَ أن لا، فقد أَعرِفُ أنه لم يَكُنْ لِيَذَرَ الكذبَ علىٰ الناس ويَكذِبَ علىٰ الله).

وما جاء به القُرْآن من أخبار ماضية ومستقبله وتشريعات نَيِّرة صالحة لكل زمان ومكان، يَدُلّ علىٰ أن ذٰلِكَ لا يصدر من كاذب.

وقد تقرر ذٰلِكَ عند الكلام عن عصمة الأنبياء وعن إعجاز القُرْآن في هٰذَا الكتاب فراجعه.

٣- وقيل:

إن الوَحْيَ من أخيلة الشعراء. وأشارت الآية الكَرِيْمَة المذكورة آنِفاً إلىٰ هٰذِهِ الشبهة.

وهي شبهة مردودة بما يظهر من احتقان ورعب عند الوَحْي، وهٰذَا لا يظهر علىٰ الشاعر إن أراد نظم شعره، ولأن المعجزة الكبرىٰ التي جاء بها رَسُوْل الله ﷺ هي القُرْآن الكَرِيْم في أُسْلُوْبه وتشريعاته وأخباره... والعَرَب في وقتهم أرباب الفصاحة والبَلَاغَة بُهروا وتحيروا فيه، حين سمعوا آياته تتلىٰ، كما أن القُرْآن تحداهم بأن يأتوا بمثله، فعجزوا عن ذٰلِكَ كما سيأتي في إعجاز القُرْآن.

---

(١) **سؤال هِرَقْل لأبي سُفْيَان** في: صَحِيْح البُخَارِيّ في: ١ كتاب بَدْء الوَحْي، ٦ باب، رقم ٧، عن ابن عَبَّاس عن أبي سُفْيَان.

٤- وقيل:

إن الوَحْيَ قد صدر من مجنون. وأشار إلىٰ ذٰلِكَ قوله تعالىٰ: ﴿مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ﴾ - الدخان ١٤، وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِيٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ - الشعراء ٢٧.

هٰذِهِ الشبهة تردها حالة النَّبِيّ ﷺ عند تلقي الوَحْي كل مرة، بكَمَال الوعي، ووفرة النشاط، وقوة الأعصاب. وقوله ﷺ لخَدِيْجَة: (زَمِّلُوني) لا يفيد أكثر من لجوئه إلىٰ الفراش، ليستريح بعد المنظر الرهيب الذي رآه.

ولذٰلِكَ يأمره بالقيام بإنذار الناس ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾ - المُدَّثِّر.

ثم إن المجنون لا يمكنه أن يأتي بهٰذِهِ الشَّرِيْعَة المتكَامِلَة لجميع جوانب الحياة، التي لا يكون مصدرها إلَّا العقل الكَامِل النَّيِّر المبين.

٥- وإذا قيل:

إن احتقان الوجه والشحوب يمكن أن يفسر بأنه من أعراض التَّشَنُّج.

فيُرَدُّ بأن التشنج يُحدث شللاً ارتعاشياً عند الفرد المحروم مؤقتاً من قواه العقلية والجسمية، لٰكِن أحوال النَّبِيّ ﷺ حين ينزل عليه الوَحْي - كما مر وصفها -، تشهد: أن الوجه هو وحده الذي يتغير، بينما يتمتع هو بحالة عادية وحرية عقلية، بحيث يستخدم ذَاكِرته استخداماً كَامِلاً خلال الوَحْي، في حين يُمحىٰ وعي المتشنج وذَاكِرته خلال تشنجه.

ثم إن تلك الأعراض الجسمية التي تظهر علىٰ النَّبِيّ ﷺ حين نُزُوْل الوَحْي، لا تظهر عليه إلَّا في تلك اللحظة الخاطفة للوَحْي.

والحالة المَرَضِيَّة لا يرافِقُها تصَبب عَرَق، ولا يرافِقُها ظهور نص قُرْآني معجز في حد ذاته. وقد يكون سورة طَوِيْلَة كسورة الأنعام، أو يكون نصاً فيه تشريع دقيق كنص المواريث، الذي يعتبر من أدق النصوص التشريعية في العالم.

٦- وقيل:

إن الرَّسُوْل ﷺ تلقىٰ عُلُوْمه من الراهب بَحِيْرا، ووَرَقَةَ بن نَوْفَل، والقَيْن (الحَدَّاد) الرُّوْمِيّ.

فالراهب بَحِيْرا، وهو من أتباع آريوس في التَّوْحِيْد وينكر أُلوهية المَسِيْح وعَقِيْدَة التثليث، عَلَّمَ النَّبِيّ ذٰلِكَ، حيت التقىٰ به في بُصْرَىٰ بالشَّام.

هٰذَا مردود بما يأتي:

أ- إن الراهب بَحِيْرا لقي النَّبِيّ ﷺ مع عمه أبي طَالِب ومعشر من قُرَيْش في رحلتهما إلىٰ الشَّام مرةً وَاحِدَة فقط، وكان عُمر النَّبِيّ ﷺ تسع سنين، وقيل اثنتي عشرة سنة. وكان الراهب بَحِيْرا قد رأىٰ في صَومعته في رؤياه أن رَسُوْل الله ﷺ قد جاء في رَكْب، وقد أَظَلَّته غَمامةٌ، وصنع طعاماً لمعشر قُرَيْش، وكان سَابِقاً لا يلتفت إليهم، وهم يمرون به، ودعاهم إليه، فتخلف رَسُوْل الله ﷺ لحَداثة سِنِّهِ، فقال الراهبُ لا يَتَخَلَّفَنَّ أحدٌ منكم عن طعامي، فأخبروه بتخلُّف الغلام، أي النَّبِيّ ﷺ، فأتوا به، وكان يلحظه لحظاً شديداً، وينظر إلىٰ أشياء من جسده، وبعد فراغهم من الطعام دعا به، واستحلفه باللَّات والعُزَّىٰ، لأنه سمع قومه يحلفون بهما، فقال له: لا تسألني باللَّات والعُزَّىٰ، فوالله ما أبغضتُ شَيئاً قطّ بغضهما، فقال له بَحِيْرا: فبالله إلَّا ما أخبرتني عما أسألك عنه، فقال له: سلني ما بدا لك. وأخذ يسأله عن حاله في نومه وهيئته وأُموره، فجعل رَسُوْل الله ﷺ يخبره، فيوافق ذٰلِكَ ما عند بَحِيْرا من صفته، ثم نظر إلىٰ ظهره، فرأىٰ خاتَمَ النُّبُوَّة بين كتفيه. فسأل عَمَّه عن أبيه، فقال له: هو ابني، فقال له: ما ينبغي أن يكون أبوه حَيّاً. فأجابه: إنه ابن أخي. فقال له أَخِيْراً: ارجع به إلىٰ بلده، واحذر عليه يَهُوْد، فإنه كائن لابن أخيك هٰذَا شأن عَظِيْم. فأسرع به إلىٰ بلاده[1].

وللقصة غير تلك الرِّوَايَة[2]، وليس في جميع الروايات ما يفيد أنه ﷺ سمع شَيئاً من

(١) سِيْرَة ابن هِشَام - قصة بَحِيْرا الراهب.

(٢) وممن رواها الحَاكِم في مُسْتَدْرَكه ج٢ ص٦١٥-٦١٦ وقال هٰذَا حَدِيْث صَحِيْح علىٰ شرط

بَحِيْرا عن عقيدته ودينه.

كما أن هٰـذِهِ الـرِّحْـلَة القصيرة - وهو صَـغِيْر، ووجـود عَـمّـه معه، حين التقىٰ ببَحِيْرا - كل ذٰلِكَ لا يعلّم النَّبِيّ التشريعَ، ولا يعطيه مفاتيح الغيب، لٰكِن قول بَحِيْرا يؤكد نُبُوَّة مُحَمَّد ﷺ حين سأله عن أحواله المُخْتَلِفَة، فيوافق ما عند بَحِيْرا، من هيئات النَّبِيّ الذي بَشَّرَ به عِيسَىٰ ومُوسَىٰ، فتنبأ أن يكون له شأن عَظِيْم.

ب- أما بشأن **وَرَقَة بن نَوْفَل**، فإن الثَّابِت في الصَّحِيْح: أن خَدِيْجَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا انطلقت بالنَّبِيّ عليه الصلاة والسَّلَام، - وذٰلِكَ بعد أن جاءه جِبْرِيْل عَلَيْهِ السَّلَامُ في حِرَاء - إلىٰ وَرَقَةَ بن نَوْفَل بن أَسَد، ابن عمها، وكان امرءً تنصَّرَ في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العِبْرَانِيّ فيكتب من الإنجيل بالعِبْرَانِيَّة ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخاً كَبِيْراً قد عمي، فقالت له خَدِيْجَة: يا ابن عَمِّ، اسمع من ابن أخيك. فقال له وَرَقَة: يا ابن أخي ماذا ترىٰ؟ فأخبره رَسُوْل الله ﷺ بخبر ما رأىٰ، فقال له وَرَقَة: هٰذَا الناموس - أي: أمين الوَحْي جِبْرِيْل - الذي نزل الله علىٰ مُوسَىٰ، يا ليتني فيها جَذَعاً، ليتني أكون حَيّاً، إذ يُخرجك قومك. فقال رَسُوْل الله ﷺ: أَوَ مُخْرِجِيَّ هم؟ قال: نعم. لم يأتِ رجل قَطُّ

الشَّيْخَيْن ولم يخرجاه. لٰكِن علَّق الذَّهَبِيّ عليه بقوله: قلت: أظنه موضوعاً فبعضه باطل. / انظر: هامش المُسْتَدْرَك.

ورواها التِّرْمِذِيّ في سُنَنه في: ٤٥ كتاب المَنَاقِب، ٣ باب ما جاء في بَدْء نُبُوَّة النَّبِيّ ﷺ، رقم ٣٦٢٠، ص٥٦٨، وقال: حَسَن غَرِيْب لا نعرفه إلَّا من هٰذَا الوجه. وانظره بشَرْح عَارِضَة الأَحْوَذِيّ ج١٣ ص١٠٦

واستقصىٰ طرق هٰذِهِ القصة ورواياتها الحافظ ابن كَثِيْر في السِّيْرَة النَّبَوِيَّة ج١ ص٢٤٣ وما بعدها وقال بعد ذٰلِكَ: وعلىٰ كل تقدِير فهو مُرْسَل، فإن هٰذِهِ القصة كانت ولرَسُوْل الله ﷺ فيما ذكره بعضهم اثنتا عشرة سنة، ولعل أبا مُوسَىٰ تلقاه من النَّبِيّ ﷺ، فيكون أبلغ، أو من بعض كبار الصَّحَابَة، أو كان هٰذَا مشهوراً مذكوراً أخذه من طريق الاستفاضة.

بمثل ما جئتَ به إلَّا عُودِيَ، وإن يُدرِكْني يومُك أنصُرْك نصراً مؤزَّراً، ثم لم يَنْشَبْ وَرَقَةُ أن توفي[1].

فوَرَقَة لم يلتقِ بالنَّبِيّ وحده، كما ورد في الصَّحِيْح، بل كانت معه خَدِيْجَة، ثم إنَّ وَرَقَة عَلِمَ بمقارنة ما جرىٰ للنَّبِيّ ﷺ بما وقع لمُوسَىٰ، فقال له: هٰذَا الناموس، أي: أمين الوَحْي جِبْرِيْل، لأن الوَحْي وَاحِد لكل الأنبياء، وتوقَّع إخْرَاجه حين يدعوهم. وتَمَنَّىٰ نصره آنئذٍ.

كل هٰذَا يَدُلّ علىٰ أن الوَحْي الذي نزل عليه وعلىٰ الأنبياء من قبله هو من عند الله تعالىٰ، الذي علمه وألهمه وهداه، فليس لوَرَقَة من ذٰلِكَ شيء سوىٰ التَّصْدِيْق بأنه سيكون رَسُوْل الناس، فكيف يكون مصدر علم النَّبِيّ ﷺ؟

ج- الثَّابِت هو أنه حين التقىٰ ببَحِيْرا، كان معه عمه أبو طَالِب، وحين التقىٰ بوَرَقَة كانت معه خَدِيْجَة، ولم يكن سراً مَصُوناً، فلِمَ لم يذكر المؤرخون ما سمعه هٰذَان الرفيقان من عُلُوْم الأُستاذين: لِمَ لَمْ يستفد هٰذَان الرفيقان ما استفاده مُحَمَّد من هٰذَيْنِ الأُستاذين؟ إن سكوت التاريخ عن هٰذَا الأمر حُجَّة كافية علىٰ أن هٰذِهِ الدعوىٰ كلام فارغ لا معنى له.

د- إذا كان بَحِيْرا ووَرَقَة بهٰذِهِ الدرجة من العلم، فلماذا لم يأتوا بما أتىٰ به النَّبِيّ ﷺ كالقُرْآن الكَرِيْم، ولماذا لم يدَّعوا النُّبُوَّة، وإنما بشَّروا بنُبُوَّة مُحَمَّد ﷺ؟

---

(١) **الحَدِيْث مُتَّفَق عليه.** / اللُّؤْلُؤ والمَرْجَان فيما اتفق عليه الشَّيْخَان ص٣٢.

وهو في صَحِيْح البُخَارِيّ في: ١ كتاب بَدْء الوَحْي، ٣ باب، رقم ٣، عن عَائِشَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا. وفي صَحِيْح مُسْلِم في: ١ كتاب الإيمان، ٧١ باب بَدْء الوَحْي...، رقم ١٦٠، عن عَائِشَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

جَذَعاً: شَابّاً.

لم يَنْشَب: لم يلبث.

هـ- لو كان تلقيه علىٰ بَحِيْرا ووَرَقَة حقاً، لاتهمته قُرَيْش بذٰلِكَ، حين كانت تلفق التُّهم عليه تلفيقاً. فإنهم اتهموه بأنه كان يتعلم من حَدَّاد رُوْمِيّ نَصْرَانِيّ في مَكَّة يصنع السيوف، وكان النَّبِيّ ﷺ يقف عنده أَحيَاناً، ليشَاهد صنعته، فرد الله عليهم بقوله: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴾ - النَّحْل ١٠٣.

و- طبيعة النَّصْرَانِيَّة، وهي دين بَحِيْرا ووَرَقَة **والقَيْن (الحَدَّاد) الرُّوْمِيّ**، لا تتفق مع ما جاء به مُحَمَّد ﷺ فكيف تكون مصدراً لديانته وقُرْآنه؟

ز- في القُرْآن الكَرِيْم أنباء المغيبات حدثت بعد موت بَحِيْرا ووَرَقَة، فكيف يتصور أن القُرْآن من تَعْلِيْمهما؟

كما أن المعروف أن آيات القُرْآن كانت تنزل وَفْقَ الحوادث والوقائع الطارئة.

ح- لو تلقَّىٰ النَّبِيّ ﷺ عن بَحِيْرا أو غيره، لنَقل ذٰلِكَ أتباعُه الذين لم يتركوا شَيئاً صَغِيْراً أو كَبِيْراً إلَّا ودونوه، ولو لم يثبت عندهم، لأنهم يتركون أمره إلىٰ رُوَاة الخبر وإسناده.

ط- لم يثبت في الأَحَادِيْث الصَّحِيْحة أن مُحَمَّداً ﷺ كان ينتظر نُزُوْل الوَحْي عليه، ولو رُوِيَ عنه شيء من ذٰلِكَ لدونوه.

ي- إن الرَّسُوْل ﷺ لم يلقَ أحبار اليَهُوْد ولا رُهْبَان النَّصَارَىٰ، ولم يثبت اتصاله بهم، وهٰذَا ما أكده الباحثون.

ك- القُرْآن الكَرِيْم بأَحْكَامه القاطعة بالصحة، المتتابعة، النازلة في مدة ثلاث وعشرين سنة، المتشُعْبَة الكثيرة، في العَقَائِد والمعاملات والحكم والأخبار الغيبية وغيرها مما يعالج جوانب الحياة المُخْتَلِفَة، يحكم العقل بالبداهة أنها ليست مأخوذة عن جلسة سريعة، والتقاء بسيط مع راهب أو غيره، إذ كيف يقطع بصحة تلك الأَحْكَام علىٰ

كثرتها والأخبار الغيبية من وراء تلك الجلسة؟ كل ذٰلِكَ يَدُلّ علىٰ أن ما جاء به كان تلقياً من الله تعالىٰ قال عَزَّ وجَلَّ: ﴿ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ - يُوْنُس ٣٧.

٧- **وإذا قيل:**

إن سولون فيلسوف اليونان قد جاء بشرع منه، فليس بعجيب أن يأتي الرَّسُوْل بشريعته من فكره وعبقريته.

فالرد عليه هو:

أن سولون أحد فَلَاسِفَة اليونان في القرن السابع قبل المِيْلَاد، ووالدته من أَنسباء بستراتوس آخر ملوك أثينا.

وكان من رِجَال المال والحَرْب، وقد تولَّىٰ في بلاده بعض الإدارات وقيادة الجيش، وانتخب سنة ٥٩٤ قبل المِيْلَاد (أرجونا)، أي: رئيساً للأُمَّة، بإجماع أحزابها كلهم، وأعطوه سلطة مطلقة في نظم البلاد وقَانُوْنها، الذي وضعه (زراكوت) من قبله، فوضع سولون نِظَاماً جديداً اتبعته الحكومة. لٰكِن هٰذَا النِّظَام الجديد كان عبارة عن تَنْقِيْح القوانين السَّابِقَة التي صنعتها أعظم الأُمَم فلسفة وحَضَارَة وتقدماً آنئذٍ، وكان سولون متعلماً فيلسوفاً وقائداً لأعظم الجيوش المنظمة لأكبر دولة في العالم.

فأين هٰذَا من مُحَمَّد ﷺ، الأُمِّيّ الذي لم يقرأ، ولم يكتب، ولم يعرف السِّيَاسَة أو قيادة الجيوش. وما جاء به من تشريعات لم يكن مسبوقاً بقوانين تحكم جزيرة العَرَب كقوانين اليونان والرُّوْمان، لأن في الجزيرة قبائل متفرقة لا يجمع شملها نِظَام، ولا يحكمها قَانُوْن.

إذن ما جاء به لم يكن إلَّا وحياً من الله تعالىٰ، فيه العَقَائِد والآداب والأَحْكَام وكل ما يحتاج إليه الناس، فكان صالحاً لكل زمان ومكان.

المُعْجِزَة

المُعْجِزَة لُغَةً: مأخوذة من العَجْز ضد القُدرة[١].

واصْطِلَاحاً: هي عبارة عن ما قصد به إظهار صدق من ادَّعَىٰ أنه رَسُوْل الله[٢].

---

(١) شَرْح المَقَاصِد ج٥ ص١١ وشَرْح الجَوْهَرَة للبَاجُوْرِيّ ص٢٢٠. وفي تَبْصِرَة الأَدِلَّة ج١ ص٤٦٨: (الهاء الداخلة في لفظها هاء المُبَالغَة، كما في العَلَّامَة والنَّسَّابَة والرَّاوِيَة، فكانت داخلةً فيها للمُبَالغَة في الخبر عن عجز المُرْسَل إليهم).

(٢) المَوَاقِف وشرحه للسَّيِّد الشَّرِيْف ج٨ ص٢٢٢-٢٢٣.

ومن تعاريف المُعْجِزَة: هي أمرٌ خارقٌ للعادة، مقرونٌ بالتَّحَدِّي، الذي هو دعوىٰ الرِّسَالَة أو النُّبُوَّة، مع عدم المُعَارَضَة. / المُحَصِّل للرَّازِيّ ص٢٠٧ وشَرْح الجَوْهَرَة للبَاجُوْرِيّ ص٢٢٠.

أو: هي أمرٌ يظهر بخلاف العادة، علىٰ يد من يَدَّعِي النُّبُوَّة، عند تحدِّي المنكِرين، علىٰ وجهٍ يُعجِز المنكِرين عن الإتيان بمثله. / شَرْح العَقَائِد النَّسَفِيَّة ص١٦٦.

وقال الصَّالِحِيّ في سُبُل الهُدَىٰ والرَّشَاد ج٩ ص٥٥٩: (قال المحققون: المُعْجِزَةُ هي الأمرُ الخارق للعادة، المقرون بالتَّحَدِّي، الدالّ علىٰ صدق الأنبياء عليهم الصلاة والسَّلَام، والواقع علىٰ وَفْق دَعوَىٰ المُتَحَدَّىٰ بها، مع أمن المُعَارَضَة). وحين ذَكَرَ شرط اقترانها بالتَّحَدِّي، قال: (ولم يَشترِط بعضُهم التَّحَدِّي، قال: لأن أكثر الخوارق الصادرة من النَّبِيّ ﷺ خالٍ من التَّحَدِّي، وعلىٰ القول بالتَّحَدِّي لا يُسَمَّىٰ مُعْجِزَةً، وذٰلِكَ باطل).

وفي المَوَاقِف وشرحه للسَّيِّد الشَّرِيْف ج٨ ص٢٢٤: (هل يُشتَرَط التصريح بالتَّحَدِّي وطلب المُعَارَضَة كما ذهب إليه بعضُهم؟ الحق أنه لا يُشتَرَط، بل يكفي قرائن الأحوال، مثل: أن يُقالَ لمُدَّعِي النُّبُوَّة: إن كنتَ نَبِيّاً فأظهر مُعجِزاً، ففَعَلَ بأن دَعَا اللهَ فأظهره، فيكون ظهوره دليلاً علىٰ صدقه ونازلاً منزلة التصريح بالتَّحَدِّي).

ولذٰلِكَ قال البَاجُوْرِيّ في شَرْح الجَوْهَرَة ص٢٢٩: (المُرَاد من معجزات نبينا ﷺ هي الأُمور الخارقة للعادة، الظَّاهِرَة علىٰ يده ﷺ، سواءٌ كانت مقرونةً بالتَّحَدِّي أم لا).

شروط المُعْجِزَة

اشترط المحققون فيها الشروط الآتية[1]:

١- أن تكون أمراً من الله تعالىٰ، ليصدَّق مدعي النُّبُوَّة.

والأمر يشمل:

أ- القول: كالقُرْآن الكَرِيْم.

ب- والفعل: كنبع الماء من بين أصابع الرَّسُوْل ﷺ.

ج- والترك: كعدم إحراق النار لإِبْرَاهِيْم الخَلِيْل عَلَيْهِ السَّلَامُ.

٢- أن تكون خارقةً للعادة، التي اعتاد عليها الناس، واستمروا عليها مرة بعد أُخرىٰ.

وهٰذَا الشرط يفيد أن غير الخارق لا يكون مُعْجِزَة، كما إذا قال آية صدقي طلوع الشمس من حيث تطلع، وغروبها من حيث تغرب.

---

(١) هٰذِهِ الشروط الثمانية ذكرها: البَاجُوْرِيّ في شَرْح الجَوْهَرَة ص٢٢١ والسَّالِمِيّ في مَشَارِق أَنْوَار العُقُوْل ج٢ ص١٢ نَقْلاً عن البَاجُوْرِيّ.

وهٰذِهِ الشروط في: المَوَاقِف وشرحه للسَّيِّد الشَّرِيْف ج٨ ص٢٢٣-٢٢٧ إِلَّا الشرط الثامن منها.

وانظر بعضَ هٰذِهِ الشروط في: أُصُوْل الدِّيْن للبَغْدَادِيّ ص١٧٠-١٧١ والإِرْشَاد للجُوَيْنِيّ ص٣٠٨ والعَقِيْدَة النِّظَامِيَّة ص٢١٨ وتَبْصِرَة الأَدِلَّة ج١ ص٤٦٩ والمَقَاصِد وشرحه للتَّفْتَازَانِيّ ج٥ ص١١ والمُسَامَرَة ص٢٤٠-٢٤٢ وسُبُل الهُدَىٰ والرَّشَاد ج٩ ص٥٥٩ وكَشْف المُرَاد ص٣٧٧ ورِسَالَة التَّوْحِيْد ص٩٩ ط١٠ ورِسَالَة في التَّوْحِيْد للطَّائِيّ ص٧٣-٧٤ وحُجَّة الله علىٰ العالمين في معجزات سَيِّد المُرْسَلين ص٨ وما بعدها، وَاليَوَاقِيْت والجَوَاهِر للشَّعْرَانِيّ ج١ ص١٥٦-١٦١.

٣- أن تكون علىٰ يد مدعي النُّبُوَّة أوالرِّسَالَة.

أي أن صاحبها يقوم بدعوة إلىٰ دين، فيه سَعَادَة الناس في الدنيا والآخِرَة. وعندئذٍ لا تدخل في المُعْجِزَة الأُمور الآتية:

أ- الإهانة: وهي ما يظهر علىٰ يد فاسق أو كافر تكذيباً له، كما وقع لمُسَيْلِمَة الكَذَّاب حين بصق في عَيْن أعور لتبرأ، فعميت الصَّحِيْحة.

ب- الاستدراج: وهي ما يظهر علىٰ يد فاسق أو كافر، خديعةً أو مكراً به، أي: استدراجاً لهم، وزِيَادَة في غَيِّهم، حتىٰ يأتيهم أمر الله وهم غافلون،كما قال تعالىٰ: ﴿ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ - الأنعام.

وقال رَسُوْل الله ﷺ: (إذا رأيتَ اللهَ يُعطي العبدَ في الدنيا، وهو مُقيمٌ علىٰ معاصيه، ما يحب، فإنما هو استدراج). ثم تلا رَسُوْل الله ﴿ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ﴾... الآية، والآية التي بعدها[1].

ج- المعونة: وهي ما يظهر علىٰ يد العوام تخليصاً لهم من شِدَّة.

د- الكَرَامَة[2]: وهي ما يظهر علىٰ يد صالح تَقِيّ ظَاهِر الصَّلَاح.

---

(١) **حَدِيْث: إذا رأيتَ اللهَ يُعطي العبدَ**... إلخ، أَخْرَجَهُ أَحْمَد وابن جَرِيْر وابن أبي حَاتِم وابن المُنْذِر والطَّبَرَانِيّ في الكَبِيْر وأبو الشيخ وابن مَرْدَوَيْه والبَيْهَقِيّ في الشُّعَب عن عُقْبَة بن عَامِر عن النَّبِيّ ﷺ. / الدُّرّ المَنْثُوْر ج٣ ص١٢.

وهو في الجَامِع الصَّغِيْر ص٤٤ وفيه: هو حَدِيْث حَسَن، ولم يذكر الآية.

(٢) **الكَرَامَة**: هي ظهور أمر خارق للعادة علىٰ يد الوَلِيّ، غير مقارِن لدعوىٰ النُّبُوَّة.

والوَلِيّ: هو العارف بالله تعالىٰ وصفاته بحسب ما يمكن، المواظب علىٰ الطاعات، المجتنب

. . . . . .

عن المعاصي، المعرِض عن الانهماك في اللذات والشهوات[١].

وسبب الكَرَامَات الإيمان والتقوىٰ[٢]. قال تعالىٰ يصف الأَوْلِيَاء: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾ - يُونُس.

وقد أثبتها جُمْهُوْر المُسْلِمِيْن من السَّلَف والخَلَف، وأبو الحُسَيْن البَصْرِيّ من المُعْتَزِلَة[٣]، حتىٰ أنكر الإمَام أَحْمَد بن حَنْبَل علىٰ من أنكرها، وضلَّله[٤]، بل جعل بعضهم إنكارها فسقاً وابتداعاً[٥]، وحجتهم:

أ- ما ورد في القُرْآن الكَرِيْم: مثل:

حمل مريم من غير ذَكَر.

وتساقط الرُّطَب الجَنِيّ عليها من النخلة اليابسة، قال تعالىٰ: ﴿وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾ - مريم ٢٥.

ووجود الرزق عندها بلا سبب، قال تعالىٰ: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ﴾ - آل عِمْرَان ٣٧.

ولبث أهل الكهف ثلاثمائة وتسع سنوات بلا طعام وشراب، نياماً أحياءً بلا آفةٍ، قال

(١) شَرْح العَقَائِد النَّسَفِيَّة للتَّفْتَازَانِيّ ص١٧٥. وانظر: شَرْح المَقَاصِد للتَّفْتَازَانِيّ ج٥ ص٧٢ والإرْشَاد للجُوَيْنِيّ ص٣١٦ وتَبْصِرَة الأَدِلَّة ج١ ص٥٣٦ وشَرْح العَقَائِد العَضُدِيَّة للدَّوَّانِيّ ج٢ ص٢٨٢ وشَرْح الخَرِيْدَة للدَّرْدِيْر وحَاشِيَة الصَّاوِيّ عليه ص١١٣ ولَوَامِع الأَنْوَار البَهِيَّة ج٢ ص٣٩٢ وفيه ذكر شروط الوَلِيّ، والرِّسَالَة القُشَيْرِيَّة ص١٥٨ وما بعدها، وكتاب الفُرْقَان بين أَوْلِيَاء الرَّحْمٰن وأَوْلِيَاء الشيطان لابن تَيْمِيَّة، وشَرْح الجَوْهَرَة للبَاجُوْرِيّ ص٢٥٣ وحُجَّة الله علىٰ العالمين في معجزات سَيِّد المُرْسَلين، واليَوَاقِيْت والجَوَاهِر ج١ ص١٦٠-١٦٢ ورِسَالَة التَّوْحِيْد لمُحَمَّد عَبْدُه ط١٠ ص٢٣٦.

(٢) الفُرْقَان لابن تَيْمِيَّة ص٨٩.

(٣) لَوَامِع الأَنْوَار البَهِيَّة ج٢ ص٣٩٣و٣٩٦. وانظر: المَوَاقِف ج٨ ص٢٨٨. ووَرَدَ رأي أبي الحُسَيْن في: الفَائِق في أُصُوْل الدِّيْن ص٣١٨.

(٤) لَوَامِع الأَنْوَار البَهِيَّة ج٢ ص٣٩٣ عن نِهَايَة المبتدئين لابن حمدان.

(٥) حَاشِيَة الصَّاوِيّ علىٰ الدَّرْدِيْر ص١١٣.

. . . . . .

سُبْحَانَهُ: ﴿ وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ﴾ - الكهف ٢٥.

وإتيان وَزِيْر سُلَيْمَان عَلَيْهِ السَّلَامُ (آصَف بن برخيا) بعرش بلقيس بطرفة عَيْن مع المسافة البعيدة قال تعالىٰ: ﴿ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾ - النمل ٤٠.

ب- تواتر عن الصَّحَابَة الكرام عدد كَبِيْر من الكَرَامَات بحيث لا يمكن إنكاره منها:

لمَّا أرسل عُمَر بن الخَطَّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ جيشاً إلىٰ نَهَاوَنْد، أَمَّر عليهم رجلاً يسمىٰ سارية، فبينما عُمَر يَخْطُب، فجعل يصيح علىٰ المنبر: يا ساريةُ الجَبَلَ. فقدم رَسُوْل الجيش فسأله، فقال: يا أَمِيْر المُؤْمِنين لقينا عدوَّنا فهزمونا، فإذا بصائح: يا ساريةُ الجَبَلَ، يا ساريةُ الجَبَلَ، فأسندنا ظهورنا بالجبل، فهزمهم الله.

ولما حاصر خالد بن الوَلِيْد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حِصْناً مَنيعاً، قالوا لا نسلم حتىٰ تشرب السُّم، فشربه فلم يضرّه[1].

ج- إثبات الكَرَامَة للوَلِيّ هو إثبات مُعْجِزَة الرَّسُوْل ﷺ، لأنه لن يكون وَلِيّاً إلَّا بعد أن يكون محقاً في ديانته، وديانتُه الإقرار بالقلب واللِّسَان برِسَالَة رَسُوْل الله ﷺ مع الطاعة له في أوامره ونواهيه، لأن الوَلِيّ لو ادعىٰ الاستقلال بنفسه وعدم المتابعة للنَّبِيّ، لم يكن وَلِيّاً، ولم تظهر الكَرَامَة علىٰ يده، ولو فُرِضَ ظهورها فهو حينئذٍ من قبيل الاستدراج[2].

د- الكَرَامَة أمر ممكن، ووجود الممكنات مستند إلىٰ قدرته تعالىٰ الشَّامِلَة لجميعها، فلا يمتنع شيء منها علىٰ قدرته[3].

وأنكر الكَرَامَة: أبو إسْحَاق الإسْفَرَايِيْنِيّ، وأبو عبد الله الحَلِيْميّ من الأَشَاعِرَة، وأكثر

(١) انظر هٰذِهِ الأمثلة وغيرها في: المَوَاقِف وشرحه للسَّيِّد الشَّرِيْف ج٨ ص٢٨٨ وشَرْح المَقَاصِد للتَّفْتَازَانِيّ ج٥ ص٧٥ وشَرْح العَقَائِد النَّسَفِيَّة للتَّفْتَازَانِيّ ص١٧٥ ولَوَامِع الأَنْوَار البَهِيَّة ج٢ ص٣٩٤ وسُبُل الهُدَىٰ والرَّشَاد ج١٠ ص٨١١ وشَرْح الجَوْهَرَة للبَاجُوْرِيّ ص٢٥٢.

(٢) شَرْح العَقَائِد النَّسَفِيَّة للتَّفْتَازَانِيّ ص١٧٧ ولَوَامِع الأَنْوَار البَهِيَّة ج٢ ص٣٩٦ وسُبُل الهُدَىٰ والرَّشَاد ج١٠ ص٨١٠.

(٣) شَرْح المَوَاقِف للسَّيِّد الشَّرِيْف ج٨ ص٢٨٨. وانظر: أُصُوْل الدِّيْن للغَزْنَوِيّ ص١٦٢.

. . . . . .

المُعْتَزِلَة[١]، وابن حَزْم الظَّاهِرِيّ[٢]، بحُجَّة:

أنها لا تتميز عن المُعْجِزَة، فلا تكون المُعْجِزَةُ حينئذٍ دالةً علىٰ النُّبُوَّة، ويَنْسَدُّ بابُ إثباتها[٣].

ورُدَّ بما يأتي:

١- الكَرَامَة ثَابِتَة بالقُرْآن، وتواترها في كل عَصْر يشهد بأنها حق لا يمكن إنكاره، كما تَقَدَّم.

٢- إن المُعْجِزَة تفترق عن الكَرَامَة بالأُمور الآتية:

أ- المُعْجِزَة تتميز بالتَّحَدِّي مع ادِّعَاء النُّبُوَّة، أما الكَرَامَة فليس فيها ذٰلِكَ[٤].

ب- المُعْجِزَة مقارِنة لدعوىٰ النُّبُوَّة، أما الكَرَامَة فهي غير مقارِنة لها، فصاحب الكَرَامَة لا يدعي النُّبُوَّة، بل هو متبع للنَّبِيّ متمسك بشرعه، ولو ادَّعَاها صار عدواً لله، لا يستحق الكَرَامَة بل اللعنة والإهانة[٥]، فلا تلتبس عندئذٍ الكَرَامَة بالمُعْجِزَة.

ج- المُعْجِزَة مقدورة للأنبياء متىٰ أرادوها، إما باخْتِيَارهم، وإما باقْتِرَاح الأُمَّة. أما الكَرَامَة فقد يأتي بها الوَلِيّ، وقد لا يستطيع الإتيان بها[٦].

(١) شَرْح العَقَائِد العَضُدِيَّة للدَّوَّانِيّ ج٢ ص٢٨٢، وشَرْح المَقَاصِد للتَّفْتَازَانِيّ ج٥ ص٧٣، والمَوَاقِف وشرحه للسَّيِّد الشَّرِيْف ج٨ ص٢٨٨، ولَوَامِع الأَنْوَار البَهِيَّة ج٢ ص٣٩٤، وحَاشِيَة الصَّاوِيّ علىٰ الدَّرْدِيْر ص١١٣، وشَرْح الجَوْهَرَة للبَاجُوْرِيّ ص٢٥٣. والرِّسَالَة القُشَيْرِيَّة ص١٥٨ والإرْشَاد للجُوَيْنِيّ ص٣١٦ والتَّمْهِيْد للَّامِشِيّ ص٩١ والمُحَصِّل للرَّازِيّ ص٢٢١.

وجاء في الفَائق في أُصُوْل الدِّيْن ص٣١٧: (مَنَع شيوخُنا أبو عَلِيّ وأبو هَاشِم وأصحابهما من جواز ظهور المعجز علىٰ الصالح، والكذاب علىٰ العكس، وعلىٰ من سيُبْعَثُ إرهاصاً لنبوته).

(٢) الفِصَل لابن حَزْم ج٥ ص١٠٩. وذكر رأي أهل الظَّاهِر الطُّوْسِيُّ في اللُّمَع ص٣٩٣.

(٣) المَوَاقِف ج٨ ص٢٨٩ وسُبُل الهُدَىٰ والرَّشَاد ج١٠ ص٨١٢.

(٤) المَوَاقِف ج٨ ص٢٨٩.

(٥) شَرْح المَقَاصِد للتَّفْتَازَانِيّ ج٥ ص٧٣ وشَرْح الجَوْهَرَة للبَاجُوْرِيّ ص٢٥٣.

(٦) شَرْح العَقَائِد النَّسَفِيَّة لرَمَضَان أفندي ص٢٨٩-٢٩٠ والرِّسَالَة القُشَيْرِيَّة ص١٥٩ وبَحْر الكَلَام للنَّسَفِيّ ص١١٦.

٤- أن لا تكون متقدمة علىٰ دعوىٰ النُّبُوَّة، بل مقارنة لها أو متأخرة عنها بزمن يسير يعتاد مثله.

لأن المُعْجِزَة شهادة من الله تعالىٰ علىٰ صدق المدعي، والشهادة لا تتقدم علىٰ الدعوىٰ.

فخرج بذٰلِكَ: الإرهَاص (مشتق من أَرهَصْتُ الحائطَ، أي: أَسَّسْتُهُ): وهو ما كان قبل النُّبُوَّة من الخوارق تأسيساً لها، كإظلال الغَمَام له ﷺ قبل بعثته، وشق صدره، وككلام عِيسَىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في المهد. وهٰذِهِ الإرهاصات هي كَرَامَات، لأن الأنبياء قبل نُبُوَّتهم لا يقصرون عن درجة الأَوْلِيَاء.

د- الأنبياء يحتجون بمعجزاتهم علىٰ المُشْرِكِيْن، لأن قلوبهم قاسية لا يؤمنون بالله عَزَّ وجَلَّ، والأَوْلِيَاء يحتجون بالكَرَامَة علىٰ نفوسهم، حتىٰ تطمئن، وتوقن، ولا تضطرب، ولا تجزع عند فوت الرزق، لأنها أَمَّارَة بالسوء جاحدة مُشْرِكة مجبولة علىٰ الشك، ليس عندها يقين بما ضمن لها خَالِقها من الرزق[1].

هـ- إن الأنبياء كلما زيدت لهم من المعجزات، يكون أتم لمعانيهم وفضلهم، وهٰؤُلَاءِ الذين لهم الكَرَامَات من الأَوْلِيَاء كلما زيدت في كرامتهم، يكون وَجَلُهم أكثر، وخوفهم أكثر، حذراً أن يكون ذٰلِكَ من المكر الخفي لهم والاستدراج، وأن يكون ذٰلِكَ نصيبهم من الله عَزَّ وجَلَّ، وسبباً لسقوط منزلتهم عند الله عَزَّ وجَلَّ[2].

ولٰكِن الذي يجب الالتفات إليه هو أن أَهْل السُّنَّة وغيرهم في اتفاقٍ علىٰ أنه لا يجب الاعْتِقَاد بوقوع كَرَامَة معينةٍ علىٰ يد وَلِيٍّ معين بعد ظهور الإسلام، فيجوز لكل مُسْلِم بإجماع الأُمَّة أن ينكر صدور أي كَرَامَة كانت من أي وَلِيٍّ كان، ولا يكون بإنكار هٰذَا مخالفاً لشيءٍ من أُصُوْل الدِّيْن، ولا مائلاً عن سُنَّةٍ صَحِيْحَة، اللهم إلَّا أن يكون مما صَحَّ في السُّنَّة عن الصَّحَابَة[3].

.....

(١) اللُّمَع للطُّوْسِيّ ص٣٩٣.

(٢) اللُّمَع للطُّوْسِيّ ص٣٩٥. وهناك فُرُوْق أُخرىٰ في: أُصُوْل الدِّيْن للبَغْدَادِيّ ص١٧٤-١٧٥.

(٣) رِسَالَة التَّوْحِيْد لمُحَمَّد عَبْدُه ط١٠ ص٢٣٨.

٥- أن تكون موافقة لدعوىٰ النُّبُوَّة.

فخرج بذٰلِكَ المخالف لها، كما إذا قال: آية صدقي انفلاق البَحْر، فانفلق الجبل.

٦- أن لا تكون مكذِّبة له.

فخرج بذٰلِكَ ما إذاكانت مكذبة له، كما إذا قال: آية صدقي نطقُ هٰذَا الجماد، فنطق بأنه مُفْتَرٍ كَذَّاب.

٧- أن تتعذر معارضته.

وخرج بذٰلِكَ:

السِّحْر: وهو قَوَاعِد تكتسب بالتَّعْلِيْم يقتدر بها علىٰ أفعال غَرِيْبَة.

والكَهَانَة: وهي التنبؤ بالمغيبات لا عن دليل.

والشَّعْبَذَة: (أو الشَّعْوَذَة): وهي خفة في اليد يرىٰ أن لهاحقيقة ولا حقيقة لها، كما يقع للحُوَاة (جمع حاوي).

٨- أن لا تكون في زمان نقض العادة كزمن طلوع الشمس من مَغْرِبها، لأن ما يظهر عند ظهور أشراط الساعة وانتهاء التكاليف لا يشهد بصدق الدعوىٰ لكونه زمان نقض العادات.

مُعْجِزَة الرَّسُوْل دليل صدقه

إظهار المُعْجِزَة علىٰ يد مُدَّعِي النُّبُوَّة يفيد العلم بصدقه، ويفيد تصديق الله سُبْحَانَهُ له، فكأنها - علىٰ ما قال إمَام الحَرَمَيْن - بمنزلة أن يقول: جعلتُه رَسُوْلاً، أو أنشأتُ الرِّسَالَة فيه[1].

---

(١) شَرْح المَقَاصِد ج٥ ص١٨ ونِهَايَة الإقدام ص٤٢١.

ومَثَلُ ذٰلِكَ مَثَلُ من يَدَّعِي أنه أُرسل من مَلِكٍ حاضرٍ محتجبٍ بسِترٍ، والجَمَاعَة علىٰ كثرتها

مُعْجِزَة كل نَبِيّ من جنس ما اشتهر أهل زمانه به

مُعْجِزَة الأنبياء بخرقها العادة أعجزت المُتَحَدِّيْن عن معارضتها، مع فرط اهتمامهم بالمُعَارَضَة وتوفر دواعيهم.

ولهٰذَا كانت مُعْجِزَة كل نَبِيّ من جنس ما غلب علىٰ أهل زمانه، وتهالكوا عليه وتفاخروا به، فاشتهر قوم دَاوُد بالموسيقىٰ، وعجزوا عن مُعَارَضَة مُعْجِزَة دَاوُد عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وهي مزاميره.

واشتهر قوم مُوسَىٰ بالسحر، وعجزوا عن مُعَارَضَة مُعْجِزَة مُوسَىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في قلب العَصَا حَيَّة.

واشتهر قوم عِيسَىٰ بالطب، وعجزوا عن مُعَارَضَة مُعْجِزَة عِيسَىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في إحياء الموتىٰ، وإبراء الأكمه والأبرص.

واشتهر العَرَب قوم مُحَمَّد ﷺ بالفصاحة والبَلَاغَة، وعجزوا عن مُعَارَضَة مُعْجِزَة الرَّسُوْل ﷺ (القُرْآن الكَرِيْم) في بلاغته[1].

حضور. فإذا قام المُدَّعِي بين ذٰلِكَ الجمع وقال: أيها الناس إني رَسُوْل هٰذَا الملك إليكم، وآية صدقي في دعواي أنه يُحَرِّكُ هٰذَا السِّتر إذا طلبتُ ذٰلِكَ منه، ثم قال: أيها المَلِك، إن كنتُ صَادِقاً في دعواي الرِّسَالَة عنك فحَرِّك هٰذَا السِّتر فحُرِّكَ في الحال، عُلِمَ قطعاً ويقيناً بقرينة الحال أنه أراد بذٰلِكَ الفعل تصديق المُدَّعِي، ونُزِّلَ تحريك السِّتر منه منزلة التَّصْدِيْق بالقول. فالمُرَجِّحُ للصدق في المُعْجِزَة هي القرائنُ الحاصِلَة من اجتماع أُمور كثيرة منها: الخارق للعادة، ومنها كونه مقروناً بالدعوىٰ، ومنها سَلَامته عن المُعَارَضَة، فانتهضت هٰذِهِ القرائن بمجموعها دالةً علىٰ صدق المُدَّعِي، نازلةً منزلة التَّصْدِيْق بالقول. / نِهَايَة الإقدام ص٤٢١-٤٢٢.

(١) المَقَاصِد وشرحه ج٥ ص١٨. وانظر: الإنْصَاف للبَاقِلاَّنِيّ ص٦١-٦٢ وأَعْلَام النُّبُوَّة للمَاوَرْدِيّ ص٥٧ والمَوَاقِف وشرحه للسَّيِّد الشَّرِيْف ج٨ ص٢٥٢ والبُرْهَان للزَّرْكَشِيّ ج٢ ص٩٨ وسُبُل الهُدَىٰ والرَّشَاد ج٩ ص٥٧٣ والغُنْيَة للشيخ عبد القَادِر ج١ ص٨٤.

حكم الإيمان بالمُعْجِزَة

الإيمان بأن الله تعالىٰ قد أيد أنبياءه ورسله بالمعجزات واجبٌ، لا يجوز الاعْتِقَاد بخلافه، لأن إثبات النُّبُوَّة لا يَتِمّ إلَّا باجتماع أمرين:

أولهما: ادعاؤه النُّبُوَّة.

ثانيهما: إظهاره المُعْجِزَة، لكي يظهر صدقه أمام من أُرسل إليهم.

قال تعالىٰ: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ - الأنعام ٨٣.

وقال النَّبِيّ ﷺ: (ما من الأنبياء من نَبِيّ إلَّا قد أُعطيَ من الآيات ما مثلُه آمنَ عليه البَشَرُ، وإنما كان الذي أُوتيتُ وَحْياً أوحىٰ اللهُ إلَيَّ. فأرجو أن أكون أكثرَهم تابعاً يوم القيامة)[1].

وسَبِيْل تعريف الله تعالىٰ عِبَاده صدق الرسل بالمعجزات كسَبِيْل تعريفه إياهم إلٰهِيَّته بالآيات الدالة عليها، والتعريف قد يكون بالقول وقد يكون بالفعل[2].

شبهة ورَدّ

ذهب بعض المعاصرين إلىٰ إنكار المُعْجِزَة بحُجَّة:

أ- أنها خروج عن العادة المألوفة المُشَاهدَة.

ب- لأن العلم الحَدِيْث وأُصُوْل البَحْث يقتضي عدم التعويل علىٰ الروايات في

---

(١) **حَدِيْث: ما من الأنبياء...** إلخ، في: صَحِيْح البُخَارِيّ في: ٩٦ كتاب الاعتصام بالكتاب والسُّنَّة، ١ باب قول النَّبِيّ ﷺ بُعثتُ بجَوَامِع الكَلِم، رقم ٧٢٧٤، عن أبي هُرَيْرَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وفي صَحِيْح مُسْلِم، واللفظ له، في: ١ كتاب الإيمان، ٧٠ باب وجوب الإيمان برِسَالَة نبينا مُحَمَّد ﷺ إلىٰ جميع الناس...، رقم ١٥٢، عن أبي هُرَيْرَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) نِهَايَة الإقدام ص٤٢٥.

هٰذَا الشأن.

ورُدَّ هٰذَا القول بما يأتي:

١- إن طرق إثبات المعجزات صَحِيْحَة قطعاً، وقد ورد بعضها في القُرْآن والبعض الآخر في الحَدِيْث الصَّحِيْح، الذي قد يصل إلىٰ درجة التواتر.

فإنكارها هو إنكار للقُرْآن وصَحِيْح الروايات من الحَدِيْث الشَّرِيْف، وبالتالي إنكار كل ما ورد من أخبار دينية أو غير دينية وصلتنا بطرق صَحِيْحَة متواترة.

٢- تجاهل المعجزات وعدم الإيمان بها، يعتبر الخطوة الأُوْلَىٰ لإنكار الغيبيات، وفي مُقَدِّمتها الإيمان بالله تعالىٰ. وفي ذٰلِكَ هدم للشَّرِيْعَة الإسلامِيَّة من الأَسَاس.

٣- إن نواميس الكون بذاتها معجزات، لأن خلق الإنسان وأعاجيب تَرْكِيْب أجزائه مُعْجِزَة، وكذٰلِكَ خلق الشجر وخلق الماء والجمادات والحيوانات كلٌّ منها مُعْجِزَة بذاتها. وهٰذَا يعني أن الذي أوجدها ورعاها بهٰذَا الإعجاز، وهو الله تعالىٰ، قَادِر علىٰ أن يغير مجرىٰ الأُسْلُوْب الذي هو عليه، فالمعجزات هي في حَيِّز الممكن لا من المستحيلات، كما هو معروف بالبداهة.

٤- إجماع الأجيال المُتَعَاقِبَة علىٰ ثُبُوْت المعجزات، ولذٰلِكَ آمنوا بالرسل والأنبياء.

المَبْحَث الثالث

النُّبُوَّة الخاصة: نُبُوَّة سَيِّدنا مُحَمَّد ﷺ

إثبات نُبُوَّة سَيِّدنا مُحَمَّد ﷺ

تقدم أن إثبات النُّبُوَّة لا يكون إلَّا باجتماع أمرين:

أولهما: ادِّعَاء النُّبُوَّة.

وثانيهما: إظهار المُعْجِزَة.

فكل من ادَّعَىٰ النُّبُوَّة وأظهر المُعْجِزَة فهو نَبِيّ.

وهٰذَان الأمران يثبتان نُبُوَّة مُحَمَّد ﷺ، وهما يشكلان المبدأ الأول في إثباتها، وهناك أُمور أُخرىٰ تعد شواهد مؤكدة ومقررة لنبوته ﷺ.

وإليك تَوْضِيْح الأمرين المثبتين لنُبُوَّة الرَّسُوْل الأعظم مُحَمَّد ﷺ وهما:

الأول: ادِّعَاء النُّبُوَّة

تواتر عن النَّبِيّ ﷺ أنه ادَّعَىٰ النُّبُوَّة بلا خلاف من أحد تواتراً ألحقه بالعَيَان والمُشَاهدَة.

الثاني: إظهار المُعْجِزَة

ثبت عن الرَّسُوْل ﷺ أنه أظهر المُعْجِزَة.

مُعْجِزَات الرَّسُوْل مُحَمَّد ﷺ

ومُعْجِزَاته نوعان[١]:

النوع الأول: كمُعْجِزَات الرسل والأنبياء السَّابِقين قصيرة الأمد، زالت بزوال أيامها، وبموت من شَاهدها، والمتطلِّع إليها لا يجدها إلَّا في الأخبار، كمُعْجِزَات مُوسَىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من: قلب العصا حَيَّة، وفلقها البَحْر، ومُعْجِزَات عِيسَىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتىٰ... إلخ.

ومن هٰذِهِ المُعْجِزَات ما ثبت بالقُرْآن الكَرِيْم، أو نقل إلينا بالخبر المتواتر مثل:

١- انشقاق القمر الثَّابت بالقُرْآن الكَرِيْم: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢﴾- القمر.

والأَحَادِيْث في هٰذَا زاخرة كثيرة من طرق عدة في صَحِيْح البُخَارِيّ ومُسْلِم وغيرهما.

٢- نبع الماء من بين أصابعه ﷺ حين التمس الناس مع الرَّسُوْل ﷺ الماء للوُضُوْء فلم يجدوه، فدعا بإناء فيه ماء، فوضع الرَّسُوْل ﷺ يده في ذٰلِكَ الإناء، فنبع الماء من تحت أصابعه، فتوضأ جميع الناس إلىٰ آخرهم.

وهٰذِهِ المُعْجِزَة تكررت عدة مرات، كما ثبت ذٰلِكَ في البُخَارِيّ ومُسْلِم وغيرهما.

٣- إبراء المريض بلمسه ﷺ، كما في البُخَارِيّ ومُسْلِم وأصحاب السُّنَن في وقائع كثيرة.

---

(١) انظر الكلام عن مُعْجِزَاته ﷺ في: المَوَاقِف وشرحه للسَّيِّد الشَّرِيْف ج٨ ص٢٥٦ والمَقَاصِد وشرحه للتَّفْتَازَانِيّ ج٥ ص٢٥ والإنْصَاف للبَاقِلَّانِيّ ص٦٢ وتَبْصِرَة الأَدِلَّة ج١ ص٤٨٧ وبَحْر الكَلَام ص١٢١ وسُبُل الهُدَىٰ والرَّشَاد ج٩ ص٥٧٤ و ج١٠ والفَائِق في أُصُوْل الدِّيْن ص٣٢٨ وما بعدها، وشَرْح الجَوْهَرَة للبَاجُوْرِيّ ص٢٢٩ وحُجَّة الله علىٰ العالمين في مُعْجِزَات سَيِّد المُرْسَلين.

٤- إخباره بحوادث قبل وقوعها، وهو كثير جداً مثل:

أ- قال رَسُوْل الله ﷺ: (يُوشِك الأُمَم أن تَدَاعَىٰ عليكم، كما تَدَاعَىٰ الأَكَلَةُ إلىٰ قَصْعَتِها، فقال قائلٌ: ومن قِلَّةٍ نحن يومئذٍ؟ قال: بل أنتم يومئذٍ كثير، ولٰكِنكم غُثَاءٌ كغُثَاء السَّيْل، ولَيَنْزِعَنَّ اللهُ من صدور عدوكم المَهَابَةَ منكم، ولَيَقْذِفَنَّ اللهُ في قلوبكم الوَهَنَ، قال قائل يا رَسُوْل الله وما الوَهَنُ؟ قال: حُبُّ الدنيا وكراهيةُ الموت)[1].

والذي ينظر إلىٰ وضع المُسْلِمِيْن منذ أن اضمحل سُلْطَانهم في الأرض، يجد طمع العالم بالمُسْلِمِيْن والكيد لهم مع كثرتهم الكاثرة.

ب- قال رَسُوْل الله ﷺ: (صنفان من أهل النار لم أَرَهما: قومٌ معهم سِيَاطٌ كأذناب البقر، يَضرِبون بها الناسَ، ونساءٌ كاسياتٌ عارياتٌ مُميلاتٌ مائلاتٌ، رؤوسُهن كأَسْنِمَة البُخْت المائلة، لا يَدْخُلْنَ الجنةَ، ولا يَجِدْنَ ريحَها، وإنَّ ريحَها لَيُوجَدُ من مَسِيْرَة كذا وكذا)[2].

والنَّاظِر في أُمَّة الإسلام بعد قرونها الأُوْلَىٰ، يجد الصنف الأول من شيوع الظلم وإيذاء الناس، ويجد في عَصْرنا الحاضر صورة النساء في عُرْيهن وفتنتهن التي رسمها الحَدِيْث.

ج- قوله ﷺ: (لَيَأْتِيَنَّ علىٰ الناس زمانٌ، لا يَبقىٰ منهم أَحَدٌ إلَّا أكل الربا، فإن لم

---

(١) **حَدِيْث: يوشك الأُمَم**... إلخ، في: سُنَن أبي دَاوُد في: ٣١ كتاب المَلَاحِم، ٥ باب في تداعي الأُمَم علىٰ أهل الإسلام، رقم ٤٢٩٧، عن ثَوْبَان. وقال الشَّيْخ شُعَيْب في تَحْقِيْقِهِ سُنَن أبي دَاوُد ج٦ ص٣٥٥: حَدِيْث حَسَن.

(٢) **حَدِيْث: صنفان من أهل النار**... إلخ، في: صَحِيْح مُسْلِم في: ٣٧ كتاب اللباس والزِّيْنَة، ٣٤ باب النساء الكاسيات العاريات...، رقم ٢١٢٨، عن أبي هُرَيْرَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. و٥١ كتاب الجنة وصفة نَعِيْمها وأهلها، ١٣ باب النار يدخلها الجَبَّارون...، رقم ٢١٢٨م (٥٢)، عن أبي هُرَيْرَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

والبُخْت: الإبل الخُرَاسَانِيَّة، مفرده: جَمَل بُخْتِيّ، وناقة بُخْتِيَّة.

يأكله، أصابه من غُبَارِهِ)[١].

ومن المَعْلُوْم أن الحياة الاقْتِصَادِيَّة الحاضرة تقوم علىٰ الربا بالمصارف وغيرها، وهٰذَا إخبار عما نحن فيه.

د- قال رَسُوْل الله ﷺ: (لا تقوم الساعة، حتىٰ تَخرُج نارٌ من أرض الحِجَاز، تُضِيءُ أعناق الإبل ببُصْرَىٰ)[٢] وبُصْرَىٰ مَدِيْنَة بالشَّام.

فأنبأنا عن حدوث بركان عَظِيْم في أرض الحِجَاز من مكانٍ عَيَّنَهُ النَّبِيّ ﷺ. قال النَّوَوِيّ: تواتر العلمُ بخروج هٰذِهِ النار عن جميع أهل الشَّام. ووَصَفَ السَّمْهُوْدِيّ زلزالها ونارها، وكانت في زمنه سنة ٦٥٤هـ. ووَصَفَ القَسْطَلَّانِيّ في كتابٍ أفرده لهٰذِهِ الحادثة هٰذِهِ النار، فقال: (إنَّ ضَوْءها استولىٰ علىٰ ما بطن وما ظهر، حتىٰ كأن الحَرَم والمَدِيْنَة قد أشرقت بهما الشمس، وتأثر من لهيبها النيران، وصار نور الشمس علىٰ الأرض يعتريه صفرة، ولونها هي يعتريه حمرة، والقمر كأنه خسف). وذكر هٰذِهِ النار السَّمْهُوْدِيّ في تاريخ المَدِيْنَة والقَاضِي سِنَان والقَاشَانِيّ والعِمَاد بن كَثِيْر والمَطَرِيّ وغيرهم[٣].

النوع الثاني: نوع خالد خلود الدهر، ماثل كل حين، ألا وهو القُرْآن الكَرِيْم.

وهنا نتتبع بعض جوانبه الدالة علىٰ أنه مُعْجِزَة سَيِّدنا مُحَمَّد ﷺ وأنه من عند الله تعالىٰ.

---

(١) **حَدِيْث: لَيَأْتِيَنَّ علىٰ الناس زمانٌ**... إلخ، أَخْرَجَهُ أبو دَاوُد وابن مَاجَه والحَاكِم في المُسْتَدْرَك، عن أبي هُرَيْرَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وهو صَحِيْح. / الجَامِع الصَّغِيْر ص٤٦١.

(٢) **حَدِيْث: لا تقوم الساعة حتىٰ تخرج**... إلخ، مُتَّفَق عليه. / اللُّؤْلُؤ والمَرْجَان ص٨١٣.

رواه البُخَارِيّ في صَحِيْحه في: ٩٢ كتاب الفِتَن، ٢٤ باب خروج النار، رقم ٧١١٨، عن أبي هُرَيْرَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. ومُسْلِم في صَحِيْحه في: ٥٢ كتاب الفِتَن وأشراط الساعة، ١٤ باب لا تقوم الساعة حتىٰ تخرج نار من أرض الحِجَاز، رقم ٢٩٠٢، عن أبي هُرَيْرَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وبهٰذَا اللفظ في سُنَن أبي دَاوُد في: ٥٢ كتاب الفِتَن، ١٤ باب لا تقوم الساعة حتىٰ تخرج نارٌ من أرض الحِجَاز، رقم ٢٩٠٢، عن أبي هُرَيْرَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) الرَّسُوْل: سَعِيْد حوىٰ ج٢ ص١٣٠ وهٰذِهِ الأمثلة غَيْض من فَيْض.

القُرْآن الكَرِيْم

القُرْآن في اللُّغَة: مصدر قَرَأ. كالغُفْرَان مصدر غَفَر.

ومنه قوله تعالىٰ: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾﴾ - القيامة.

وفي الاصْطِلَاح: هو كلام الله تعالىٰ، المنزل علىٰ الرَّسُوْل مُحَمَّد ﷺ، المكتوب في المصاحف، المَنْقُوْل عنه نَقْلاً متواتراً بلا شُبْهَة، المبدوء بسورة الفاتحة والمختوم بسورة الناس، المُتَعَبَّد بتلاوته[1].

وهو الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهو التشريع الخالد لكل زمان ومكان.

والقُرْآن الكَرِيْم مُعْجِز، أعجز البشر عن أن يأتوا بسورة من مثله. وهنا لا بد أن نقيم الدليل علىٰ إعجازه، لتسلم لنا نُبُوَّة مُحَمَّد ﷺ، ويسلم الإسلام كله بعد ذٰلِكَ.

إعجَاز القُرْآن

الإعجاز: إثبات العجز للغير.

يقال: أعجزَ القُرْآن البَشَرَ، أي: أثبت عجزهم عن أن يأتوا بمثله.

ولا يتحقق الإعجاز إلَّا بأُمور ثلاثة:

١- التَّحَدِّي، وهو طلب المنازلة والمُعَارَضَة.

٢- وجود المقتضي الذي يدفع المُتَحَدَّىٰ إلىٰ المنازلة.

---

(١) فتح الغَفَّار لابن نُجَيْم ج١ ص١٠. وانظر: جَمْع الجَوَامِع بحَاشِيَة البَنَّانِيّ ج١ ص٢٢٣ وعلم أُصُوْل الفِقْه لعَبْد الوَهَّاب خَلَّاف ص٢٣.

٣- عدم وجود مَانِع من المباراة.

فالمصارع إذا ادَّعَىٰ البطولة، وأنكر عليه مصارع آخر، فتحداه الأول، فلم يستطع الثاني منازلته، كان الأول قد أثبت عجز الثاني، وذٰلِكَ:

لوجود التَّحَدِّي من الأول.

ولحرص الثاني علىٰ إبطال دعوىٰ الأول.

ولانعدام المرض أو العذر المَانِع من المباراة.

تحقق شروط الإعجاز في القُرْآن الكَرِيْم

لبَيَان صحة إعجاز القُرْآن الكَرِيْم، لا بد أن نعرض كل شرط من شروط الإعجاز المتقدمة علىٰ القُرْآن، ليتضح لنا إعجازه بجلاء، وذٰلِكَ علىٰ النَّحْو الآتي:

١- **التَّحَدِّي**، وهو طلب المنازلة والمُعَارَضَة.

فالقُرْآن الكَرِيْم تَحَدَّىٰ العَرَب، وأثبت عجزهم عن أن يأتوا بمثله، وهم أرباب الفصاحة والبَيَان شعراً ونثراً، قال تعالىٰ: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ - الطُّوْر.

وتَحَدَّاهم بأن يأتوا بعشر سور مثله، قال تعالىٰ: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ - هُوْد.

وتَحَدَّاهم بأن يأتوا بسورة من مثله، قال تعالىٰ: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ - البقرة.

فلما عجزوا تَحَدَّىٰ الإنس والجن بلهجة واخِزَة وتهكُّم لاذع، قال تعالىٰ: ﴿ قُل لَّئِنِ

ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ - الإسراء ٨٨.

وهٰذَا التَّحَدِّي لم يقف عند زمن الرَّسُوْل ﷺ فحسب، بل هو ماضٍ إلىٰ يوم القيامة[1].

٢- وجود المقتضي الذي يدفع المُتَحَدَّىٰ إلىٰ المنازلة.

فالرَّسُوْل ﷺ ادَّعَىٰ أنه رَسُوْل الله، وجاءهم بكتاب الله (القُرْآن الكَرِيْم) يسَفِّه عِبَاداتهم، ويسخر من عُقُوْلهم، فحرصوا علىٰ رده بأن يأتوا بمثله أو ببعضه، ليدحضوا حجته، فلا يقال إنه من الله.

٣- عدم وجود مَانِع من المباراة.

فالمَانِع الذي يمنع العَرَب من المُعَارَضَة غير موجود، وذٰلِكَ متضح في جوانب عدة هي:

أ- جانب اللُّغَة: فالعَرَب كانوا قادة الفصاحة والبَيَان بشعرهم ونثرهم، وكان القُرْآن بلِسَانهم.

ب- جانب المعنىٰ: فقد كانوا علىٰ بصر وخبرة وتَجَارِب وذكاء، كما تشير إلىٰ ذٰلِكَ خُطَبهم وأشعارهم ومنافراتهم وآثارهم.

ج- جانب الزمن: فالقُرْآن لم ينزل جُمْلَة وَاحِدَة، بل نزل خلال ثلاث وعشرين سنة، ليتسع مجال المُعَارَضَة[2].

---

(١) انظر تحَدِّي القُرْآن الكَرِيْم في: إثبات نُبُوَّة النَّبِيّ ص٢١ وكتابنا: التَّحَدِّي في آيات الإعجاز.

(٢) علم أُصُوْل الفِقْه لعَبْد الوَهَّاب خَلاَّف ص٢٥-٢٧ ومحاضرات في أُصُوْل الفِقْه للشيخ بَدْر المُتَوَلِّي عبد البَاسِط ج١ ص١٢٩.

والعَرَب يعلمون أن مُعَارَضَة القُرْآن بنظم سورة مثله أبلغ في تكذيب مُحَمَّد ﷺ وأسرع في تفريق أتباعه، لٰكِنهم عجزوا عن ذٰلِكَ، مع أنهم مصاقع الخُطَبَاء، وأساطين البَلَاغَة في تلك الفترة الطَّوِيْلَة، فعَدَلوا عن المُعَارَضَة، وسلكوا سَبِيْلاً آخر، وهو بذل النفوس، والمقارعة بالسيوف، والخروج من الأوطان، وإنفاق الأموال بالحَرْب الضَّارِيَة[1].

وما ذٰلِكَ إلَّا اعتراف كَامِل بأن القُرْآن الكَرِيْم كتاب الله، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

وجوه إعجاز القُرْآن الكَرِيْم

القُرْآن الكَرِيْم كتاب تشريع ودستور للناس، تبنىٰ به حياة عَزِيْزة كَرِيْمَة وارفة الظلال، تعمر بها الأرض.

ولم يكن مقصده الأصلي أن يؤَصِّل نَظَرِيَّات عِلْمِيَّة، أو أن يقصّ علينا أنباء الأولين، أو أن يكون صورة أدبية فريدة في الأُسْلُوْب، لٰكِنه ذكر آيات الله في الخلق بذٰلِكَ الأُسْلُوْب الرفيع، ليعلمهم أنه كلام إلٰهِيّ مُعْجِز في حد ذاته، وليؤكد الإيمان به، وتتخذ العِبَر من قصصه.

والقُرْآن الكَرِيْم مُعْجِز من وجوه متعددة، أظهرها ما يأتي:

الوجه الأول: فصاحة ألفاظه، وبَلَاغَة عباراته، وعجيب نظمه

والعُلَمَاء اختلفوا في تحديد هٰذَا الوجه علىٰ النَّحْو الآتي:

---

(١) الإتْقَان ص٧١٠-٧١١ والمَوَاقِف وشرحه للسَّيِّد الشَّرِيْف ج٨ ص٢٤٤ والمَقَاصِد وشرحه للتَّفْتَازَانِيّ ج٥ ص٢٧ وشَرْح العَقَائِد العَضُدِيَّة للدَّوَّانِيّ ج٢ ص٢٧٨ ونِهَايَة الإقدام ص٤٤٩ وسُبُل الهُدَىٰ والرَّشَاد ج٩ ص٥٨١ والنبأ العَظِيْم ص٨٥.

١- إعجاز القُرْآن في بُلُوْغه الطبقة العليا من الفصاحة، والدرجة القصوىٰ من البَلَاغَة، علىٰ ما يعرفه فُصحاء العَرَب بسَليقتهم وعُلَمَاء البَيَان بمهارتهم وإحاطتهم بأساليب الكلام. وهٰذَا هو قول الجُمْهُوْر[١].

وأصل البَلَاغَة في القُرْآن الكَرِيْم مُتَّفَق عليه، لا يُنكره من له أدنىٰ تَمْيِيْز ومَعْرِفَة بصياغة الكلام[٢].

فجميع ألفاظ القُرْآن الكَرِيْم فصيحة، لا تنبو عن السمع، وعباراته مطابقة لمُقْتَضَىٰ الحال في أعلىٰ مستويات البَلَاغَة، وهٰذَا واضح في تشبيهاته واستعاراته ومجازاته وأساليبه المُخْتَلِفَة[٣].

٢- إعجاز القُرْآن الكَرِيْم في نظمه (أي: تأليفه) الغَرِيْب، واسلوبه العجيب.

وللنَّظْم معنيان:

المعنىٰ الأول: النَّظْم هو تَرْتِيْب الكلمات، وضم بعضها إلىٰ بعض. وهٰذَا النَّظْم يخالف المعتاد من أساليب كلام العَرَب في:

مَطَالِعه: أي: أوائل السُّوَر والقصص، مثل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾، ﴿ٱلْحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٢﴾، ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾.

---

(١) المَقَاصِد وشرحه للتَّفْتَازَانِيّ ج٥ ص٢٨. وذكر الإيْجِيّ في المَوَاقِف والسَّيِّد الشَّرِيْف في شرحه عليه ج٨ ص٢٤٤: (كونه في الدرجة العالية من البَلَاغَة التي لم يعهد مثلها في تراكيبهم، وتقاصرت عنها درجات بلاغتهم، وعليه الجَاحِظ وأهل العَرَبِيَّة). وذكر أيضاً: (للعُلَمَاء عبارات مُخْتَلِفَة في تَفْسِيْر البَلَاغَة، أَحْسَنها قولهم: البَلَاغَة هي التعبير باللفظ الرائع «أي: المُعجِب بخلوصه عن معايب المفردات وتأليفاتها واشتماله علىٰ منافيها» عن المعنىٰ الصَّحِيْح «أي: المناسب للمقام الذي أُوردَ فيه الكلام» بلا زِيَادَة ولا نقصان في البَيَان والدلالة عليه. فكلما ازداد شَرَف الألفاظ ورونق المعاني ومطابقة الدلالة كان الكلام أبلغ).

(٢) المَوَاقِف السَّابِق.

(٣) علم أُصُوْل الفِقْه لعَبْد الوَهَّاب خَلَّاف ص٣١.

ومَقاطِعه: أي: أواخرها، مثل: ﴿يَعْلَمُونَ﴾، ﴿يَفْعَلُونَ﴾.

وفَواصِله: أي: آخر الآي، التي هي بِزِنَة الأسجاع في كلامهم.

فإن هٰذِهِ الأُمور المذكورة وقعت في القُرْآن علىٰ وجهٍ لم يُعهَد في كلامهم وكانوا عَاجِزيْن عنه. وبه قال بعضُ المُعْتَزِلَة[١].

المعنىٰ الثاني: النَّظْم هو جمع الكلمات مترتبة المعاني، متناسقة الدلالات علىٰ حسب ما يقتضيه العقل. فبلغ نظمه في الفصاحة والمطابقة لمُقْتَضَىٰ الحال الحَدَّ الخارجَ عن طَوْق البشر. وهو قول عبد القاهر الجُرْجَانِيّ[٢].

لذٰلِكَ فإن أشراف العَرَب مع كَمَال حذاقتهم في أسرار الكلام وفرط عداوتهم للإسلام لم يجدوا للطعن فيه مجالاً، ونسبوه إلىٰ السحر علىٰ ما هو دَأَب المحجوج المبهوت تَعَجُّباً من فصاحته وحُسْن نظمه وبلاغته، واعترفوا بأنه ليس من جنس خطب الخُطَبَاء أو شعر الشعراء[٣]. علىٰ ما سيأتي بَيَانه.

٣- إعجاز القُرْآن بمجموع الأمرين السَّابِقين: النَّظْم الغَرِيْب، وكونه في الدرجة العالية من البَلَاغَة، من غير استقلال لأحدهما. وهو قول القَاضِي البَاقِلَّانِيّ[٤].

والذي يتتبع تاريخ اللُّغَات يجد أنها متطورة تدريجياً، أَمَّا اللُّغَة العَرَبِيَّة فلم يحدث لها تطور تدريجي حين جاء القُرْآن، بل بعض ما يشبه الانفجار المباغت، فطفر باللُّغَة من

(١) المَوَاقِف وشرحه للسَّيِّد الشَّرِيْف ج٨ ص٢٤٤ والمَقَاصِد وشرحه للتَّفْتَازَانِيّ ج٥ ص٣٠.

(٢) المَقَاصِد وشرحه للتَّفْتَازَانِيّ السَّابِق وفيه: هو ما قال عبد القاهر: أن النَّظْم هو تَوَخِّي معاني النَّحْو فيما بين الكَلِم علىٰ حسب الأغراض التي يُصاغ لها الكلام.

(٣) المَقَاصِد وشرحه للتَّفْتَازَانِيّ ج٥ ص٣٢.

(٤) المَوَاقِف وشرحه للسَّيِّد الشَّرِيْف ج٨ ص٢٤٥ والمَقَاصِد وشرحه للتَّفْتَازَانِيّ ج٥ ص٣٠. وانظر: الإنْصَاف للبَاقِلَّانِيّ ص٦٢ وتَمْهِيْد الأوائل ص١٧٧ و١٨٥.

مَرْحَلَة اللهجة الجاهلية إلىٰ لُغَة منظمة فنياً، مع أنه لم يستعمل مطلقاً ألفاظاً أجنبية عن لهجة الحِجَاز. فكأنه استحضر ثروته اللفظية الخاصة، وأنشأها بطريقة غَرِيْبَة، فأحدث انقلاباً هائلاً في الأدب العَرَبِيّ بتغييره الأداة الفنية في التعبير، فخلق من الوجهتين الأدبية واللُّغَوِيَّة فصلاً تاماً بين اللُّغَة الجاهلية واللُّغَة الإسلامِيَّة[1].

قال الشيخ المَوْدُوْدي الهِنْدِيّ: (إذا قرأتَ اللُّغَة العَرَبِيَّة، ودرستَ أدبها، ظهر لك من دون أدنىٰ ارتياب، أنه لا يمكن أن تكون في الدنيا لُغَة أَنسب من هٰذِهِ اللُّغَة، لأداء الأفكار العالية، والإفصاح عن أدق معاني العلم الإلٰهِيّ، والتَّأْثِيْر في القلوب، فبالجُمَل الصَّغِيْرَة من هٰذِهِ اللُّغَة، تؤدىٰ الموضوعات المهمة، وتكون قَوِيَّة التَّأْثِيْر في القلوب، إلىٰ مثل هٰذِهِ اللُّغَة كانت تحتاج معاني القُرْآن الكَرِيْم، فمن حكمة الله البَالِغَة، ورحمته الشَّامِلَة بعِبَاده إذن، أن اختار أرض العَرَب علىٰ غيرها للنُّبُوَّة العالمية)[2].

أُسْلُوْب القُرْآن الكَرِيْم

أُسْلُوْب القُرْآن[3] هو الطريقة التي انفرد بها في تأليف كلامه واخْتِيَار ألفاظه، وقد

(١) الظَّاهِرَة القُرْآنية ص٢٣٢-٢٣٤.

(٢) مبادئ الإسلام لأبي الأعلىٰ المَوْدُوْدي ص٤٧.

وانظر في إعجاز القُرْآن بحثاً مستفيضاً في: الإتْقَان ص٧١١ وقد جاء بآراء كثيرة للجَاحِظ والنَّظَّام والبَاقِلَّانِيّ والرَّازِيّ والزَّمْلَكَانِيّ وابن عَطِيَّة والمُرَّاكُشِيّ والأَصْبَهَانِيّ والسَّكَّاكِيّ والتَّوْحِيْدِيّ والخَطَّابِيّ والزَّرْكَشِيّ والرُّمَّانِيّ والقَاضِي عِيَاض وغيرهم.

وقد طبعت بعض هٰذِهِ الكتب. وذكر الدكتور عُمَر ملَّا حُوَيْش في كتابه: (تطور دراسات إعجاز القُرْآن وأثرها في البَلَاغَة العَرَبِيَّة) آراء بعض هٰؤُلَاءِ محللاً كتبهم في الإعجاز. وانظر: نِهَايَة الإقدام ص٤٤٧ وإثبات نُبُوَّة النَّبِيّ ص٨٧ وإعجاز القُرْآن للرَّافِعِيّ، والنبأ العَظِيْم ص٨٠.

(٣) انظر أُسْلُوْب القُرْآن الكَرِيْم وخصائصه السبع الآتية في: مناهل العِرْفَان للزُّرْقَانِيّ ج٢ ص١٩٨ وما بعدها.

جاء القُرْآن الكَرِيْم بلِسَان العَرَب، فمن حروفهم تألفت كلماته، ومن كلماتهم تألفت تراكيبه، وعلىٰ قَوَاعِدهم العامة في صياغة هٰذِهِ المفردات وتكوين التراكيب جاء تأليفه. ومع ذٰلِكَ فقد أعجزهم بأُسْلُوْبه الفَذّ.

ومَثَلُ البَيَان اللُّغَوِيّ في أية لُغَة مثل أي صِنَاعَة من الصناعات، فالخياطون يختلفون فيما بينهم فمنهم من هو خامل أو ماهر، أو ضعيف أو بارع. وهٰذَا الاختلاف لم يكن نتيجة الاختلاف في مواد الثياب المخيطة أو الآلات والأدوات العامة المستخدمة في الخياطة، بل جاء الاختلاف من جهة الطريقة الخاصة التي اتبعت في اخْتِيَار هٰذِهِ المواد وتأليفها، واستخدام قَوَاعِد هٰذِهِ الصِّنَاعَة في شكلها وهندستها.

لذٰلِكَ كان للتعبير القُرْآني سره العجيب، ومن السَّابِقين الذين نبهوا علىٰ أسرار تعبيره الخَطِيْب الإسْكَافِيّ، المُتَوَفَّىٰ سنة ٤١٢ هـ، في كتابه (دُرَّة التنزيل وغُرَّة التأويل)، قال مبيناً سر التعبير بالفاء في لفظ (كلوا) من قوله سُبْحَانَهُ في سورة البقرة ٥٨: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ﴾، وعن سر التعبير بالواو لا بالفاء في لفظ (كلوا) من قوله سُبْحَانَهُ في سورة الأعراف ١٦١: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ﴾، مع إن القصة وَاحِدَة، ومدلول الحرف وَاحِد. قال:

الأصل أن كل فعل عطف عليه ما تعلق به تعلق الجواب بالابتداء. وكان الأول مع الثاني بمعنىٰ الشرط والجزاء، فالأصل فيه عطف الثاني علىٰ الأول بالفاء دون الواو، ومنه: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟﴾ - البقرة ٥٨، فإن وجود الأكل متعلق بالدخول: والدخول مُوْصِل إلىٰ الأكل، فالأكل وجوده معلق بوجوده، بخلاف ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟﴾ - الأعراف ١٦١، لأن السُّكْنَىٰ مقام مع طول لبث، والأكل لا يختص وجوده بوجوده، لأن من يدخل بُسْتَاناً قد يأكل منه مجتازاً، فلما لم يتعلق الثاني بالأول تعلق الجواب بالابتداء وجب العطف بالواو دون الفاء[1].

(١) انظر: دُرَّة التنزيل وغُرَّة التأويل ص١٠.

خصائص أُسْلُوْب القُرْآن الكَرِيْم

الخصائص التي امتاز بها أُسْلُوْب القُرْآن الكَرِيْم جعلت له طابعاً مُعْجِزاً في لغته وبلاغته، ومن تلك الخصائص:

الخاصة الأُوْلَىٰ: مسحة القُرْآن اللفظية الخلَّابة العجيبة، المتجلية في نِظَامه الصوتي، وجماله اللُّغَوِيّ. والمُرَاد بنِظَام القُرْآن الصوتي: اتساق القُرْآن وائتلافه في حركاته وسَكَناته ومَدَّاته وغُنَّاته، واتصالاته وسكتاته، اتساقاً عجيباً، وائتلافاً رائعاً.

فمن ألقىٰ سمعه إلىٰ مجموعة القُرْآن الصوتية يشعر ولو كان أعجمياً لا يعرف العَرَبِيَّة بأنه أمام لحن غَرِيْب، وتوقيع عجيب، يفوق في حُسْنِهِ وجماله كل ما عرف من توقيع الموسيقىٰ وترنيم الشعر، لأن الموسيقىٰ تتقارب أنغامها، فلا يفتأ السمع أن يَمَلَّها، ولأن الشعر تتحد فيه الأوزان وتتشابه القوافي في القصيدة الوَاحِدَة غَالباً علىٰ نَمَط يُورث سامعَه المِلَل والسَّأَم.

أما سامع لحن القُرْآن فلا يَسأم ولا يَمَلّ، لأنه ينتقل فيه دائماً بين ألحان متنوعة، وأنغام متجددة علىٰ أوضاع مُخْتَلِفَة، يهزّ كل وضع منها أوتار القلوب.

وهٰذَا الجمال الصوتي هو أول شيء أَحَسَّته الآذانُ العَرَبِيَّة أيام نُزُوْل القُرْآن ولم تكن عهدت مثله، حتىٰ خيل إليهم أنه شعر أو سحر.

والمُرَاد بجمال القُرْآن اللُّغَوِيّ ما امتاز به في رصف حروفه، وتَرْتِيْب كلماته، حين تعطىٰ حروف القُرْآن حقَّها ومستحَقَّها من المخارج والصفات علىٰ ما هو مقرر في قَوَاعِد علم التجويد.

فتألَّف من اجتماع نِظَامه الصوتي وجماله اللُّغَوِيّ قالَبٌ لفظي مدهش، تلاقت عنده أذواق القبائل العَرَبِيَّة علىٰ اختلافها بكل يُسْرٍ وسهولة.

ولقد كان الجمال اللُّغَوِيّ والنِّظَام الصوتي دليل الإعجاز من ناحية، وكان من

ناحية أُخرىٰ سُوْراً منيعاً لحفظ القُرْآن، يسترعي الأَسْمَاع، ويثير الانتباه، فيبقىٰ سائداً علىٰ ألسنة الخلق وفي آذانهم، فلا يجرؤ أحد علىٰ تغييره.

الخاصة الثانية: إرضاؤه العامة والخاصة.

فالعامة والخاصة علىٰ حد سواء إذا قرؤوه أو قُرِئَ عليهم أحسوا بجماله، وتذوقوا حلاوته، وفهموا منه ما استطاعوا أن يفهموه.

وليس كذٰلِكَ كلام البشر، فإنه إن أرضىٰ الخاصة والأذكياء لجنُوْحه إلىٰ التجوز والإغراب والإشارة لم يُرضِ العامة، لأنهم لا يفهمونه.

وإن أرضىٰ العامة لجنُوْحه إلىٰ التصريح والحَقَائِق العارية المكشوفة لم يُرضِ الخاصة لنُزُوْله إلىٰ مستوىٰ ليس فيه متاع لأذواقهم ومشاربهم وعُقُوْلهم.

الخاصة الثالثة: إرضاؤه العقل والعاطفة لأنه يخاطب القلب والعقل معاً.

فمثلاً وهو معرض الاستدلال العقلي علىٰ البعث والإعادة، يسوق استدلاله سوقاً يهز القلوب ويمتع العاطفة. قال سُبْحَانَهُ في سورة فُصِّلَت ٣٩: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

وقال سُبْحَانَهُ في سورة ق ٦-١١: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾﴾.

هٰذَا الأُسْلُوْب البارع أقنع العقل، وأمتع العاطفة في آنٍ وَاحِد، قال في الأُوْلَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ﴾ - فُصِّلَت ٣٩، وفي الأَخِيْرَة: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾ - ق ١١.

يا للجمال الساحر، ويا للإعجاز الباهر، الذي يستقبل عقل الإنسان وقلبه معاً، بأنصع الأَدِلَّة وأمتع المعروضات في هٰذِهِ الكلمات المَعْدُوْدات.

وحين يسوق قصة يُوْسُف عَلَيْهِ السَّلَامُ مثلاً يأتي بالعِظَات البَالِغَة، ويطلع من خلالها بالبَرَاهِيْن الساطعة علىٰ وجوب الاعتصام بالعفاف والشَّرَف والأمانة، إذ قال في فصل منها: ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحْسَنَ مَثْوَايَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ - يُوْسُف ٢٣.

فتأمل كيف قوبلت دواعي الغواية الثلاث بدواعي العفاف الثلاث مُقَابَلَة صورت من القصص الممتع جدالاً عنيفاً بين جند الرَّحْمٰن وجند الشيطان، ووضعتهما أمام العقل المنصف في كفتي مِيْزَان.

وهٰكَذَا تجد القُرْآن الكَرِيْم كله مزيجاً حلواً سائغاً، يخفف علىٰ النفوس تجرُّعَها الأَدِلَّة العقلية، ويرفه عن العُقُوْل باللفتات العاطفية، ويوجه العُقُوْل والعواطف معاً جنباً إلىٰ جنب لهِدَايَة الإنسان وخَيْر الإنسانية.

وهٰذَا ليس ككلام البشر، فإنه إذا وفىٰ حق العقل بخس العاطفة حقها، وإن وفىٰ العاطفة بخس العقل حقه، حتىٰ أصبح مَعْلُوْماً عرفاً أن الأساليب النثرية مقسمة إلىٰ نوعين. أُسْلُوْب عِلْمِيّ وأُسْلُوْب أدبي.

فطُلَّاب العلم لا يرضيهم الأُسْلُوْب الأدبي، وطُلَّاب الأدب لا يرضيهم الأُسْلُوْب العِلْمِيّ، والإنسان مهما أُوتي لم يملك هاتين القوتين متكافئتين، وعلىٰ فرض تكافئهما في شخص فإنهما لا يعملان معاً دفعة وَاحِدَة، بل علىٰ سَبِيْل البدل والمناوبة ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ﴾ - الأحزاب ٤.

أما القُرْآن فإنه هو المفرد بهٰذِهِ الميزة بين أنواع الكلام، لأنه تنزيل من القَادِر الذي جمع بين الروح والجسد في قُرْآنه.

الخاصة الرابعة: جودة سبك القُرْآن وإحْكَام سرده.

فالقُرْآن بلغ من ترابط أجزائه وتماسك كلماته وجُمَله، وآياته وسُوَره، مبلغاً لا يدانيه فيه أي كلام آخر، مع طول نَفَسِهِ وتنوع مَقَاصِده، وتلوينه في الموضوع الوَاحِد.

فكأنما هو سبيكة وَاحِدَة تأخذ بالأَبْصَار.

هٰذِهِ سورة الفاتحة، تأمل كيف تترابط وتتناسق في حُسْن تخلُّص من معنى إلىٰ معنى، ومن مقصد إلىٰ مقصد.

لقد افتتحت مُتَوَّجَة باسم الله، كما يُتوِّج القَاضِي كلَّ حكم من أَحْكَامه باسم جَلَالَة الملك، لإعْلَان الجهة التي يستمد منها نفوذه في صدور أَحْكَامه، ثم انتقل الكلام فيها سريعاً إلىٰ الاستدلال علىٰ أن الاستعانة إنما هي بالله تعالىٰ وحده، وذٰلِكَ بإضافة الاسم إلىٰ لفظ الجَلَالَة، الذي هو اسم الذات الجَامِع لصفات الكَمَال، وبوصف لفظ الجَلَالَة بأنه ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ - الفاتحة ٣.

ثم انتقل الكلام إلىٰ إعْلَان أنه تعالىٰ مستحق للمحَامِد كلها، ما دام أنه المستعان وحده.

ثم انتقل إلىٰ تدعيم هٰذَا الاستحقاق بأَدِلَّة ثلاثة جرت علىٰ اسم الجَلَالَة مجرىٰ الأوصاف في مقام حمده ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤ ﴾ - الفاتحة.

ثم انتقل الكلام إلىٰ إعْلَان وحدانيته ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ ما دام أنه هو المعين وحده، ومستحق المحَامِد كلها وحده.

ثم انتقل الكلام في براعة إلىٰ بَيَان المطمح الأعلىٰ للإنسان، وهو الهِدَايَة إلىٰ الصراط المُستقِيم، وأنه لا سَبِيْل إلىٰ الوُصُوْل إلىٰ هٰذَا المطمح عن طريق أحد إلَّا عن طريق الله وحده، بقرينة ما سبق من أَدِلَّة التَّوْحِيْد والتَّمْجِيْد قبله ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾.

ثم انتقل الكلام إلىٰ تقسيم الخلق بالنسبة إلىٰ هٰذِهِ الهِدَايَة ثلاثة أقسام، تَنْبِيْهاً وإغراء علىٰ المقصود، وتحذيراً وتنفيراً من الوقوع في نقيض هٰذَا المقصود ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾.

وإذا الناس أمام عينيك بين مُنْعَم عليه بمَعْرِفَة الحق واتباعه، ومغضوب عليه بمخالفة الحق مع العلم به، وضالّ في متاهة الضلال، لا يكلف نفسه عناء البَحْث عن الحق.

ثم تنظر في سورة البقرة فإذا هي وما بعدها ترتبط بالفاتحة ارتباط المُفَصَّل بالمُجْمَل. فالهِدَايَة إلىٰ الصراط المُستقِيم صراط من أنعم الله عليهم من النَّبِيِّيْن والصِّدِّيْقِيْن والشهداء والصَّالِحِيْن، تشرحها سورة البقرة وما وليها من سُوَر القُرْآن، حيث جاءتنا بتفاصيل هٰذِهِ الهِدَايَة في بَيَان كَامِل، وعرضٍ شاملٍ.

فتراه ينتقل من مقصد إلىٰ مقصد بأُسْلُوْب أَخَّاذ رائع بَدِيْع.

هٰذَا بخلاف كلام البشر، حيث يضطر العُلَمَاء والمؤلفون في تنقلاتهم بين أغراضهم إلىٰ اسْتِعْمَال أسماء الإشارة، وأدوات التَّنْبِيْه، ولفظ أمَّا بعدُ، ونحو هٰذَا، وتقسيم الكتاب إلىٰ مباحث، وكل مَبْحَث يشتمل علىٰ النقاط الآتية... .

الخاصة الخامسة: براعته في تصرُّف القول وثروته في أفانين الكلام.

فيورد المعنىٰ الوَاحِد بألفاظ وبطرق مُخْتَلِفَة، بمقدرة فائقة خارقة، تنقطع في حَلَبتها أنفاس الموهوبين من الفصحاء والبلغاء، من ذٰلِكَ:

تعبيره عن طلب الفعل من المخاطبين بالوجوه الآتية:

١- الإتيان بصَرِيْح مادة الأمر، نحو قوله سُبْحَانَهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾ - النساء ٥٨.

٢- الإخبار بأن الفعل مكتوب علىٰ المكلفين، نحو: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ - البقرة ١٨٣.

٣- الإخبار بكونه علىٰ الناس، نحو: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ - آل عِمْرَان ٩٧.

٤- الإخبار عن المكلف بالفعل المطلوب منه، نحو: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾ - البقرة ٢٢٨، أي: مطلوب منهن أن يتربصن.

٥- الإخبار عن المبتدأ بمعنى يطلب تَحْقِيْقه من غيره، نحو: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ - آل عِمْرَان ٩٧، أي: مطلوب من المخاطبين تأمين من دخل الحَرَم.

٦- طلب الفعل بصيغة فعل الأمر، نحو: ﴿حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ - البقرة ٢٣٨.

أو بلام الأمر، نحو: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ - الحج ٢٩.

٧- الإخبار عن الفعل بأنه خَيْر، نحو: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ﴾ - البقرة ٢٢٠.

٨- وصف الفعل وصفاً عُنْوَانياً بأنه بِرٌّ، نحو: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ - البقرة ١٨٩.

٩- وصف الفعل بالفَرَضِيّة، نحو: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِىٓ أَزْوَٰجِهِمْ﴾ - الأحزاب ٥٠، أي: من بذل المهور والنفقة.

١٠- تَرْتِيْب الوعد والثواب علىٰ الفعل، نحو: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ - الحديد ١١.

١١- تَرْتِيْب الفعل علىٰ شرط قبله، نحو: ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ﴾ - البقرة ١٩٦.

١٢- إيقاع الفعل منفياً معطوفاً عَقِبَ استفهام، نحو: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ - النَّحْل ١٧، أي: تذكروا.

١٣- إيقاع الفعل عَقِبَ تَرَجٍّ، نحو: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ - البقرة ١٨٥.

١٤- تَرْتِيْب وصف شنيع علىٰ ترك الفعل، نحو: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ - المائدة ٤٤.

وانظر من ذٰلِكَ تعابيره عن النهي والإباحة.

ولقد خلع هٰذَا التصرف والافتتان لباساً فضفاضاً من الجِدَّة والروعة علىٰ القُرْآن، فلا يَمَلّ قارئه، ولا يَسأم سامعه مهما كثرت القِرَاءَة والسَّمَاع. وهٰذَا التصرف في القول فن من فُنُوْن إعجازه الأُسْلُوْبي.

الخاصة السادسة: جمع القُرْآن بين الإجمال والبَيَان، مع أنهما غايتان متقابلتان، لا يجتمعان في كلام وَاحِد من الناس، بل كلامهم إما مُجْمَل وإما مُبَيَّن.

والمُجْمَل[1]: ما له دلالة غير واضحة، مثل: لفظ (مُخْتَار) فإنه متردد بين الفاعل والمفعول. ولفظ (القُرْء) فإنه متردد بين الحيض والطُّهْر.

والمُبَيَّن: ما لا خفاء فيه، لا ما وقع إليه السياق. نحو: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا﴾- المائدة ٣٨.

لأن الكلمة إما واضحة المعنىٰ لا تحتاج إلىٰ بَيَان، وإما خفية المعنىٰ تحتاج إلىٰ بَيَان. أما كلمة القُرْآن فإنك تجدها واضحة المغزىٰ وضوحاً يريح النفس من عناء التعقيب والبَحْث لأول وَهْلَة، وإذا أمعنت النَّظَر فيها لاحت منها معانٍ جديدةٍ كلها صَحِيْح أو محتمل لأن يكون صَحِيْحاً، وكلما أمعنت فيها النَّظَر زادتك من المَعَارِف والأسرار بقدر ما تصيب أنت من النَّظَر وما تحمل من الاستعداد.

---

(١) **المُجْمَل**: هو ما خفي المُرَاد منه بنفس اللفظ خفاءً لا يُدرَك إلاَّ ببَيَان من المُجْمِل، سواء كان ذٰلِكَ لتزاحم المعاني المتساوية الأقدام كالمشترك. أو لغرابة اللفظ كالهَلُوع (وهو من يسرع في الجَزَع عند إصَابَة المكروه. وفي المنع عند إصَابَة الخَيْر)، أو لانتقاله من معناه الظَّاهِر إلىٰ ما هو غير مَعْلُوْم كالصلاة والزكاة والربا. / انظر: شَرْح التلويح علىٰ التَّوْضِيْح للتَّفْتَازَانِيّ ج١ ص١٢٧.

ولهٰذَا السر وجد في كتاب الله جميع أصحاب المَذَاهِب المُخْتَلِفَة والمشارب المتباينة شفاء أنفسهم.

وليس كذٰلِكَ كلام البشر، فإنهم إذا قصدوا إلىٰ تَوْضِيْح أغراضهم ضاقت ألفاظهم، ولم تتسع لاستنباط وتأويل، وإذا قصدوا إلىٰ إجمالها لم يتضح ما أرادوه وربما التحق بالألغاز.

الخاصة السابعة: قَصْد القُرْآن في اللفظ مع وفائه بالمعنىٰ.

ففي ألفاظ القُرْآن بَيَان قَاصِد، مقدر علىٰ حاجات البشر من الهِدَايَة، دون أن يَزِيْد اللفظ علىٰ المعنىٰ، أو يقصر عن الوفاء بحاجات من هِدَايَة الخَالِق.

ومع هٰذَا اتضح المعنىٰ في صورةٍ كَامِلَة، قال ابن عَطِيَّة: (لو نُزعت منه لفظة، ثم أُدير لِسَان العَرَب علىٰ لفظة أَحْسَن منها لم توجد).

أما البليغ من الناس فإن أراد القَصْد في اللفظ حمله علىٰ الغَضّ من شأن المعنىٰ، وقد يبلغ إلىٰ حد الألغاز.

وإذا أراد الوفاء بالمعنىٰ حمله علىٰ الإسهاب، حرصاً علىٰ أَلَّا يفوته شيء من المعنىٰ الذي يقصده.

وإذا افترضنا أَنَّ بليغاً كتب له التوفيق بين هاتين الغايتين في جُمْلَة أو جملتين فإن الكلال يلحقه في بقية الكلام لا محالة.

والنَّاظِر في ما أُثِر عن أبرع الشعراء والكُتَّاب والخُطَبَاء يجد ذٰلِكَ واضحاً، وما كان اللفظ الواضح الجَامِع والمعنىٰ الناصع إلَّا في أبيات أو جُمَل مَعْدُوْدَة.

حتىٰ الرَّسُوْل ﷺ مع أنه أُوتي جَوَامِع الكَلِم، وأشرقت نفسه بأَنْوَار النُّبُوَّة، وسما كلامه علىٰ كلام كل إنسان، فإن بينه وبين القُرْآن البون الشاسع.

الوجه الثاني: تَأْثِيره وسُلْطَانه على القلوب، وأخذه بمجَامِع الأفئدة

فقارئُه لا يَمَلُّه، وسامعه لا يَمُجُّه، بل الإكباب علىٰ تلاوته يَزِيْده حلاوة، وترديده يوجب له محبة، فإذا قرع السمع خَلَصَ له إلىٰ القلب من اللذة والحلاوة ما تنشرح له الصدور، وتستبشر به النفوس[1].

ودليل ذٰلِكَ ما يأتي:

١- أنهم كانوا يهيمون علىٰ وجوههم ليلاً، فيهجرون لذة النوم ليستمعوا إلىٰ رَسُوْل الله ﷺ، وهو يتلو القُرْآن الكَرِيْم، قائماً بالليل أو في صلاة الفجر، فتطرب نفوسهم، وتهش له أفئدتهم.

قال الزُّهْرِيّ: إنَّ أبا جَهْل وأبا سُفْيَان والأَخْنَس بن شَرِيْق خرجوا ليلةً ليسمعوا من رَسُوْل الله ﷺ وهو يصلي بالليل في بيته، فأخذ كل رجل منهم مجلساً يستمع منه، وكلٌّ لا يعلم بمكان صاحبه، فباتوا يستمعون له، حتىٰ إذا أصبحوا وطلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطريق، فتلاوموا، وقال بعضُهم لبعض: لا تعودوا فلو رآكم بعضُ سفهائكم لأوقعتم في نفسه شَيئاً، ثم انصرفوا.

حتىٰ إذا كانت الليلة الثانية عاد كلُّ رجل منهم إلىٰ مجلسه. فباتوا يستمعون له، حتىٰ إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطريق، فقال بعضُهم لبعض مثل ما قالوا أول مرة، ثم انصرفوا.

فلما كانت الليلة الثالثة أخذ كلُّ رجل منهم مجلسه، فباتوا يستمعون له، حتىٰ إذا

---

(١) الشفا ج١ ص٢٧٣و٢٧٦ والإتْقَان ص٧١٩ نَقْلًا عنه وعن غيره، وسُبُل الهُدَىٰ والرَّشَاد ج٩ ص٥٨٧ وعلم أُصُوْل الفِقْه لعَبْد الوَهَّاب خَلَّاف ص٣١. قال الخَطَّابِيّ: قلت في إعجاز القُرْآن وجهاً آخر، ذهب عنه الناس فلا يكاد يعرفه إلَّا الشَّاذّ من آحادهم، وذٰلِكَ صنيعه بالقلوب... . / انظر: بَيَان إعْجَاز القُرْآن للخَطَّابِيّ - ثلاث رَسَائِل في إعجاز القُرْآن ص٧٠.

طلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطريق، فقالوا:

لا نبرح حتىٰ نتعاهد أَلَّا نعود، فتعاهدوا علىٰ ذٰلِكَ، ثم تفرقوا.

فلما أصبح الأَخْنَس بن شَرِيْق، أخذ عصاه ثم خرج، حتىٰ أتىٰ أبا سُفْيَان في بيته، فقال: أَخْبِرْنِي يا أبا حَنْظَلَة عن رأيك فيما سمعتَ من مُحَمَّد؟ فقال: يا أبا ثَعْلَبَة والله لقد سمعتُ أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها، وأشياء لا أعرفها ولا أعرف ما يراد بها.

فقال الأَخْنَس: وأنا والذي حلفتَ به.

ثم خرج من عنده حتىٰ أتىٰ أبا جَهْل، فدخل عليه بيته، فقال:

يا أبا الحَكَم، ما رأيك فيما سمعتَ من مُحَمَّد؟ فقال: ماذا سمعتُ؟ تنازعنا نحن وبنو عبد مَنَاف الشَّرَف، أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتىٰ إذا تَجَاثَيْنَا علىٰ الرُّكَب، وكنا كفرسَي رِهَان قال: منا نَبِيّ يأتيه الوحي من السماء، فمتىٰ ندرك هٰذِهِ؟ والله لا نسمع به أَبداً ولا نصدّقه، فقام عنه الأَخْنَس بن شَرِيْق[1].

وهٰذَا دليل واضح علىٰ أن نفوسهم مستيقنة بصدق القُرْآن وإعجازه، لٰكِن عنادهم وحسدهم حا ل دون التَّصْدِيْق به.

٢- جاء الوَلِيْد بن المُغِيْرَة إلىٰ النَّبِيّ ﷺ فقرأ عليه القُرْآن فكأنه رَقَّ له، فبلغ ذٰلِكَ أبا جَهْل.

فأتاه فقال: يا عَمُّ، إن قومك يرون أن يجمعوا لك مالاً ليعطوكه، فإنك أتيت مُحَمَّداً لتتعرض لما قبله.

---

(١) السِّيْرَة النَّبَوِيَّة لابن كَثِيْر ج١ ص٥٠٥-٥٠٦ (وهي من كتابه البِدَايَة والنِّهَايَة). ورِوَايَة الزُّهْرِيّ نقلها ابن كَثِيْر عن البَيْهَقِيّ عن الحَاكِم بسنده إلىٰ الزُّهْرِيّ. وهٰذَا في سِيْرَة ابن هِشَام ج٢ ص٦٦ المطبوعة مع الرَّوْض الأُنُف، تَحْقِيْق: طه عبد الرَّؤُوْف سَعْد، وسُبُل الهُدَىٰ والرَّشَاد ج٢ ص٤٧٠.

قال: لقد علمتْ قُرَيْش أني من أكثرها مالاً.

قال: فقل فيه قولاً يبلغ قومك أنكَ مُنْكِر له، وأنكَ كاره له.

قال: وماذا أقول، فوالله ما فيكم رجل أعلم بالشعر مني، ولا بِرَجَزِه ولا بقصيده مني ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه الذي يقول شَيئاً من هٰذَا، ووالله إن لقوله لَحَلَاوة، وإن عليه لَطَلَاوة، وإنه لَمُنِيْر أعلاه، وإنه لَمُثْمِرٌ أسفله، وإنه ليعلو وما يُعْلَىٰ، وإنه ليَحْطِم ما تحته.

قال: لا يرضىٰ عنك قومك حتىٰ تقول فيه.

قال: فدعني حتىٰ أُفكر، فلما فكر، قال: هٰذَا سحر يُؤْثَر، يَأْثُره عن غيره، فنزلت: ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴾ - المُدَّثِّر ١١[1].

وللقصة روايات عديدة من طرق مُخْتَلِفَة[2]، جاء في بعضها عند القُرْطُبِيّ أن الوَلِيْد قال:... (وإنه لَيَعلو ولا يُعْلَىٰ عليه، وما يقول هٰذَا بَشَر)، حين جاءت قُرَيْش إلىٰ الوَلِيْد فقالت له: (فما هو؟ ففكَّر في نفسه، ثم نظر، ثم عَبَسَ، فقال: ما هو إلَّا ساحر، أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله وولده ومَوَالِيه؟ فقال رداً عليه: ﴿ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ ﴾ - المُدَّثِّر.

٣- عن عُتْبَةَ بن رَبِيْعَة أنه كلَّم النَّبِيّ ﷺ فيما جاء به من خلاف قومه، فتلا عليهم ﴿ حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ﴾ إلىٰ قوله في الآية ١٣ ﴿ فَإِنْ

(١) لُبَاب النُّقُوْل في أسباب النُّزُوْل للسُّيُوْطِيّ في أسباب نُزُوْل الآية ١١ من سورة المُدَّثِّر. والرِّوَايَة أَخْرَجَهَا الحَاكِم وصَحَّحَهَا عن ابن عَبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. وإسنادها صَحِيْح علىٰ شرط البُخَارِيّ.

(٢) انظر: السِّيْرَة النَّبَوِيَّة لابن كَثِيْر ج١ ص٤٩٨-٥٠١ وسِيْرَة ابن هِشَام ج٢ ص١١ وتَفْسِيْر القُرْطُبِيّ ج١٠ ص٦٨٦٥-٦٨٦٦ والشفا ج١ ص٢٦٢ وتَفْسِيْر ابن كَثِيْر ص١٣٧٩.

أَعْرَضُواْ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾ - فُصِّلَت، فأمسك عُتْبَة علىٰ فم النَّبِيّ ﷺ، وناشده الرَّحِمَ أن يكف عنه، ولم يخرج إلىٰ أهله، واحتبس عنهم[1].

وفي رِوَايَة. فجعل النَّبِيّ ﷺ يقرأ وعُتْبَةُ مُصْغٍ مُلْقٍ يديه خلف ظهره، معتمد عليهما، حتىٰ انتهىٰ إلىٰ السجدة، فسجد النَّبِيّ ﷺ، وقام عُتْبَة لا يدري بِمَ يراجعه، ورجع إلىٰ أهله، ولم يخرج إلىٰ قومه حتىٰ أتوه، فاعتذر لهم، وقال: والله لقد كلَّمني بكلام والله ما سمعت أُذناي بمثله قطّ، فما دريتُ ما أقول له[2].

وفي رِوَايَة:

ثم قام عُتْبَة إلىٰ أصحابه فقال بعضهم لبعض: نحلف بالله. لقد جاءكم أبو الوَلِيْد بغير الوجه الذي ذهب به. فلما جلسوا إليه قالوا: ما وراءك يا أبا الوَلِيْد؟

قال: ورائي أني والله قد سمعت قولاً ما سمعت مثله قطّ، والله ما هو بالشِّعر ولا الكَهَانة، يا معشر قُرَيْش أطيعوني واجعلوها بي، خَلُّوا بين هٰذَا الرجل وبين ما هو فيه، واعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت نبأ، فإن تصبه العَرَب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر علىٰ العَرَب فملكه ملككم، وعزه عزكم، وكنتم أَسْعَد الناس به.

قالوا: سحرك والله يا أبا الوَلِيْد بلِسَانه.

قال: هٰذَا رأيي لكم، فاصنعوا ما بدا لكم[3].

وعُتْبَة بن رَبِيْعَة بن عبد شمس بن عبد مَنَاف ممن قتل ببدر كافراً.

٤- رَوَىٰ ابن سِنْجَر بسَنَده إلىٰ شُرَيْح بن عُبَيْد قال:

قال عُمَر بن الخَطَّاب: خرجت أتعرَّض رَسُوْل الله ﷺ - قبل أن أُسلم - فوجدته

(١) السِّيْرَة النَّبَوِيَّة لابن كَثِيْر ج١ ص٥٠٢.

(٢) الشفا ج١ ص٢٧٤-٢٧٥.

(٣) السِّيْرَة النَّبَوِيَّة لابن كَثِيْر ج١ ص٥٠٤-٥٠٥.

قد سبقني إلىٰ المسجد، فقمت خلفه، فاستفتح سورة الحَاقَّة، فجعلت أتعجب من تأليف القُرْآن، قال: قلت: هٰذَا والله شاعر، كما قالت قُرَيْش، فقرأ: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾ - الحَاقَّة، قال: قلت: كاهن علم ما في نفسي، فقال ﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ -الحَاقَّة ٤٢ إلىٰ آخر السورة.

قال: فوقع الإسلام في قلبي كل موقع[1].

٥- إسلام عُمَر بن الخَطَّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وملخص رِوَايَة ابن إسْحَاق في السِّيْرَة هو: أن عُمَر بن الخَطَّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خرج متوشحاً سَيْفه يريد رَسُوْل الله ﷺ وأصحابه الذين اجتمعوا معه في بيت قرب الصَّفَا.

ولقيه في الطريق نُعَيْم بن عبد الله، فسأله عن وجهته، فأخبره بغرضه، فحذَّره بني عبد مَنَاف، ودعاه أن يرجع إلىٰ بعض أهله (خَتَنِه سَعِيْد بن زَيْد ابن عمه، وأُخْته فاطمة بنت الخطاب زوج سَعِيْد) فقد صبآ عن دينهما.

فذهب إليهما عُمَر فسمع خَبَّاب بن الأَرَتّ، يتلو عليهما القُرْآن، فاقتحم الباب وبطش بخَتَنِه سَعِيْد، وشج أُخْته فاطمة، ثم أخذ الصحيفة - بعد حوار دار بينهم - وفيها سورة طه، فلما قرأ صدراً منها، قال: ما أَحْسَن هٰذَا الكلام وأكرمه!

ثم ذهب إلىٰ النَّبِيّ ﷺ فأعلن إسلامه، فكبَّر عليه الصلاة والسَّلَام تكبيرة عرف أهل البيت من أصحابه أن عُمَر قد أسلم.

وفي رِوَايَة أُخرىٰ: أن عُمَر قال: (فلما سمعت القُرْآن رَقَّ له قلبي، فبكيت، ودخلني الإسلام)[2].

---

(١) الرَّوْض الأُنُف ج٢ ص٩٩-١٠٠.

(٢) سِيْرَة ابن هِشَام ج٢ ص٩٥-٩٧ والسِّيْرَة النَّبَوِيَّة لابن كَثِيْر ج٢ ص٣٢-٣٩ وبَيَان إعجاز القُرْآن للخَطَّابِيّ ص٧٠.

وهناك روايات أُخرىٰ، وكلها تجمع علىٰ أن عُمَر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قد أسلم حين سمع بعض آيات القُرْآن الكَرِيْم تتلىٰ من سورة طه.

٦- كان المُشْرِكُوْن يجتهدون في صد الرَّسُوْل ﷺ عن تلاوة القُرْآن في الكَعْبَة، وفي مجَامِعهم وأسواقهم، وكانوا يتواصون بعدم سَمَاعه، قال تعالىٰ فيهم: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ - فُصِّلَت ٢٦، لئلا يسمعها المُشْرِكُوْن، وعندها تعتريهم هيبة القُرْآن فيُسْلِمون.

٧- وكان أبو بَكْر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حين يقرأ القُرْآن لا يملك عينيه من البكاء، فكان يجتمع الأولاد والنساء، وهم يعجبون منه وينظرون إليه. فحمل ذٰلِكَ قُرَيْشاً علىٰ منعه من الصلاة في المسجد الحرام، ثم من داره[1].

٨- حين قرأ رَسُوْل الله ﷺ القُرْآن في الموسم علىٰ النفر الذين حضروه من الأَنْصَار آمنوا به وعادوا إلىٰ المَدِيْنَة فأظهروا الدِّيْن بها فلم يبقَ بيت من بيوت الأَنْصَار إلَّا وفيه قُرْآن.

وقد روي عن بعضهم أنه قال: فتحت الأمصار بالسيوف، وفتحت المَدِيْنَة بالقُرْآن[2].

٩- روي عن نَصْرَانِيّ أنه مر بقارئ - يتلو القُرْآن جهراً - فوقف يبكي، فقيل له: لِمَ بكيتَ؟ فقال: للشَّجَا والنَّظْم[3].

والمُرَاد بالشَّجَا هو الحزن الذي أصابه من استماعه، فَرَقَّ قلبه وخشع بدنه.

---

(١) **حَدِيْث أبي بَكْر حين يقرأ القُرْآن**، في: صَحِيْح البُخَارِيّ في: ٦٣ كتاب مَنَاقِب الأَنْصَار، ٤٥ باب هجرة النَّبِيّ ﷺ وأصحابه إلىٰ المَدِيْنَة، رقم ٣٩٠٥، عن عَائِشَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٢) بَيَان إعجاز القُرْآن ص٧١.

(٣) الشفا ج١ ص٢٧٤.

والمُرَاد بالنَّظْم هو رونق انتظامه وحُسْن انسجامه.

١٠- وذكر أبو عُبَيْد أن أعرابياً سمع رجلاً يقرأ ﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ - الحِجْر ٩٤، فسجد، وقال: سجدت لفصاحته[١].

١١- وسمع آخر رجلاً يقرأ ﴿ فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ﴾ - يُوْسُف ٨٠، فقال: أشهد أن مخلوقاً لا يقدر علىٰ مثل هٰذَا الكلام[٢].

١٢- وعن جُبَيْر بن مُطْعِم قال: سمعتُ النَّبِيّ ﷺ يقرأ في المَغْرِب بالطُّوْر، فلما بلغ هٰذِهِ الآية: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ - الطُّوْر، كاد قلبي أن يطير. وفي رِوَايَة: وذٰلِكَ أول ما وقر الإيمان في قلبي[٣].

وقال أبو عُبَيْد:

إن جُبَيْراً قال: (فكأنما صُدِعَ قلبي) حين سمع النَّبِيّ يقرأ في صلاته بأصحابه: ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ﴿٨﴾ ﴾ - الطُّوْر[٤].

١٣- حكي عن بعضهم. أنه كان إذا أخذ المصحف بيده يُغشىٰ عليه من هيبته[٥].

---

(١) الشفا ج١ ص٢٦٢ وسُبُل الهُدَىٰ والرَّشَاد ج٩ ص٥٧٨.

(٢) المصدران السَّابِقَان.

(٣) الشفا ج١ ص٢٧٤.

ورِوَايَة: كاد قلبي أن يطير، في: صَحِيْح البُخَارِيّ في: ٦٥ كتاب التَّفْسِيْر - سورة والطُّوْر، ١ باب، رقم ٤٨٥٤ عن جُبَيْر بن مُطْعِم.

والرِّوَايَة الأُخرىٰ: **وذٰلِكَ أول ما وقر**... إلخ، في: صَحِيْح البُخَارِيّ في: ٦٤ كتاب المَغَازِي، ١٢ باب، رقم ٤٠٢٣ عن جُبَيْر بن مُطْعِم.

(٤) الأموال لأبي عُبَيْد القَاسِم بن سَلَّام ص١٦٤.

(٥) معتَرَك الأَقْران في إعجاز القُرْآن للسُّيُوْطِيّ ج١ ص٢٤٤.

وأن بعض الصَّالِحِيْن: إذا تلي القُرْآن توَاجِدوا وصاحوا، وقد يتعدىٰ ذٰلِكَ إلىٰ الغَشْي وشَقّ الثياب، ومثله لا يُنكر. ومن لم يَذُقْ لا يعرف[1].

١٤- وقد مات جَمَاعَة عند سَمَاع آيات منه، أُفردوا بالتصنيف[2].

وأمثال هٰذَا كثير لا يتسع المجال للإطالة به.

هٰذَا التَّأْثِيْر العجيب في أهل الفصاحة والبَلَاغَة، وإن كنا لا نحس به الآن لغلبة العُجْمَة وفشو الجهل بلِسَان العَرَب فينا، ولٰكِنه حين نزل بُهروا به، وتذوقوا حلاوته، فجرَّهم إلىٰ الإيمان جَرّاً.

حتىٰ إنه ورد في صفة الصَّحَابَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ: أن الذي كان يمر ببيوتهم ليلاً يسمع منها مثل دَوِيّ النَّحْل من تلاوة القُرْآن.

وكان بعضُهم يقوم الليل كله، حتىٰ شكت منهم نساؤهم إلىٰ النَّبِيّ ﷺ.

وكان بعضُهم يقيم الليل بآيَة وَاحِدَة، يكررها ويتدبرها.

وكانوا يقرؤونه في كل حين مستَلْقِيْن وقائمين، قال سُبْحَانَهُ: ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ - آل عِمْرَان ١٩١.

وتقشعر جلودهم لتلاوته، قال سُبْحَانَهُ: ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَـٰبًا مُّتَشَـٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ - الزُّمَر ٢٣[3].

حكىٰ الأَصْمَعِيّ أنه سمع كلام جارية فقال لها: (قاتلكِ الله ما أفصحكِ؟ فقالت: أَوَ يُعَدُّ هٰذَا فصاحة بعد قول الله تعالىٰ: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ

(١) نسيم الرِّيَاض ج٢ ص٥٢٤.
(٢) البُرْهَان للزَّرْكَشِيّ ج٢ ص١٠٦ والإتْقَان للسُّيُوْطِيّ ص٧٢٠.
(٣) الوحي المُحَمَّدِيّ ص١٢٢.

﴿ فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ - القصص ٧، فجمع في آية وَاحِدَة بين أمرين ونهيين وخَبَرين وبشارتين)[1].

وتقصد بالأمرين: أرضعيه وألقيه. وبالنهيين: لا تخافي ولا تحزني. وبالخبرين: وأوحينا، فإذا خفت عليه. وبالبشارتين: رادّوه وجاعلوه[2].

الوجه الثالث: إخباره بوقائع غيبية، لا يعلمها إلَّا الله[3]، في الماضي أو الحاضر أو المستقبل

١ - فقد أخبر عن غيب الماضي:

وقصّ علينا قصص الأنبياء السَّابِقين مثل: آدم ونُوْح وهُوْد وصالح ويَعْقُوْب ويُوْسُف وإبْرَاهِيْم... وأُمَمهم.

فبعد أن قص قصة نُوْح، قال: ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۛ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ - هُوْد ٤٩.

وبعد أن قص قصة ولادة سَيِّدتنا مريم عَلَيْهَا السَّلَامُ وكفالة زَكَرِيَّا لها، قال: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ - آل عِمْرَان ٤٤.

وفَصَّل قصة يُوْسُف، ثم قال: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴾ - يُوْسُف ١٠٢. وغير ذٰلِكَ من القَصص.

---

(١) الشفا ج١ ص٢٦٣.

(٢) نسيم الرِّيَاض ج٢ ص٤٩٠.

(٣) الشفا السَّابِق، والإنْصَاف للبَاقِلاَّنِيّ ص٦٣ وتَمْهِيْد الأوائل ص١٨٥ والمَوَاقِف ج٨ ص٢٤٥ والمَقَاصِد ج٥ ص٣٦ وسُبُل الهُدَىٰ والرَّشَاد ج٩ ص٥٨٨ وإثبات نُبُوَّة النَّبِيّ ص١٢٣ والفَائِق في أُصُوْل الدِّيْن ص٣٣٥ وعلم أُصُوْل الفِقْه لعَبْد الوَهَّاب خَلَّاف ص٣٠.

وهٰذِهِ القَصص حقيقية وردت أكثر أخبارها في التوراة والزَّبُور والإنجيل، حتىٰ جادل الرَّسُوْل ﷺ اليَهُوْد فيها، وصدقوه كما في قصة يُوْسُف وبني إسرائيل، حتىٰ إنهم بهروا بما جاء به، لأنهم يعلمون أنه أُمِّيّ لا صِلَة له بكتبهم، وبما عندهم من أخبار.

كما أكدت صحة أخبار القُرْآن كتب التاريخ القديمة، والحفريات الحَدِيْثَة التي تنبئ عن وجود تلك الأقوام وملوكها، وبعض أخبارهم المنقوشة في آثارهم العِمْرَانِيّة المطمورة.

٢- وأخبر عن غيب الحاضر:

أ- فتحدث عن الملائكة والجن، وعن الجنة والنار، وما يتصل بالله تعالىٰ من صفات.

ب- كما أوضح حقيقة مسجد الضِّرَار، الذي بناه المنافقون، وأرادوا به تفريق المُؤْمِنين والإيقاع بينهم، فأنزل الله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ - التوبة ١٠٧.

ج- وفضح ما عليه المنافقون مما خفي عليه ﷺ فقال تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾﴾ - البقرة.

٣- وأخبر عن غيب المستقبل:

أ- فقد أخبر عن غَلَبَة الرُّوْم. رَوَىٰ التِّرْمِذِيّ عن نِيَار بن مُكْرَم الأَسْلَمِيّ قال: لما نزلت ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِى بِضْعِ سِنِينَ ۗ﴾ - الرُّوْم ١-٤، فكانت فَارِس يومَ نزلت هٰذِهِ الآية قَاهِرِيْن للرُّوْم، وكان المُسْلِمُوْن يحبون ظهور الرُّوْم عليهم، لأنهم وإياهم أهل كتاب، وذٰلِكَ قول الله تعالىٰ: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ

ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ ﴾ - الرُّوْم، وكانت قُرَيْش تحب ظهور فَارِس، لأنهم وإياهم ليسوا بأهل كتاب، ولا إيمان ببعث، فلما أنزل الله تعالىٰ هٰذِهِ الآية، خرج أبو بَكْر الصِّدِّيْق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يصيح في نواحي مَكَّة: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ ﴾ - الرُّوْم ١-٤.

قال ناس من قُرَيْش لأبي بَكْر: فذٰلِكَ بيننا وبينكم، زعم صاحبُك أن الرُّوْم ستَغْلِبُ فَارِسَ في بضع سنين، أفلا نراهنك علىٰ ذٰلِكَ؟ قال: بلىٰ. وذٰلِكَ قبل تحريم الرِّهَان. فارتهن أبو بَكْر والمُشْرِكُوْن، وتَوَاضَعُوا الرِّهَان، وقالوا لأبي بَكْر: كم تجعل؟ البِضْع ثلاثُ سنين إلىٰ تسع سنين، فسَمّ بيننا وبينك وَسَطاً تنتهي إليه. قال: فسَمَّوْا بينَهم ستَّ سنين. قال: فمضت الستُّ سنينَ قبل أن يظهروا، فأخذ المُشْرِكُوْن رَهْنَ أبي بَكْر. فلما دخلت السنةُ السابعة ظهرت الرُّوْم علىٰ فَارِس، فعاب المُسْلِمُوْن علىٰ أبي بَكْر تسميةَ ستِّ سنين، لأن الله تعالىٰ قال: في بِضْع سنين، وأسلم عند ذٰلِكَ ناس كثير)[1]. وفي تَفْسِيْر القُرْطُبِيّ[2] روايات مُفَصَّلة أُخرىٰ.

ب- وقال تعالىٰ مخاطباً النَّبِيّ ﷺ أنه سيدخل مَكَّة، وهو لم يملك بَعْدُ قوةَ دخولها: ﴿لَّقَدۡ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءۡيَا بِٱلۡحَقِّۖ لَتَدۡخُلُنَّ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمۡ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَۖ ﴾ - الفَتْح ٢٧.

رأىٰ رَسُوْل الله ﷺ في المنام قبل خروجه إلىٰ الحُدَيْبِيَّة: أنه هو وأصحابه دخلوا مَكَّة آمنين، وقد حلقوا وقَصَّروا، فقص رؤياه علىٰ أصحابه، فاستبشروا، وحسبوا أنهم داخلوها في عامهم، وقالوا: إنَّ رؤيا رَسُوْل الله ﷺ حق. فلما تأخر ذٰلِكَ، اعترض بعض المنافقين كَعْبد الله بن أُبَيّ وعبد الله بن نُفَيْل ورِفَاعَة بن الحرث: والله ما حلقنا،

---

(١) سُنَن التِّرْمِذِيّ في: ٤٣ كتاب تَفْسِيْر القُرْآن، ٣٠ باب ومن سورة الرُّوْم، رقم ٣١٩٤، ص٥٠٨، قال التِّرْمِذِيّ: هٰذَا حَدِيْث صَحِيْح حَسَن غَرِيْب. وهو بشَرْح عَارِضَة الأَحْوَذِيّ ج١٢ ص٧٠-٧٢.

(٢) تَفْسِيْر القُرْطُبِيّ ج٧ ص٥٠٨٤.

ولا قصَّرنا، ولا رأينا المسجد الحرام، فأنزل الله تعالىٰ: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ﴾ - الفَتْح ٢٧، فأعلمهم أنهم سيدخلون مَكَّة في غير هٰذَا العام، وأن رؤياه حق[١].

ج- كما أخبر القُرْآن الكَرِيْم بأن الله عَاصِم نبيه فلا يمكن اغتياله، مهما دبروا له من مكائد، وحرصوا علىٰ التخلص منه وقتله. قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ - المائدة ٦٧.

عن عَائِشَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: كان النَّبِيّ ﷺ يُحرَس، حتىٰ نزلت هٰذِهِ الآية: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ - المائدة ٦٧، فأخرج رَسُوْلُ الله ﷺ رَأْسَهُ من القُبَّة، فقال لهم: (يا أيها الناس انصرفوا فقد عصمني الله)[٢]. وللحَدِيْث رِوَايَة أُخرىٰ عن عبد الله بن شَقِيْق.

والنَّبِيّ في معركة أُحُد أقرب المُسْلِمِيْن إلىٰ العدو، حتىٰ قال الإمَام عَلِيّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (كنا إذا حَمِيَ الوَطِيْس، احتمينا برَسُوْل الله فما يكون أحد أقرب إلىٰ العدو منه).

وفي غزوة حُنَيْن، حين رمت هَوَازِنُ المُسْلِمِيْن (فأقبلوا هنالك إلىٰ النَّبِيّ ﷺ، وهو علىٰ بَغْلَته البيضاء، وابن عمه أبو سُفْيَان بن الحَارِث بن عَبْد المُطَّلِب يقود به، فنزل واستنصر، ثم قال: أنا النَّبِيّ لا كذب، أنا ابن عَبْد المُطَّلِب، ثم صفَّ أصحابه)[٣].

---

(١) روح المعاني ج٢٦ ص١٢٠. وانظر: تَفْسِيْر القُرْطُبِيّ عن قَتَادَة ج٩ ص٦١٠٩-٦١١٠.

(٢) **حَدِيْث: عَائِشَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: كان النَّبِيّ ﷺ يُحرَس**... إلخ، في: سُنَن التِّرْمِذِيّ في: ٤٣ كتاب تَفْسِيْر القُرْآن، ٥ باب ومن سورة المائدة، رقم ٣٠٤٦، ص٤٨٥. وهو بشَرْح عَارِضَة الأَحْوَذِيّ ج١١ ص١٧٤. وانظر من هٰذِهِ الأمثلة عن عصمة الله له في: الشفا ج١ ص٣٤٦ وما بعدها، وتَفْسِيْر ابن كَثِيْر ص٤٢٥.

(٣) **حَدِيْث: فأقبلوا هنالك إلىٰ النَّبِيّ ﷺ**... إلخ، في: صَحِيْح البُخَارِيّ في: ٥٦ كتاب الجِهَاد، ٩٧ باب من صفَّ أصحابه عند الهزيمة، رقم ٢٩٣٠، بهٰذَا اللفظ، عن البَرَاء بن عَازِب. وانظر الحَدِيْث فيه أيضاً رقم ٢٨٦٤ و٢٨٧٤ و٣٠٤٢ و٤٣١٥ و٤٣١٦ و٤٣١٧ وكلها عن البَرَاء بن

فتحققت نبوءة القُرْآن الكَرِيْم، فلم يَتَمَكَّن أحد من الأعداء أن يصل إليه، مع وفرتهم وكثرة عُدَّتهم وتربصهم به كل حين، مع إقدامه في القتال، وشجاعته النادرة، وتعرضه للمُشْرِكِيْن بالحَرْب، وتسفيه آلهتهم، مع أن كَثيراً من الرؤساء والملوك إذا تربص لهم عدوهم، نالوا منه، فيسقط مضرجاً بدمائه.

د- نزل قوله تعالىٰ: ﴿ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴾ - القمر ٤٥، بمَكَّة، والجِهَاد لم يشرع إلَّا في السنة الثانية للهجرة، تنبؤاً بهزيمة المُشْرِكِيْن وانتصار المُسْلِمِيْن، حتىٰ إن عُمَر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ - فيما رَوَىٰ ابن أبي حَاتِم وابن مَرْدَوَيْهِ - جعل يقول حين نزلت هٰذِهِ الآية: أَيُّ جمع هٰذَا؟ فلما كان يوم بَدْر رأيت رَسُوْل الله ﷺ يقولها.

هٰذِهِ الغيبيات التي ذكرها القُرْآن الكَرِيْم وغيرها كثير، وردت أنباؤها بشكل قاطع لا تردد فيه، وقد حدثتنا الأيام والوقائع عن صدقها تَماماً، فهل جاء بها هٰذَا الرجل من عند نفسه؟ مع القطع بأنه ﷺ كان أُمِّيّاً لا يكتب ولا يقرأ، ولم يُعهَد منه ﷺ في جميع أزمانه تَعاطٍ لدراسة كتبٍ ولا تعلمها، وقد نفىٰ عنه سُبْحَانَهُ وتَعَالَىٰ ذٰلِكَ بقوله: ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ - العنكبوت ٤٨ [1].

إنه لا بد أن يكون قد استقاها من مصدر وثيق لا يقبل الخطأ، هو الوَحْي من الله تعالىٰ خَالِق كل شيء، ولا يمكن لعاقل أن يحكم بأنها من عبقرية هٰذَا الرجل، لأن المتنبئ يتخذ من تَجَارِبه الماضية مِصْبَاحاً يكشف بضوئه بعض خطوات من مجرىٰ الحوادث المقبلة، ثم يصدر حكمه بكل تَحفّظ وحَذَر، ولا يمكنه أن يبتّ بما يقول، لأنه عندئذٍ يكون أحد رجلين:

عَازِب.

وهو في صَحِيْح مُسْلِم في: ٣٢ كتاب الجِهَاد، ٢٨ باب غَزوة حُنَيْن، رقم ١٧٧٦، عن البَرَاء.

(١) الإنْصَاف للبَاقِلاَّنِيّ ص٦٢. وانظر: كتابنا: أُمِّيَّة الرَّسُوْل مُحَمَّد ﷺ.

إما رجل مجازف لا يبالي بما يقول صدقاً أو كذباً، وهو شأن العَرَّافين والمُنَجِّمِيْن.

وإما رجل اتخذ عند الله عهداً، فلن يخلف الله عهده، وهي سُنَّة الأنبياء والمُرْسَلين.

والنبوءات التي وردت في القُرْآن تَدُلُّ دلالة قاطعة علىٰ أنها من عند الله تعالىٰ علىٰ لِسَان رَسُوْله الكَرِيْم، ولا يمكن أن تكون من قبيل المجازفة الوَارِدَة علىٰ ألسنة العَرَّافين.

الوجه الرابع: حَقَائِقه العِلْمِيَّة التي جاء العلم الحَدِيْث يؤكدها[1]

شَدَّ القُرْآن العَظِيْم أنظار الناس إلىٰ الكون ونواميسه، وإلىٰ ما فيه من مخلوقات، تأكيداً علىٰ أنه من الله تعالىٰ، فما علىٰ المرء إلَّا الامتثال له.

ومن تلك الشَّذَرَات العِلْمِيَّة التي ذكرها وأكدها العلم الحَدِيْث بحَقَائِقه الثَّابِتَة ما يأتي:

١- كان عُلَمَاء الفلك منذ قرون طَوِيْلَة قبل المِيْلَاد إلىٰ ظهور المراصد الفلكية قد انقسموا إلىٰ فريقين:

أحدهما: يرىٰ أن الأرض ثَابِتَة، وهي مركز العالم، والسيارات تدور حولها.

وثانيهما: يرىٰ أن الشمس ثَابِتَة والأرض والسيارات تدور حولها.

لٰكِن القُرْآن الكَرِيْم أَكَّدَ أن الأجرام السماوية متحركة سابحة في أفلاكها، قال تعالىٰ: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾ - يس.

---

(١) علم أُصُوْل الفِقْه لعَبْد الوَهَّاب خَلَّاف ص٢٩.

وجاءت المراصد الحَدِيْثَة تؤكد ما جاء به القُرْآن العَظِيْم، وهي أن كل جِرْم سابح في الفضاء غير ثَابِت.

٢- قوله تعالىٰ: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ - الذاريات ٤٧، يَدُلّ علىٰ أن الكون في توسع مستمر. يقول السير جيمس جينز: (مقدار هٰذَا التمدد بنحو مائة وخمسة أميال في الثانية، لكل بُعْدٍ قَدْرُه مليون سنة ضوئية، وإن حجم الفضاء العالمي الآن يبلغ نحو عشرة أمثال حجمه منذ بَدْء تمدده، أي أن كل بُعْد من أبعاده الثلاثة قد زاد قليلاً علىٰ ضعف قدره الأصلي)[1].

ومَسْأَلَة اتساعه أصبحت من مسلمات العُلُوْم الآن، وهي التي هالت أنشتاين، واكتشف (هابل) عالم الطبيعة أن الكواكب السَّدِيمية تبتعد عن سَدِيمنا، واستنبط عالم الرِّيَاضة البلجيكي (لومتر) من ذٰلِكَ نَظَرِيَّة امتداد الكون.

٣- قوله تعالىٰ: ﴿ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴾ - النبأ ٧، الآية تبين هٰذِهِ الحقيقة، وتصرح بها أدق النَّظَرِيَّات الجيولوجية التي تقول: بأن للجبال جذوراً وتدية في الأرض يَعْدِل امتدادُها ضعفَي ارتفاع الجبل عن الأرض.

٤- قوله تعالىٰ: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ﴾ - الأنبياء ٣٠، الآية مُصَرّحَة بأن السماوات والأرض كانتا كتلة وَاحِدَة، فجزئت إلىٰ هٰذِهِ الأجزاء. والنَّظَرِيَّات الحَدِيْثَة تذكر أن الأجرام السماوية كانت في الأصل سَدِيماً وَاحِداً.

٥- قوله تعالىٰ: ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ - الأنعام ١٢٥، الآية مُصَرّحَة بأن الذي يرتفع في السماء، يشعر بضيق الصدر وصعوبة التنفس، ومنذ اكتشاف الطَّبَقَات الجوية العالية بفضل الطيارات والصواريخ... رأىٰ العُلَمَاء أن الأُوكسجين ينقص في

(١) التَّفْسِيْر العِلْمِيّ للآيات الكونية ص٦٩.

تلك الطَّبَقَات، ويؤدي إلىٰ الضيق، ولذٰلِكَ يستعمل الطيارون حين يرتفعون في السماء أجهزة التنفس الصِّنَاعِيَّة تفادياً لذٰلِكَ الضيق.

٦- قوله تعالىٰ: ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴾ - النَّحْل ٦٦، يَدُلّ علىٰ أن اللَّبَن الخالص السائغ للشاربين يخرج من بين الفَرْث (وهو الفضلات) والدم. وهٰذِهِ الحقيقة يوضحها العلم الحَدِيْث حين يقرر أن الحليب قبل أن يصبح في الثدي يمر بعمليّتي تصفية: أُولاهما: تصفيته من الفضلات، وذٰلِكَ بعد الهضم، ونُزُوْل السَّائِل الحليبي إلىٰ الأمعاء، إذ تقوم الزغيبات المعوية بامتصاص المواد الغذائية طارحة إياها في الدم ومبقية الفضلات في الأمعاء، حيث تطرح خارج الجسم، أما المواد الممتصة التي طرحت في الدم فإن قسماً منها يغذي جسم الكائن الحي، وقسماً آخر تصفيه الغدد اللَّبَنية من الدم وترسله إلىٰ الضرع حليباً خالصاً[1].

هٰذِهِ الحَقَائِق العِلْمِيَّة وغيرها كثير مما جاء بها النَّبِيّ ﷺ، وهو أُمِّيّ، نشأ في بيئة أُمِّيَّة منعزلة عن أُمَم العالم، هي مَعَالِم وضيئة للفكر العِلْمِيّ الحر، ولم يكن الناس في مُخْتَلف أنحاء العالم علىٰ علم بها، إلىٰ أن ظهرت أدوات العلم الحَدِيْثَة من أجهزة ومختبرات ومراصد فلكية... فإذا بها تقرر حَقَائِق القُرْآن الكَرِيْم ناصعة لا لَبْسَ فيها ولا غموض يوماً بعد آخر.

ولم يكن القُرْآن الكَرِيْم معجزاً لما فيه من الشَّذَرَات العِلْمِيَّة التي ذكرنا أمثلة منها فحسب، بل يتجلىٰ إعجازه في أنه لم يُعارِض ما استقر عليه العلم، ولم يُنكِر ما فيه من حَقَائِق عِلْمِيَّة.

---

(١) الرَّسُوْل: سَعِيْد حوىٰ ج٢ ص٣٨ وما بعدها وفيه أمثلة أُخرىٰ. وانظر حَقَائِق أُخرىٰ في: التَّفْسِيْر العِلْمِيّ للآيات الكونية.

شُبْهة ورَدّ

إذا قيل: إن النَّظَرِيَّات العِلْمِيَّة قد تتغير، فنحن لا نُخضع القُرْآن الكَرِيْم لأمثال هٰذِهِ التَّفْسِيْرات، لأن البَحْث قد يكشف خطأ نَظَرِيَّة قديمة.

فالجواب: أن تَفْسِيْرات آيات القُرْآن الكَرِيْم بما يكشفه العلم علىٰ وفق قَوَاعِد التَّفْسِيْر وضوابطه من اللُّغَة وغيرها ما هو إلَّا فهم لتلك الآيات، فإذا تبين خطأ النَّظَرِيَّة تبين خطأ ذٰلِكَ التَّفْسِيْر، أما إذا كانت الآية لا تحتمل التَّفْسِيْر الجديد، فلا تفسر عندئذٍ وفق النَّظَرِيَّة الجديدة، بل تنتظر أن يجدّ البَحْث فيها، حتىٰ يظهر خطأ تلك النَّظَرِيَّة[1].

الوجه الخامس: معانيه وأَحْكَامه وانعدام الاختلاف فيه[2]

مجموع ما في القُرْآن الكَرِيْم حوالي ستة آلاف ومائتا آية، اشتملت علىٰ موضوعات في شَتَّىٰ الميادين، للإيفاء بحاجات البشر وإِصْلَاحهم.

ومحتوياته نوعان: أَحْكَام وغيرها.

النوع الأول: أَحْكَام القُرْآن، وهي ثلاثة أقسام:

١- أَحْكَام اعْتِقَادِيَّة: في وجوب اعْتِقَاد المُكلَّف بالله وملائكته وكتبه ورسله واليَوم الآخِر.

٢- أَحْكَام خُلُقِيَّة: في وجوب التحلي بالفَضَائِل والتخلي عن الرذائل.

٣- أَحْكَام عَمَلِيَّة: وهي تنتظم نوعين:

أ- أَحْكَام العِبَادات، لتنظيم علاقة الإنسان بربه، من صلاة وزكاة وحج وصوم...،

---

(١) علم أُصُوْل الفِقْه لعَبْد الوَهَّاب خَلاَّف ص٣٠ ومحاضرات في أُصُوْل الفِقْه لبَدْر المُتَوَلِّي عبد البَاسِط ج١ ص١٣٢.

(٢) علم أُصُوْل الفِقْه لعَبْد الوَهَّاب خَلاَّف ص٢٧.

وآياتها نحو ١٤٠ آية.

ب- أَحْكَام المعاملات وتتنوع إلىٰ الأنواع الآتية:

- أَحْكَام الأحوال الشخصية المتعلقة بالأُسرة، من زواج وطلاق، وآياتها نحو ٧٠ آية.

- الأَحْكَام المَدَنِيَّة المتعلقة بالبيع والإجارة والرهن والكفالة والشركة... إلخ، وآياتها نحو ٧٠ آية.

- والأَحْكَام الجنائية المتعلقة بالعقوبات والحدود، لحفظ حياة الناس وأموالهم وأعراضهم وحقوقهم، وآياتها نحو ٣٠ آية.

- أَحْكَام المُرَافَعَات المتعلقة بالقَضَاء والشهادة واليمين، لتَحْقِيْق العَدْل، وآياتها نحو ١٣ آية.

- الأَحْكَام الدستورية المتعلقة بنِظَام الحكم وأُصُوْله، وآياتها نحو ١٠ آيات.

- الأَحْكَام الدولية المتعلقة بمُعَامَلَة الدولة الإسلامِيَّة لغيرها ومُعَامَلَة غير المُسْلِمِيْن في الدولة الإسلامِيَّة، وآياتها نحو ٢٥ آية.

- الأَحْكَام الاقْتِصَادِيَّة والمالية المتعلقة بحق السَّائِل والمحروم في مال الغَنِيّ وتنظيم الموارد والمصارف، وآياتها نحو ١٠ آيات[1].

النوع الثاني: غير الأَحْكَام، وهي ثلاثة أقسام:

١- الإرْشَاد إلىٰ النَّظَر والتدبر في ملكوت السماوات والأرض لمَعْرِفَة أسرار الخلق، فتمتلئ القلوب إيماناً بجَلَال الله وعظمته عن طريق النَّظَر والاستدلال، وهو

(١) علم أُصُوْل الفِقْه لعَبْد الوَهَّاب خَلاَّف ص٣٢-٣٣ والوَجِيْز في أُصُوْل الفِقْه للدكتور عبد الكَرِيْم زَيْدَان ص١٣٠ نَقْلاً عن خَلاَّف، والإسلام عَقِيْدَة وشريعة لمَحْمُوْد شَلْتُوت ص٥٠٠و٥٠٢.

طريق جَلِيْل يفتح الآفاق للعُلَمَاء وغيرهم لإدراك الله وقدرته، وقد انتفع به غير المُسْلِمِيْن كَثيراً حينما خاضوا غِمَار الكون، وعرفوا أسراره فاستخدموها في نواحي الحياة.

٢- قصص الأولين أفراداً وأُمماً، وقد أوردها القُرْآن الكَرِيْم للاعتبار والاتعاظ، حتىٰ يَصْلُح الناس فينفوا عنهم الخبث والفساد.

٣- الإنذار والتخويف أو الوعد والوعيد، وللقُرْآن في ذٰلِكَ طريقان:

أحدهما: الوعد والوعيد في الدنيا، فيعد المُؤْمِنين بالاستخلاف في الأرض والتمكين لهم والعز، قال سُبْحَانَهُ: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ - النُّوْر ٥٥.

ويعد الكافرين بتقلص السُّلْطَان والجوع، والخوف، قال تعالىٰ: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴾ - النَّحْل ١١٢.

ثانيهما: التَّرْغِيْب والتَّرْهِيْب بنَعِيْم الآخِرَة وعذابها.

قال سُبْحَانَهُ: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾ ﴾ - النساء[1].

وقد استغرق نُزُوْل القُرْآن الكَرِيْم ثلاثاً وعشرين سنة، فلم يحدث فيه اختلاف:

أ- في بَلَاغَة عباراته: فلا نجد فيه عبارة بليغة وأُخرىٰ غير بليغة، لأن كل عبارة

(١) الإسلام عَقِيْدَة وشريعة لمَحْمُوْد شَلْتُوت ص٥٠٠و٥٠١. وانظر: تَبْصِرَة الأَدِلَّة ج١ ص٥٢٢.

مطابقة لمُقْتَضَىٰ الحال الذي وردت من أجله، كما أن كل لفظ فيه هو في موضعه الذي ينبغي أن يكون فيه.

فآيات الأَحْكَام كآيات الميراث تخلو من أُسْلُوْب الخطابة والتَّأْثِيْر، بخلاف الآيات المستهزئة بالشرك والأوثان، أو الدالة علىٰ قدرة الله تعالىٰ، أو المُخَوِّفَة من شدائد اليَوم الآخِر، فإنها جاءت ذات طابع مؤثر محرك للوجدان، لأن لكل مقام مقالاً.

ب- ولا في أَحْكَامه وحُجَجه: فليس فيه معنى يعارض معنى، ولا حكم يناقض آخر، وما جاء في القُرْآن مما ظَاهِره التعارض، فهو بعد البَحْث مُتَّفِق مُتَّسِقٌ لا اختلاف فيه، كما هو واضح في كلام المُفَسِّرِيْن، لذٰلِكَ قال تعالىٰ: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ - النساء ٨٢[1].

الوجه السادس: القُرْآن الكَرِيْم خالد خلود الدهر

فلا يعدم ما بقيت الدنيا، ولا يطرأ عليه تغيير بزِيَادَة أو نقصان، لأن الله تعالىٰ قد تكفّل بحفظه، قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ - الحِجْر ٩[2]، ولا

---

(١) علم أُصُوْل الفِقْه لعَبْد الوَهَّاب خَلاَّف ص٢٨ ومحاضرات في أُصُوْل الفِقْه لبَدْر المُتَوَلِّي عبد البَاسِط ج١ ص١٣٢.

في المَوَاقِف وشرحه للسَّيِّد الشَّرِيْف ج٨ ص٢٤٥: (وقيل: وجه إعجازه عدم اختلافه وتناقضه، مع ما فيه من الطول والامتداد، وتمسكوا بقوله تعالىٰ: ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ - النساء ٨٢.

(٢) الشفا للقَاضِي عِيَاض ج١ ص٢٧٥ والإتْقَان ص٧٢٠ نَقْلًا عن القَاضِي عِيَاض. وسُبُل الهُدَىٰ والرَّشَاد ج٩ ص٥٨٩.

وذهب البعضُ إلىٰ أن القُرْآن **معجز بالصَّرْفَة**، وهي أن الله صرف همم المُتَحَدِّيْن عن معارضته مع قدرتهم عليها. واختلفوا في كيفية الصَّرْف:

يخفىٰ ما في هٰذِهِ الآية الكَرِيْمَة من المؤكدات اللُّغَوِيَّة، الدالة علىٰ أن الله تعالىٰ حفظه من التحريف والتبديل.

وقال سُبْحَانَهُ: ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ﴾ - فُصِّلَت ٤٢.

وبعد عرض وجوه إعجاز القُرْآن الكَرِيْم:

هل يفكر عاقل فيقول: إن مُحَمَّداً ﷺ جاء بهٰذَا القُرْآن من فكره، أو عبقريته، أو باعتماده علىٰ بَحِيْرا ووَرَقَة وغيرهما...؟

فلو أنصف العاقل ما قرر إلَّا الحقيقة الكبرىٰ وهي: أن القُرْآن الكَرِيْم مُعجِز، وهو من لدن عَزِيْز حَكِيْم.

أ- صرفهم اللهُ عنها مع قدرتهم عليها، وذٰلِكَ بأن صرف دواعيهم إليها مع كونهم مجبولين عليها، خصوصاً عند توفر الأسباب الداعية في حقهم، كالتقريع بالعجز والاستنزال عن الرياسات والتكليف بالانقياد. فهٰذَا الصرف خارقٌ للعادة، فيكون معجِزاً. وهٰذَا قول الأُستاذ أبي إسْحَاق الإسْفَرَايِيْنِيّ من الأَشَاعِرَة، والنَّظَّام من المُعْتَزِلَة.

ب- صرفهم اللهُ بأن سَلَبَهم العُلُوْم التي يُحتاج إليها في المُعَارَضَة. أي: أن المُعَارَضَة والإتيان بمثل القُرْآن يحتاج إلىٰ عُلُوْم يُقتَدرُ بها عليها، وكانت تلك العُلُوْم حاصِلَة لهم، لٰكِنه تعالىٰ سلبها عنهم، فلم يُبقِ لهم قدرةً عليها. وهو قول المُرْتَضَىٰ من الشِّيْعَة. / المَوَاقِف وشرحه للسَّيِّد الشَّرِيْف ج٨ ص٢٤٦.

ورَدَّ جُمْهُوْر العُلَمَاء علىٰ القول بالصِّرْفَة بحُجَّة:

أن الإعجاز لو قصد بالصِّرْفَة لكان الأَنسب ترك الاعتناء ببلاغته وعُلُوّ طبقته، ليكون عدم معارضته أبلغ في خرق العادة... .

انظر الكلام عن أَدِلَّة الإعجاز بالصِّرْفَة ورَدِّها في: شَرْح المَقَاصِد للتَّفْتَازَانِيّ ج٥ ص٣١ والمَوَاقِف وشرحه للسَّيِّد الشَّرِيْف ج٨ ص٢٤٩ والإتْقَان ص٧١٢ وسُبُل الهُدَىٰ والرَّشَاد ج٩ ص٥٨٢.

الشواهد الأُخرى على نُبُوَّة الرَّسُوْل الأعظم مُحَمَّد ﷺ

بعد الانتهاء من بَيَان رُكْنَي نُبُوَّة مُحَمَّد ﷺ، وهما: ادِّعَاؤه النُّبُوَّة، وإظهاره المُعْجِزَة، وهما كافيان في إثباتها له، نعزز هٰذَيْنِ الأَسَاسَيْن بوجوه مُكَمِّلَة ومقررة تشهد علىٰ نُبُوَّته ﷺ، وهي:

الشَّاهد الأول: ما اجتمع فيه ﷺ من الشَّمَائِل والأوصاف سواء كان ذٰلِكَ قبل النُّبُوَّة أو حالها أو بعدها، وهٰذَا المسلك ارتضاه الجَاحِظ من المُعْتَزِلَة والغَزَالِيّ من الأَشَاعِرَة[1]، وهٰذِهِ هي:

أ- أوصافه الشَّرِيْفَة، ومَحَاسِنه الرفيعة، وأخلاقه الحَمِيْدَة مثل:

الصدق والأمانة: فلم يكذب، ولم يغش، ولم يخن، حتىٰ سُمِّيَ بالصَّادِق الأمين، فكانوا يأتمنونه علىٰ أموالهم، حتىٰ قال النَّضْر بن الحَارِث لقُرَيْش: (قد كان مُحَمَّد فيكم غلاماً حَدَثاً، أرضاكم فيكم، وأصدقكم حَدِيْثاً، وأعظمكم أمانة، حتىٰ إذا رأيتم في صُدْغَيْه الشيب، وجاءكم بما جاءكم، قلتم إنه ساحر، لا والله ما هو بساحر)[2].

والشَّفَقة علىٰ أُمَّته، حتىٰ خاطبه الله تعالىٰ بقوله: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ - فاطر ٨، وقوله تعالىٰ: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ﴾ - الكهف ٦، فلم يُؤذِ أَحَداً بيده أو بلِسَانه، ولم يقتل أَحَداً بيده الشَّرِيْفَة، مع شجاعته العَظِيْمَة كما تقدَّم، إلَّا أُبَيّ بن خَلَف. فكان يتألم لما يراه من قومه من نهب وسلب وقتل، وكان يسعىٰ

---

(١) المَوَاقِف وشرحه للسَّيِّد الشَّرِيْف ج٨ ص٢٥٩ والمُحَصِّل للرَّازِيّ ص٢٠٨ وفيها: أن الغَزَالِيّ ذكره في كتابه المنقذ من الضلال. وانظر: المَقَاصِد وشرحه للتَّفْتَازَانِيّ ج٥ ص٣٧و٣٩ وتَبْصِرَة الأَدِلَّة ج١ ص٤٨٨.

(٢) انظر **قول النَّضْر** في: تَهْذِيْب سِيْرَة ابن هِشَام ج١ ص٦٩ والشفا ج١ ص١٣٥ وإظهار الحق ج٢ ص٢٥٧.

للإصْلَاح بين المتخاصمين. وكان رَحِيْماً رَؤُوْفاً، يشاطر المصابين آلامهم وينصر اليتامىٰ، ويطعم الجياع.

وحين طمأنته خَدِيْجَة بعد رعبه من نُزُوْل جِبْرِيْل عَلَيْهِ السَّلَامُ، قالت له: (والله ما يُخْزِيك اللهُ أَبداً، إنكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وتَحْمِلُ الكَلَّ، وتَكسِبُ المَعْدُوْمَ، وتَقْرِي الضيفَ، وتُعِينُ علىٰ نوائب الحق)[1].

والسخاء: فكان مضيافاً كَرِيْماً لأبناء السَّبِيْل والفُقَرَاء، حتىٰ عوتبَ بقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ - الإسراء ٢٩.

والصبر علىٰ البلاء خاصةً بعد النُّبُوَّة.

والزهد، حتىٰ أن قُرَيْشاً عرضوا عليه المال والرياسة حتىٰ يترك دعواه فلم يلتفت إليهم.

والتواضع مع الفُقَرَاء والمساكين.

والشَّجَاعَة الفريدة، والنجدة، والعَفو مع المقدرة.

والحلم، والوفاء، والعَدْل.

والوقار، والحياء، حتىٰ إنه لم يُبدِ جسدَه عارياً لغيره، مع اعتياد الناس في جاهليتهم ذٰلِكَ.

وكان ﷺ حلو الكلام، لَيِّن العَرِيْكَة، طَلْق الوجه، يحبه كل من لقيه أو جالسه. مع النظافة والهِنْدام الجميل.

---

(١) **حَدِيْث: والله ما يخزيك**... إلخ، في: صَحِيْح البُخَارِيّ في: ١ باب كيف كان بَدْء الوَحْي إلىٰ رَسُوْل الله ﷺ، ٣ باب، رقم ٣، بهٰذَا اللفظ، عن عَائِشَة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.

وفي صَحِيْح مُسْلِم في: ١ كتاب الإيمان، ٧١ باب بَدْء الوَحْي إلىٰ رَسُوْل الله ﷺ، رقم ١٦٠، عن عَائِشَة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.

ولم يُقْدِم علىٰ فعل قبيح لا قبل النُّبُوَّة ولا بعدها، وطريقته المرضية وَاحِدَة لم تتغير من أول عُمره إلىٰ آخره.

ب- هٰذَا مع صفاء نفسه من الحقد والأنانية والشك والشرك. فكان يكره عِبَادَة الأصنام والأوثان، مع أن بيئته نشأت علىٰ عِبَادتها، فلم يحلف بهما، يَدُلّ له ما روي في السِّيْرَة النَّبَوِيَّة لابن هِشَام في قصة بَحِيْرا الراهب حين استحلفه باللَّات والعُزَّىٰ لما رأىٰ قومه يحلفون بهما، قال له ﷺ: (لا تسألني باللَّات والعُزَّىٰ، فوالله ما أَبغضتُ شَيئاً قَطُّ بغضَهما).

ج- وحُسْن بدنه، سواء في جمال المظهر بسَلَامته من الأمراض المُنَفِّرَة وقوته الجسمانية، فقد صارع رُكَانَة المصارع المشهور، وصرعه.

أو في المخبر، فكان ذكي الفؤاد ثاقب القريحة، يهابه كل من رآه، عرفه أو لم يعرفه.

د- ورفعة نسبه، إذ إنه من أَشْرَف بيوت قُرَيْش التي هي أَشْرَف قبائل العَرَب قاطبةً.

هـ- وشَرَف وطنه، إذ إنه من مَكَّة المكَرَّمة أطهر بِقَاع الأرض، لأن فيها بيت الله الحرام، وما يجتمع مثل هٰذَا إلَّا في نَبِيّ[1].

لأن الله تعالىٰ قَدَّرَ ما يحتاج إليه البشر بمجموعه من الكفاءات والمَوَاهِب المُخْتَلِفَة، فوزعها بين أفراده، فنرىٰ بعضهم يفوق الآخرين بالقوة الجسدية. والبعض الآخر يتفوق بالفن، وآخر يتفوق بالرِّيَاضيات أو الهَنْدَسَة أو الخطابة أو الشعر، وبعضهم يخترع ما يبهر الناس، وامتاز البعض الآخر بأن اجتباهم الله واختارهم لتبليغ شرعه إلىٰ الناس،

(١) انظر: المَوَاقِف وشرحه للسَّيِّد الشَّرِيْف ج٨ ص٢٥٩ والمَقَاصِد وشرحه للتَّفْتَازَانِيّ ج٥ ص٣٧ وشَرْح العَقَائِد العَضُدِيَّة للدَّوَّانِيّ ج٢ ص٢٧٨ والمُسَايَرَة وشرحها المُسَامَرَة ص٢٤٥-٢٤٩. وفصل الكلامَ في أخلاقه القَاضِي عِيَاض في الشفا، والصَّالِحِيّ في سُبُل الهُدَىٰ والرَّشَاد.

وهم الرسل والأنبياء.

وإذا كان بعض الناس قد جُبِلَ علىٰ مَوْهِبَة معينة امتاز بها علىٰ غيره، فالانبياء جُبِلُوا علىٰ خِلْقَةٍ خاصةٍ بهم، وصفات تميزوا بها عن غيرهم، فأَعْمَالهم وأفكارهم فذة لا عهد للناس بها، وقد جعل الله تعالىٰ فيهم الاستعداد الكَامِل، لتَحَمُّل هٰذِهِ المهمة الشاقة، وهي تبليغ الأَحْكَام إلىٰ البشر.

فلا عجب أن يجمع الله تعالىٰ في هٰؤُلَاءِ الرسل والأنبياء من الصفات والسجايا ما يؤهلهم، لأن يكونوا قادة العالم وهداة البشر إلىٰ الصراط المُستقِيم[1].

وقد اجتمعت في رَسُوْل الله مُحَمَّد ﷺ المَحَاسِن الرائعة، والسجايا البَدِيْعَة، قبل بعثته - كما تقدَّم - وبعد بعثته، حتىٰ وصفه القُرْآن ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ - القلم ٤، وسئلت عَائِشَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عن أخلاقه فقالت: (كان خُلُقُه القُرْآنَ، يَرضىٰ برضاه، ويَسخط بسَخَطه)[2].

فكان الأُسوة الحَسَنَة في كل شيء، قال تعالىٰ: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ - الأحزاب ٢١، فهو القدوة الحَسَنَة الطَّيِّبة، التي يرىٰ المسلم أن من التقىٰ والصَّلَاح وبُلُوْغ الجنة عند الله تعالىٰ، هو أن يقتفي أثرها في الحياة الدنيا.

وما اجتماع هٰذِهِ الخصال فيه قبل البعثة وبعدها، إلَّا شهادة كَامِلَة بأنه نَبِيّ حَقّاً.

الشَّاهد الثاني: ما اشتملت عليه شريعته من أُمور تتعلق بالعَقَائِد والأخلاق والأَحْكَام العامة، وغيرها من دَقَائِق التشريع والحكمة[3]، وما فيها من الضبط والعَدْل والمرونة، مما يجعلها صالحةً لكل زمان ومكان، كما شَهِدَ بذٰلِكَ الأعداء، (والفضل ما شهدت به الأعداء).

---

(١) مبادئ الإسلام للمَوْدُوْدي ص٣٢-٣٤.

(٢) الشفا للقَاضِي عِيَاض ج١ ص٩٦.

(٣) شَرْح المَقَاصِد للتَّفْتَازَانِيّ ج٥ ص٣٩ وشَرْح العَقَائِد العَضُدِيَّة للدَّوَّانِيّ ج٢ ص٢٧٨.

مع كونه أُمِّيّاً لا يعرف القِرَاءَة والكتابة، إلىٰ أن مات ﷺ، ونشأ بين قوم، غلبت فيهم الجهالة، ولم يمارس الخط والتعلم والتأدب[١]، بل كان قبل نبوته يقضي أياماً طوالاً في غار حِرَاء، وحيداً مختلياً بنفسه، متحنِّثاً ومتأملاً في جَلَال الله وعظمته.

ومحتويات القُرْآن الكَرِيْم، الوَارِدَة قبل قليل، تفيد أن هٰذِهِ الأُمور الشَّامِلَة لكل جوانب الحياة، لن يأتي بها شخص عبقري أو غيره طفرةً وَاحِدَة، وإن ملك زمام العلم والفكر، وتهيَّأت له أسباب التشريع، فما هي إلَّا من لدن عَلِيْم خَبِيْر، أوحىٰ بها إلىٰ الرَّسُوْل الأُمِّيّ، ليبلغها للناس.

الشَّاهد الثالث: إن النَّبِيّ ﷺ مع فقره وقلة أَنْصَاره وضعفهم قد حارب الشرك وأهله وجبابرة العالم، فضلل آراءهم، وسَفَّهَ أحلامهم، وهدم دولهم، وانتشر دينه في الآفاق، فانحسرت أمامه جميع الأديان واتسعت دولته بعده، فحررت الشرق والغرب وحكمتهما، فلم يستطع العدو علىٰ كثرتهم في العدد والعُدَّة، وعلىٰ تربصهم به وبأصحابه، وحرصهم علىٰ استئصاله ودعوته، أن ينالوا منه، أو يقدروا عليه.

وما هٰذَا إلَّا إمداد من الله، له ولمن كان علىٰ دعوته[٢]، قال تعالىٰ: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾- الرُّوْم ٤٧.

الشَّاهد الرابع: ظهوره علىٰ فترة من الرسل وانتشار الضلالة. فالعَرَب علىٰ عِبَادَة الأوثان، والفرس علىٰ تَعْظِيْم النار وعلىٰ الإباحية، والترك علىٰ تخريب الأمصار وإيذاء الناس، والهنود علىٰ عِبَادَة البقر وتأليه الحَجَر، واليَهُوْد علىٰ الحقد والأنانية والشرك، والنَّصَارَىٰ بين التَّوْحِيْد والإشراك بالله.

وهٰكَذَا الناس علىٰ الأرض، فلا بد من دافع لهٰذَا الإلحاد، ورَافِع للواء الصَّلَاح

---

(١) شَرْح العَقَائِد العَضُدِيَّة للدَّوَّانِيّ السَّابِق، والمُسَايَرَة ص٢٤٩. وانظر: نِهَايَة الإقدام ص٤٥٠.

(٢) شَرْح المَقَاصِد للتَّفْتَازَانِيّ ج٥ ص٣٩ وتَبْصِرَة الأَدِلَّة ج١ ص٤٩٤.

والتقىٰ، ولا يكون هٰذَا إلَّا ممن أمده الله تعالىٰ بنور النُّبُوَّة[١].

الشَّاهد الخامس: البشارات الوَارِدَة في كتب الأنبياء السَّابِقين[٢].

ذٰلِكَ لأن الكتب السماوية مصدرها وَاحِد، وهو: الله تعالىٰ، وهدفها وَاحِد وهو: إصْلَاح الناس، ليعبدوا الله، والنَّبِيّ ﷺ جعل من أركان الإيمان: الإيمان بكتبه ورسله. وفي هٰذِهِ الكتب السَّابِقَة بشارات تنبئ بظهور مُحَمَّد ﷺ، حتىٰ ذكر القُرْآن الكَرِيْم أن عِيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، قد بَشَّرَ برَسُوْل من بعده اسمه أَحْمَد، قال تعالىٰ: ﴿وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ - الصف ٦.

قال المحقق عبد الحَكِيْم السِّيَالْكُوْتِيّ في حاشيته علىٰ البَيْضَاوِيّ: (يجب أن يتصور أن كل نَبِيّ أتىٰ بلفظة معرضة، وإشارة مُدْرَجَة، لا يعرفها إلَّا الراسخون في العلم. وذٰلِكَ لحكمة إلٰهِيَّة. وقد قال العُلَمَاء: ما انفك كتاب منزل من السماء من تضمن ذكر النَّبِيّ ﷺ لٰكِن بإشارات، ولو كان متجلياً للعوام لما عوتب علماؤهم في كتمانه، ثم ازداد ذٰلِكَ غموضاً بنقله من لِسَان إلىٰ لِسَان من العِبْرَانِيّ إلىٰ السُّرْيَانِيّ، ومن السُّرْيَانِيّ إلىٰ العَرَبِيّ)[٣].

وسأُورد طرقاً من هٰذِهِ البشارات من الزبور والتوراة والإنجيل. ففي الزبور:

١- قال دَاوُد: (اللهم ابعث جاعل السُّنَّة، حتىٰ يعلم الناس أنه بَشَر). يعني: ابعث مُحَمَّداً، حتىٰ يعلم الناس أن عِيسَىٰ بَشَر.

٢- وقال: (تقلد أيها الجَبَّار السَّيْف، فإن ناموسك وشرايعك مقرونة بهيبة يمينك، وسهامك مسنونة، والأُمَم يخرون تحتك).

---

(١) شَرْح المَقَاصِد للتَّفْتَازَانِيّ ج٥ ص٤٠ والمَوَاقِف وشرحه للسَّيِّد الشَّرِيْف ج٨ ص٢٦٠ عن الرَّازِيّ، وتَبْصِرَة الأَدِلَّة ج١ ص٤٨٢.

(٢) المَوَاقِف وشرحه للسَّيِّد الشَّرِيْف، وشَرْح المَقَاصِد للتَّفْتَازَانِيّ، السَّابِقَان.

(٣) إظهار الحق ج٢ ص٢٢٠.

هٰذِهِ الألفاظ من إحدىٰ الترجمات القديمة العَرَبِيَّة التي نقل عنها النَّسَفِيّ، المُتَوَفَّىٰ سنة ٥٠٨هـ، والتَّفْتَازَانِيّ، المُتَوَفَّىٰ سنة ٧٩٢هـ[١].

وقد أورد رحمة الله الهِنْدِيّ في كتابه (إظهار الحق)[٢]، في البشارة السادسة من الزبور (الخامس والأَربَعِين) قطعة طَوِيْلَة من ١٨ آية، فيها أوصاف النَّبِيّ الذي بَشَّرَ به، التي تنطبق علىٰ النَّبِيّ مُحَمَّد ﷺ تَماماً، وفيها القسم الثاني (تقلد أيها الجَبَّار...) بألفاظ أُخرىٰ. هٰذِهِ الأوصاف هي:

كونه حَسَناً، وأفضل البشر، والنعمة منسكبة في شفتيه، ومُبَارَكاً، ومتقلداً بالسَّيْف، وقَوِيّاً، وذا حَقٍّ وَدَعَةٍ، وصدق وهِدَايَة، وأن نَبْلَه مسنونة، ويسقط الشعب تحته، ويحب البِرّ، ويبغض الإثم، وتخدمه بنات الملوك، وينقاد أبناء الشعب له، وأبناؤه رؤساء الأرض، وتأتيه الهدايا، واسمه مذكور جيلاً بعد جيل، وتمدحه الشعوب إلىٰ دهر الداهرين.

وفصَّل رحمة الله بن خَلِيْل الهِنْدِيّ هٰذِهِ الأوصاف جَميعاً في مُحَمَّد ﷺ بأَدِلَّة محكمة.

وفي التوراة:

١- ما جاء في السفر الخامس: (جاء الله من طُوْر سَيْنَاء، وأشرق من سيعير، واستعلن من جبال فاران).

يريد الإخبار عن إنزال التوراة علىٰ مُوسَىٰ بطُوْر سَيْنَاء، والإنجيل علىٰ عِيسَىٰ بسيعير، فإنه كان يسكن من سيعير بقَرْيَة تسمىٰ نَاصِرة، وإنزال القُرْآن علىٰ مُحَمَّد بمَكَّة، فإن (فاران) في طريق مَكَّة قبل العدن بميلين ونصف، وهو كان المنزل، وقد بقي اليوم علىٰ يَسَار الطريق من العِرَاق إلىٰ مَكَّة.

---

(١) تَبْصِرَة الأَدِلَّة للنَّسَفِيّ ج١ ص٤٩٨ وشَرْح المَقَاصِد للتَّفْتَازَانِيّ ج٥ ص٤٣.

(٢) إظهار الحق ج٢ ص٢٥٥.

وهٰذَا ما ذكر في التوراة: أن إسْمَاعِيْل أقام بِبَرِّيَّة فاران، يعني بادية العَرَب[١].

وهٰذَا هو ما جاء في الباب الثالث والثلاثين من سفر الاستثناء (أي سفر التثنية) في الترجمة العَرَبِيَّة المطبوعة سنة ١٨٤٤م: (٢ وقال: جاء الرب من سينا، وأشرق لنا من ساعير، استعلن من جَبَل فاران، ومعه أُلوف الأطهار. في يمينه سنة من نار).

وفاران جَبَل من جبال مَكَّة، كما جاء في الباب الحادي والعشرين من سفر التكوين في حال إسْمَاعِيْل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، هٰكَذَا: (٢٠ وكان الله معه، ونما، وسكن في البَرِّيَّة، وصار شاباً، يرمي بالسهام، ٢١ وسكن بَرِّيَّة فاران، وأخذت له أُمُّه امرأةً من أرض مِصْر).

ولا شك أن إسْمَاعِيْل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كانت سكونته بمَكَّة[٢].

٢- ما جاء في السفر الخامس: (أنه تعالىٰ قال لمُوسَىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: إني مقيم لهم نَبِيّاً من بني إخوتهم مثلك، وأُجري قولي في فيه، ويقول لهم ما آمرهم به، والرجل الذي لا يقبل قول النَّبِيّ هو الذي يتكلم باسمي، فأنا أنتقم منه).

والمُرَاد ببني إخوة بني إسرائيل بنو إسْمَاعِيْل علىٰ ما هو المتعارف، فلا يصرف إلىٰ من بعد مُوسَىٰ، لكونه صاحب شريعة مستأنفة، فيها بَيَان مصالح الدَّارَيْن، فتعين مُحَمَّد ﷺ[٣].

٣- ما جاء في الآية (٢١) من الباب (٣٢) من سفر الاستثناء: (هم أغاروني بغير إلٰه، وأغضبوني بمَعْبُوْداتهم الباطلة، وأنا أَيضاً أُغيرهم بغير شعب، وبشعب جاهل أُغضبهم).

---

(١) شَرْح المَقَاصِد للتَّفْتَازَانِيّ ج٥ ص٤٢ وتَبْصِرَة الأَدِلَّة ج١ ص٤٩٧. وانظر: الفِصَل لابن حَزْم ج١ ص١٩٤ وتَلْخِيْص المُحَصِّل ص٢١١.

اسْتَعْلَنَ: جاء عَلَانِيَةً وجهاراً.

(٢) إظهار الحق ج٢ ص٢٥٠.

(٣) شَرْح المَقَاصِد للتَّفْتَازَانِيّ ج٥ ص٤٢ وتَبْصِرَة الأَدِلَّة ج١ ص٤٩٧. وانظر: الفِصَل لابن حَزْم ج١ ص١٩٤ وتَلْخِيْص المُحَصِّل ص٢١١.

والمُرَاد بشعب جاهل: العَرَب، لأنهم كانوا في غَايَة الجهل والضلال، وما كان عندهم من العُلُوْم الشَّرْعِيَّة ولا من العُلُوْم العقلية، وما كانوا يعرفون سوىٰ عِبَادَة الأوثان والأصنام، وكانوا محقرين عند اليَهُوْد، لكونهم من أولاد هَاجَر الجارية، فمقصود الآية: أن بني إسرائيل أغاروني بعِبَادَة المَعْبُوْدات الباطلة، فأُغيرهم باصطفاء الذين هم عندهم محقرون وجاهلون، فأَوْفَىٰ بما وعد، فبعث من العَرَب النَّبِيّ ﷺ، فَهْداهم إلىٰ الصراط المُستقِيم[1].

٤- ما جاء في السفر الأول: (أنه تعالىٰ قال لإبْرَاهِيْم عَلَيْهِ السَّلَامُ: إن هَاجَر تلد، ويكون من ولدها من يده فوق الجميع، ويد الجميع مَبْسُوْطَة إليه بالخشوع)[2].

وفي الإنجيل:

١- ورد في الصِّحَاح الرابع عشر: (أنا أطلب لكم إلىٰ أبي، حتىٰ يمنحكم ويعطيكم فارقليطاً، ليكون معكم إلىٰ الأبد، وفارقليط روح الحق واليقين).

هٰذَا في إحدىٰ الترجمات العَرَبِيَّة التي نقل عنها التَّفْتَازَانِيّ[3].

وأورد رحمة الله الهِنْدِيّ هٰذَا عن التَّرَاجُم العَرَبِيَّة المطبوعة سنة ١٨٢١م و١٨٣١م و١٨٤٤م في لندن في الباب الرابع عشر من إنجيل يوحنا: (١٥ إن كنتم تحبونني فاحفظوا وصاياي، ١٦ وأنا أطلب من الأب، فيعطيكم فارقليط آخر، ليثبت معكم إلىٰ الأبد، ١٧ روح الحق الذي لن يطيق العالم أن يقبله، لأنه ليس يراه، ولا يعرفه، وأنتم تعرفونه، لأنه مقيم عندكم، وهو ثَابِت فيكم)[4].

فقوله (ليكون معكم إلىٰ الأبد) يفيد بأنه بهٰذَا النَّبِيّ تختم النُّبُوَّة، فتكون شريعته

(١) إظهار الحق ج٢ ص٢٤٩.
(٢) شَرْح المَقَاصِد للتَّفْتَازَانِيّ ج٥ ص٤٢.
(٣) شَرْح المَقَاصِد للتَّفْتَازَانِيّ، وتَلْخِيْص المُحَصِّل، السَّابِقَان.
(٤) إظهار الحق ج٢ ص٢٧٨.

عامةً لا يحتاج الناس بعدها إلىٰ نَبِيّ، فهو يعلم الناس، ويمنحهم جميع الأشياء، ويذكرهم بما قاله السَّيِّد المَسِيْح لهم.

٢- وفي الخامس عشر: (وأما فارقليط روح القُدُس الذي يرسله أبي باسمي هو يعلمكم ويمنحكم جميع الأشياء، وهو يذكركم ما قلته لكم.

ثم قال: وإني أخبرتكم بهٰذَا قبل أن يكون، حتىٰ إذا كان ذٰلِكَ تؤمنوا به).

وقوله باسمي: يعني بالنُّبُوَّة، ومعنىٰ الفارقليط: كاشف الخفيات[١].

وأورد رحمة الله الهِنْدِيّ هٰذَا عن الترجمات المذكورة في الباب ١٥ و١٦ (٢٦ فأما إذا جاء الفارقليط الذي أرسله أنا إليكم من الأب روح الحق، الذي من الأب ينبثق، هو يشهد لأجلي، ٢٧ وأنتم تشهدون، لأنكم معي من الابتداء).

ويفيد أن مُحَمَّداً يشهد للمَسِيْح عَلَيْهِ السَّلَامُ صدقه وبشريته، فلم يكن مُدَّعِياً الأُلوهية، الذي هو أشد أنواع الجهالة والضلال، وبرأ أُمّه عن تهمة الزنا، وهٰذَا مذكور في القُرْآن بكل جلاء[٢].

٣- وفي السادس عشر: (أقول لكم الآن حقاً ويقيناً: إن انطلاقي عنكم خَيْر لكم، فإن لم أنطلق عنكم إلىٰ أبي، لم يأتكم الفارقليط، وإن انطلقت أرسلت به إليكم، فإذا جاء هو يفيد أهل العالم، ويدينهم ويوبخهم، ويوقفهم علىٰ الخَطِيْئَة والبر).

ثم قال: (إذا جاء روح الحق واليقين يرشدكم، ويعلمكم، ويدبركم، ويذكركم لجميع الحق، لأنه ليس يتكلم بدعة من تلقاء نفسه)[٣].

---

(١) شَرْح المَقَاصِد للتَّفْتَازَانِيّ ج٥ ص٤٢-٤٣. وانظر: تَبْصِرَة الأَدِلَّة ج١ ص٤٩٨ وتَلْخِيْص المُحَصِّل ص٢١١.

(٢) إظهار الحق ج٢ ص٢٨٣.

(٣) شَرْح المَقَاصِد للتَّفْتَازَانِيّ ج٥ ص٤٣.

وذكر هٰذِهِ البشارة رحمة الله الهِنْدِيّ معتمداً علىٰ التَّرَاجُم العَرَبِيَّة المذكورة قبل قليل، في آخر أبواب إنجيل يوحنا (الباب السادس عشر): (٧ لٰكِني أقول لكم الحق: إنه خَيْر لكم أن أنطلق، لأني إن لم أنطلق لم يأتكم الفارقليط، فأما إن انطلقت أرسلته إليكم، ٨ فإذا جاء ذٰلِكَ فهو يوبخ العالم علىٰ خَطِيْئَة وعلىٰ بر وعلىٰ حكم، ٩ أما علىٰ الخَطِيْئَة فلأنهم لم يؤمنوا بي، ١٠ وأما علىٰ البِرّ فلأني منطلق إلىٰ الأب، ولستم ترونني بعد، ١١ وأما علىٰ الحكم فإن أركون هٰذَا العالم قد دين، ١٢ وإن لي كلاماً كَثيراً أقوله لكم، ولٰكِنكم لستم تطيقون حملَهُ الآن، ١٣ وإذا جاء روح الحق ذاك فهو يعلمكم جميع الحق، لأنه ليس ينطق من عنده، بل يتكلم بكل ما يسمع، ويخبركم بما سيأتي، ١٤ وهو يمجدني، لأنه يأخذ مما هو لي، ويخبركم، ١٥ جميع ما هو للأب، فهو لي، فمن أجل هٰذَا قلت: إن مما هو لي يأخذ ويخبركم)[١].

وذكر الشيخ رحمة الله الهِنْدِيّ[٢]: أن الفارقليط تعني عندهم (المُعَزِّي والمعين والوَكِيْل والشافع)، وهٰذِهِ المعاني تصدق علىٰ النَّبِيّ مُحَمَّد ﷺ، وأصل اللفظة باليُوْنَانِيَّة (بيركلوطوس)[٣] التي تعني قريباً من معنىٰ: مُحَمَّد وأَحْمَد.

وعِيسَىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كان يتكلم بالعِبْرَانِيّ لا باليُوْنَانِيّ، وتلفُّظ عِيسَىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ باسم النَّبِيّ بعده مفقود، أما اللفظ الموجود اليُوْنَانِيّ (بيركلوطوس)، فهو من ترجمة يوحنا من العِبرَانِيّ إلىٰ اليُوْنَانِيّ، وحين ترجم من اليُوْنَانِيَّة إلىٰ العَرَبِيَّة صار فارقليط. وعِيسَىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كان يبشر بالفارقليط من بعده، يؤكد هٰذَا ما يأتي:

---

(١) إظهار الحق ج٢ ص٢٧٩.

(٢) إظهار الحق ج٢ ص٢٧٩ وما بعدها.

(٣) سأل الشيخ عبد الوَهَّاب النَّجَّار صاحب كتاب قصص الأنبياء المستشرق الإيطالي كارلو نلينو عن كلمة (بيركلوطوس) الوَارِدَة في الأناجيل، فأجابه: أن القُسُس يقولون إن هٰذِهِ الكلمة معناها (المُعَزِّي)، فقال له: إني أسأل الدكتور كارلو نلينو الحاصل علىٰ الدكتوراه في آداب اللُّغَة اليُوْنَانِيَّة القديمة، ولست أسأل قِسِّيْسَاً، فقال: إن معناها الذي له حمد كثير، فسأله أَيضاً: هل ذٰلِكَ يوافق أفعل التفضيل من حمد فقال: نعم. / الرَّسُوْل: سَعِيْد حوىٰ ج٢ ص٢٨٧.

١- أن البعض من النَّصَارَىٰ قد ادَّعَىٰ أنه الفارقليط في القرون الأُوْلَىٰ النَّصْرَانِيَّة، وأنه الموعود به الذي وعد بمجيئه المَسِيْح عَلَيْهِ السَّلَامُ كما ذكر ذٰلِكَ وليم ميور.

وقال صاحب لب التواريخ: (إن اليَهُوْد والمَسِيْحِيّين من معاصري مُحَمَّد ﷺ كانوا منتظرين لنَبِيّ. فحصل مُحَمَّد من هٰذَا الأمر نفع عَظِيْم لأنه ادَّعَىٰ أني ذاك المنتظر).

وحين وصل كتاب النَّبِيّ ﷺ إلىٰ النَّجَاشِيّ، وكان نَصْرَانِيّاً، (فقال: أشهد بالله أنه للنَّبِيّ الذي ينتظره أهل الكتاب). فكتب في الجواب إليه: (أشهد أنك رَسُوْل الله صَادِقاً ومُصَدَّقاً، قد بايعتك وبايعت ابن عمك، أي: جَعْفَر بن أبي طَالِب، وأسلمت علىٰ يديه لله رب العالمين).

وكذا في كتاب المُقَوْقِس ملك القِبْط جواباً لكتاب مُحَمَّد ﷺ إليه.

وكذا ما جاء في كلام الجَارُوْد بن العَلَاء، وهو من عُلَمَاء النَّصَارَىٰ، حين دخل مع قومه علىٰ رَسُوْل الله ﷺ[1].

وكان هِرَقْل عَظِيْم الرُّوْم كما في حَدِيْث البُخَارِيّ - باب بَدْء الوَحْي، ينتظر ظهوره، وكان عُلَمَاء النَّصَارَىٰ ينتظرون ظهوره، كما في قصة إسلام سلمان الفَارِسِيّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فالنَّجَاشِيّ والمُقَوْقِس والجَارُوْد وهِرَقْل من عُلَمَاء النَّصَارَىٰ أكدوا أن النَّصَارَىٰ ينتظرون ظهور نَبِيّ، لأن وصفه مذكور في كتبهم كالإنجيل وغيره.

وهٰؤُلَاءِ لم يخافوا من رَسُوْل الله ﷺ شَيئاً، لأنهم أصحاب دول وجيوش جرارة، ورَسُوْل الله ﷺ في بِدَايَة دعوته، وكان هو وأصحابه مستضعفين، يخافون أن يتخطفهم الناس.

---

(١) إظهار الحق ج٢ ص٢٧٩-٢٨١.

٢- قوله (إن لم أنطلق لم يأتكم الفارقليط) يَدُلّ علىٰ أن مجيء النَّبِيّ ﷺ موقوف علىٰ ذهاب عِيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

٣- القول في الإنجيل (يوبِّخ العالَمَ) بمنزلة النص الجلي علىٰ مُحَمَّد ﷺ، لأنه وبَّخَ العالَمَ، سِيَّمَا اليَهُوْد علىٰ عدم إيمانهم بعِيسَىٰ، ولذٰلِكَ قال: (أما علىٰ الخَطِيْئَة فلأنهم لم يؤمنوا بي).

٤- ولم ينطق من عنده، وإنما هو وحي في كلامه وأخباره.

٥- كما أنه يمجّد عِيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهٰذَا ثَابِت بالقُرْآن في تَمْجِيْد مُحَمَّد ﷺ لعِيسَىٰ خاصةً، والأنبياء عامةً، كما هو معروف.

وبشارات الكتب السماوية بظهور النَّبِيّ مُحَمَّد ﷺ كثيرة.

قال التَّفْتَازَانِيّ: (قال في تَلْخِيْص المُحَصِّل: وأمثال هٰذَا كثير في كتب الأنبياء المتقدمين، يذكرها المُصَنِّفُوْن الواقفون علىٰ كتبهم، ولا يقدر المخالف علىٰ دفعها أو صرفها إلىٰ ملك أو نَبِيّ آخر، ولا علىٰ أن يكتمها. ولقد جمع أبو الحُسَيْن البَصْرِيّ في كتاب غُرَر الأَدِلَّة، ما يوقف من نصوص التوراة علىٰ صحة نُبُوَّة مُحَمَّد ﷺ)[1].

إنجيل برنابا

أما إنجيل برنابا فإنه يبشر بمُحَمَّد ﷺ، كما يقول الدكتور خَلِيْل سَعَادَة، الذي ترجمه إلىٰ العَرَبِيَّة:

(إن مسيا أو المَسِيْح المنتظر ليس هو يسوع بل مُحَمَّد، وقد ذكر مُحَمَّد باللفظ

(١) شَرْح المَقَاصِد للتَّفْتَازَانِيّ ج٥ ص٤٣. وانظر البشارات أَيضاً في: إثبات نُبُوَّة النَّبِيّ للهاروني الزَّيْدِيّ ص١٥٧ وعبارة تَلْخِيْص المُحَصِّل في ص٢١١: (وأمثال هٰذَا في هٰذَيْنِ الكتابين وفي كتب سائر الأنبياء التي عندهم كثيرٌ، يطول الكتاب بذكرها، ولا يقدر المخالف علىٰ دفعها، أو صرفها إلىٰ مَلك أو نَبِيّ آخر، ولا علىٰ أن يكتمها).

الصريح المتكرر في فُصُوْل ضافية الذيول، وقال إنه رَسُوْل الله، وإن آدم لما طرد من الجنة، رأىٰ سطوراً فوق بابها بأحرف من نور: لا إلٰه إلَّا الله مُحَمَّد رَسُوْل الله)[1].

وفي الفصلين الثالث والأَربَعِين والرابع والأَربَعِين كلام كثير في التبشير بمُحَمَّد ﷺ، لأن التلاميذ طلبوا من المَسِيْح عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يصرح لهم، فصرح بما يعلن حقيقته، ويبين ما له من شأن.

وهٰذَا الإنجيل وإن رَدَّه جُلّ النَّصَارَىٰ بلا مبرر، إلَّا أن البينات شَاهدة، ترجح صحته، كما سيأتي بَيَانه.

وبرنابا من قديسي النَّصَارَىٰ، ورَسُوْل من رسلهم، ورُكْن من أركان الدعاية المَسِيْحِيَّة الأُوْلَىٰ باتفاقهم، وقد وجد إنجيل باسمه، يَدُلّ علىٰ أنه كان من حَوَارِيّي المَسِيْح وملازميه في سرائه وضرائه. ولٰكِن الأناجيل الأُخرىٰ لا تعده من الحَوَارِيِّيْن، بل من الرسل الذين يبلغون مكانة الحَوَارِيِّيْن بعد المَسِيْح[2].

وإنجيل برنابا يقرر أُموراً جوهرية تباين الأناجيل الأربعة المشهورة، وهي:

١- قوله: إن يسوع أنكر أُلوهيته وكونه ابن الله، وذٰلِكَ علىٰ مَرْأىٰ ومَسْمَع من ست مئة ألف جُنْدِيّ وسكان اليَهُوْدِيَّة من رِجَال ونساء وأطفال. (أي: فيه نفي لعَقِيْدَة التثليث).

٢- إن الابن الذي عزم إبْرَاهِيْم علىٰ تقديمه ذبيحة لله، إنما هو إسْمَاعِيْل لا إسْحَاق، وإن الموعد إنما كان بإسْمَاعِيْل.

٣- إن مسيا أو المَسِيْح المنتظر ليس هو يسوع بل مُحَمَّد، وقد ذكر مُحَمَّداً باللفظ الصريح المتكرر... (سبق أن نقلنا هٰذِهِ الفقرة قبل قليل).

---

(١) مُقَدِّمَة خَلِيْل سَعَادَة لإنجيل برنابا ص: م.

(٢) محاضرات في النَّصْرَانِيَّة للشيخ مُحَمَّد أبي زُهْرَة ص٥٧.

٤- إن يسوع لم يُصْلَب بل حُمل إلىٰ السماء، وإن الذي صلب إنما هو يهوذا الخائن، الذي شُبِّه به، فجاء مطابقاً للقُرْآن: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ - النساء ١٥٧[1].

تاريخ إنجيل برنابا:

أصدر البابا جيلاسيوس، الذي تسلم منصب البابا سنة ٤٩٢م أي قبل مِيْلَاد النَّبِيّ ﷺ، أمراً ينهىٰ فيه عن قِرَاءَة كتب منها كتاب اسمه (إنجيل برنابا)[2].

وقد عثر لهٰذَا الإنجيل علىٰ نسختين إيطالية وإسبانية. أما الإسبانية: فقد أقرضها الدكتور هلم من بلدة هدلي التابعة لهمبشير المستشرق سايل، ثم تناولها بعد سايل الدكتور منكهوس عضو الكُلِّيَّة الملكية في أُكسفورد، فنقلها إلىٰ الإنكليزية، ثم دفع الترجمة مع الأصل سنة ١٧٨٤م إلىٰ الدكتور هويت، ثم طمس بعد ذٰلِكَ خبرها، وانمحىٰ أثرها.

أما الإيطالية: فأول من عثر عليها كريمر أحد مستشاري ملك بروسيا، وكان مقيماً حينذاك في أمستردام، فأخذها سنة ١٧٠٩م من مكتبة أحد مشَاهير ووجهاء المَدِيْنَة المذكورة، فأقرضها كريمر طولند، ثم أهداها بعد أربع سنين إلىٰ البرنس ايوجين سافوي، ثم انتقلت النسخة المذكورة سنة ١٧٣٨م مع سائر مكتبة البرنس إلىٰ مكتبة البلاط الملكي في فِيَنَّا، حيث لا تزال هناك حتىٰ الآن.

ويذكر سايل أنه مسطور في صدر النسخة الإسبانية المفقودة: أنها مترجمة حرفياً عن النسخة الإيطالية، ومصدَّرة بمُقَدِّمَة عن كيفية اكتشاف الراهب النسخة الإيطالية، وقصته كما يلي:

إن الراهب اللاتيني فرامرينو عثر علىٰ رَسَائِل لايرينايوس، وفي عدادها رِسَالَة

(١) مُقَدِّمَة الدكتور خَلِيْل سَعَادَة ص: م ومحاضرات في النَّصْرَانِيَّة ص٦٢-٦٤.

(٢) مُقَدِّمَة الدكتور خَلِيْل سَعَادَة لإنجيل برنابا ص: ل ومُقَدِّمَة مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا لإنجيل برنابا ص: رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

يندد فيها بالقديس بولص الرَّسُوْل، وإن ايرينايوس أسند تنديده إلىٰ إنجيل القديس برنابا، فأصبح هٰذَا الراهب فرامرينو شغوفاً بالعثور علىٰ إنجيل برنابا، واتفق أنه أصبح مقرباً من البابا سكتس الخامس. فحدث يوماً أنهما دخلا معاً مكتبة البابا، فأخذت البابا سِنَةٌ من النوم، فأحب فرامرينو أن يقتل الوقت بالمَطَالِعة إلىٰ أن يفيق البابا، فكان الكتاب الأول الذي وضع يده عليه هو إنجيل برنابا، فطار فرحاً، فخبَّأه في أحد ردنيه، ولبث إلىٰ أن أفاق البابا، فاستأذنه وانصرف، فطالعه بشوق بالغ، ثم اعتنق الإسلام علىٰ أثر ذٰلِكَ[1].

ومما يرجح صحة إنجيل برنابا هٰذَا علىٰ الرغم من أن بعض عُلَمَاء أوروبا ينكرونه، هو:

١- وجدت نسخة إنجيل برنابا في جو مَسِيْحِيّ خالص، فعثر عليها في خِزَانَة رئيس ديني خَطِيْر (البابا)، وكاشفها راهب، ثم انتقلت إلىٰ مستشارٍ مَسِيْحِيّ من مستشاري ملك بروسيا، ثم إلىٰ البلاط الملكي بفِيَنَّا. فلم تصل إليها يد مُسْلِم.

٢- عدم اطلاع عُلَمَاء المُسْلِمِيْن في غابرهم وحاضرهم عليه، لأن المُنَاظَرَات بينهم وبين النَّصَارَىٰ في المشرق والأَنْدَلُس كانت قائمة في كل العصور، وناهيك بما كتبه ابن حَزْم الأَنْدَلُسِيّ وابن تَيْمِيَّة المشرقي الشَّامِيّ من دراسات وَاسِعَة وكتب في الرد علىٰ النَّصَارَىٰ.

فلم نجد أَحَداً من هٰؤُلَاءِ ذكر إنجيل برنابا، مع أن فيه الحُجَّة الدامغة للنَّصَارَىٰ، كما حَقَّقَهُ الدكتور مرجليوث، مُؤَيِّداً تَحْقِيْقه بخلو كتب المُسْلِمِيْن من ذكر هٰذَا الإنجيل[2].

٣- إن معظم مباحثه لم تكن معروفة عند أَحَدٍ من المُسْلِمِيْن، وأُسْلُوْبه في التعبير

(١) مُقَدِّمَة الدكتور خَلِيْل لإنجيل برنابا ص: د، هـ.

(٢) مُقَدِّمَة مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا لإنجيل برنابا ص: ت ومحاضرات في النَّصْرَانِيَّة ص٦١.

بعيد جداً عن أساليب المُسْلِمِيْن عامةً والعَرَب منهم خاصةً - كما بيّن بعض القِسِّيْسِين في مَجَلَّة دينية - فلا يمكن أن يقال إن هٰذَا من صنع المُسْلِمِيْن، كما ادَّعَىٰ البعض.

فالمسلم إذا ذكر الله أثنىٰ عليه، وإذا ذكر الأنبياء صلىٰ عليهم، ولا يسمىٰ الملائكة إلَّا بما جاء بالقُرْآن الكَرِيْم أو السُّنَّة النَّبَوِيَّة، فلا يقول: ميخائيل بدل ميكائيل، ويجهل اسم إسرافيل، ويسميه (اوريل)، ولا يقول: (الله سُبْحَانَ) لأن كلمة (سُبْحَانَ الله) يحفظها كل مُسْلِم، لأنها من أذكار الدِّيْن. ولو كان من صنع المُسْلِمِيْن لما سميت الفُصُوْل سُوَراً، لأن المُسْلِم العَرَبِيّ والعَجَمِيّ لا يطلق لفظ السورة علىٰ غير سُوَر القُرْآن الكَرِيْم[1].

٤- فيه براعة الحُجَّة، ووضوح المسلك، وسمو التفكير، وتَوْضِيْح خفايا في حياة السَّيِّد المَسِيْح عَلَيْهِ السَّلَامُ، وتشابه كَبِيْر بين بعض مقاطعه والأناجيل الأُخرىٰ[2].

٥- ولولا صحة نسبة هٰذَا الإنجيل لما أيقن بها الراهب المكتشف له (فرامرينو)، فاعتنق الإسلام بسبب ذٰلِكَ.

ومن البشارات التصريح باسم مُحَمَّد ﷺ:

مما استنكره بعض الباحثين في إنجيل برنابا تصريحه باسم النَّبِيّ (مُحَمَّد) ﷺ، وقالوا: لا يعقل أن يكون ذٰلِكَ كتب قبل ظهور الإسلام.

لأن المعهود في البشارات أن تكون بالكنايات والإشارات. لٰكِن الحق أن البشارات قد تكون بالإشارة والكناية كما أوردنا طرفاً من ذٰلِكَ من الزبور والتوراة والإنجيل.

وقد تكون البشارات مُصَرّحَة. كما في إنجيل برنابا وفي نسخة الإنجيل بالقلم الحِمْيَرِيّ، فقد نقل الشيخ مُحَمَّد بيرم عن رحالة إنجليزي أنه رأىٰ في دار الكتب

(١) مُقَدِّمَة السَّيِّد مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا لإنجيل برنابا ص: ش، ت.

(٢) الرَّسُوْل، سَعِيْد حوىٰ ج٢ ص٢٨٠.

البابوية في الفاتيكان نسخة من الإنجيل مكتوبة بالقلم الحِمْيَرِيّ قبل بعثة النَّبِيّ ﷺ، وفيها يقول المَسِيْح عَلَيْهِ السَّلَامُ: (ومبشراً برَسُوْل يأتي من بعدي اسمه أَحْمَد). وذٰلِكَ موافق لنص القُرْآن الكَرِيْم بالحرف في سورة الصف الآية ٦.

ولٰكِن لم ينقل عن أَحَدٍ من المُسْلِمِيْن أنه رأىٰ شَيئاً من هٰذِهِ الأناجيل التي فيها البشارات الصريحة، فيظهر أن في مكتبة الفاتيكان من بقايا تلك الأناجيل والكتب التي كانت ممنوعة في القرون الأُوْلَىٰ ما لو ظهر لأزال كل شبه عن إنجيل برنابا وغيره[1].

وهناك بشارات كثيرة في الزبور والتوراة والإنجيل تتحدث عن ظهور نَبِيّ بعد المَسِيْح عَلَيْهِ السَّلَامُ وهو مُحَمَّد ﷺ لا نذكرها خوف التطَوِيْل.

ونحيل المتتبع إلىٰ كتاب **(إظهار الحق) للشيخ رحمة الله بن خَلِيْل الرَّحْمٰن الهِنْدِيّ**، وفيه مناقشة النَّصَارَىٰ في المَسَائِل الخمس التي هي مدار النقاش بين المُسْلِمِيْن والنَّصَارَىٰ، وهي:

(١) إثبات تحريف التوراة والإنجيل. (٢) النسخ. (٣) بطلان التثليث. (٤) القُرْآن الكَرِيْم كلام الله، وصل إلينا بالتواتر. (٥) نُبُوَّة مُحَمَّد ﷺ وأنه خاتم النَّبِيِّيْن.

ويظهر من قِرَاءَة كتاب (إظهار الحق) أن المؤلف مُحِيْط بنصوص العهدين القديم والجديد، وأنه درسهما بشروحهما وتَعْلِيْقاتهما دراسةً مضبوطةً، هَيَّأت له الوقوف عند كثير من الجزئيات.

وسبب تأليفه: أن المبشرين النَّصَارَىٰ هاجموا الإسلام بعنف عند الاحتلال البريطاني للهِنْد، وأَلَّفوا كتباً ورَسَائِل في التهجم علىٰ الإسلام مُرَكِّزِيْن علىٰ هٰذِهِ النقاط الخمس المتقدمة، فتَصَدَّىٰ لهم عُلَمَاء أجلاء من المُسْلِمِيْن. وأَخِيْراً عقدت نَدْوَة للمُنَاظَرَة بين القِسِّيس (فندر)، وكان أبرع المبشِّرين وأقدرهم علىٰ التكلم بالعَرَبِيَّة والفَارِسِيَّة،

(١) مُقَدِّمَة مُحَمَّد رَشِيْد رِضَا لإنجيل برنابا ص: ت.

وبين المؤلف رحمة الله بن خَلِيْل، وحضرها كبار رِجَالات الهِنْد والقُضَاة والمفتين وكبار رِجَال الدِّيْن الإنجليز، وذٰلِكَ في بلدة (أكبر آباد) في شهر رَجَب سنة ١٢٧٠هـ.

وكان يعاون القِسِّيس (فندر) قِسِّيس آخر اسمه (فرنج). ويعاون الشيخ (رحمة الله) السَّيِّد مُحَمَّد وَزِيْر خان.

وابتدأت المُنَاظَرَة في مَسْأَلَة النسخ والتحريف، فتَفَوَّقَ (رحمة الله)، وتخاذل (فندر) وصاحبه فانسحبا، وقد دُوِّن ما جرىٰ بالمُنَاظَرَة من حجج الجانبين، ولم تكمل المُنَاظَرَة.

ثم سافر (رحمة الله) إلىٰ مَكَّة للحج، فاجتمع بالسَّيِّد أَحْمَد زَيْنِي دَحْلَان، فأخبره بالمُنَاظَرَة، فطلب السَّيِّد أَحْمَد زَيْنِي منه أن يترجم إلىٰ العَرَبِيَّة مباحثه الخمسة.

فأَلَّف عندئذٍ هٰذَا الكتاب (إظهار الحق)، وزاد باباً سادساً تناول فيه العهدين القديم والجديد[1].

وهنالك كتب جَلِيْلة أُخرىٰ تذكر هٰذِهِ البشارات وغيرها تناقش النَّصَارَىٰ في مُعْتِقداتهم، من أهمها:

١- الجواب الصَّحِيْح لمن بَدَّلَ دين المَسِيْح لابن تَيْمِيَّة.

٢- هِدَايَة الحَيَارَىٰ من اليَهُوْد والنَّصَارَىٰ لابن قَيِّم الجَوْزِيَّة.

٣- الأجوبة الفاخرة عن الأسئلة الفاجرة للقَرَافِيّ.

٤- الفارق بين المخلوق والخَالِق لعبد الرَّحْمٰن بك باجه جي زاده.

٥- أَعْلَام النُّبُوَّة للمَاوَرْدِيّ.

٦- حُجَّة الله علىٰ العالمين في معجزات سَيِّد المُرْسَلين للنَّبْهَانِيّ.

---

(١) انظر: مُقَدِّمَة (إظهار الحق).

رسالته ﷺ خاتمة الشرائع

مُحَمَّد ﷺ خَاتَم الأنبياء والمُرْسَلين، بدليل:

أ- قوله تعالىٰ: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ - الأحزاب ٤٠.

ب- قوله ﷺ: (مَثَلِي ومَثَلُ الأنبياء من قَبْلِي، كمَثَل رَجُلٍ بَنَىٰ بُنياناً فأَحْسَنه وأَجْمَلَهُ، إلَّا مَوضِعَ لَبِنَة من زاوية من زَواياه، فجعل الناسُ يَطوفون به، ويَعجَبون له، ويقولون: هَلَّا وُضِعَت هٰذِهِ اللَّبِنَةُ؟ قال: فأنا اللَّبِنَةُ، وأنا خَاتَمُ النَّبِيِّيْن)[1].

أما ما صح من الأَحَادِيْث التي تذكر أن المَسِيْح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ينزل قبيل قيام الساعة، فالثَّابِت أنه لا ينزل بوحي جديد، وإنما ينزل فيحكم بشريعة مُحَمَّد ﷺ[2]. ولذا حين ينزل يكسر الصلبان، ويقتل الخنزير، ولا يقبل الجزية، ولا يقبل إلَّا الإسلام[3].

ولذٰلِكَ كانت شريعته ﷺ خاتمة الشرائع السماوية وناسخة لها.

وهو مصداق قوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ - آل عِمْرَان ١٩.

وقوله سُبْحَانَهُ: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ

---

(١) حَدِيْث: مَثَلِي ومَثَلُ الأنبياء... إلخ، في: صَحِيْح البُخَارِيّ في: ٦١ كتاب المَنَاقِب، ١٨ باب خاتَم النَّبِيِّيْن، رقم ٣٥٣٥، عن أبي هُرَيْرَة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

وفي صَحِيْح مُسْلِم في: ٤٣ كتاب الفَضَائِل، ٧ باب ذكر كونه ﷺ خَاتَم النَّبِيِّيْن، رقم ٢٢٨٦ (٢٢)، عن أبي هُرَيْرَة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ. واللفظ لمُسْلِم.

(٢) شَرْح العَقَائِد النَّسَفِيَّة للتَّفْتَازَانِيّ ص١٦٩ وشَرْح الجَوْهَرَة للبَاجُوْرِيّ ص٢٢٣ ولَوَامِع الأَنْوَار البَهِيَّة ج٢ ص٢٧٧ وأُصُوْل الدِّيْن للبَغْدَادِيّ ص١٦٢. وانظر أيضاً حكم المَسِيْح بشريعة مُحَمَّد ﷺ في: أُصُوْل الدِّيْن للغَزْنَوِيّ ص٢٠٧.

(٣) لَوَامِع الأَنْوَار البَهِيَّة السَّابِق.

ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ - آل عِمْرَان ٨٥.

وقوله تعالىٰ: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ - المائدة ٣.

أما إذا ذكر في القُرْآن أو في السُّنَّة المطهرة حكم شرعه الله لمن سبقنا من الأُمَم علىٰ ألسنة رسلهم، فهل هو شرع لنا أم لا؟

هٰذَا هو موضوع (**شرع من قبلنا**) من أَدِلَّة أُصُوْل الفِقْه، وخلاصته:

أ- أن الأَحْكَام المشَرَّعة لمن قبلنا وكتبت علينا، فلا خلاف أنها شرع لنا، كقوله تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ - البقرة ١٨٣.

ب- أن الأَحْكَام المشَرَّعة لمن قبلنا التي رفعت عنا بحكم ناسخ في شرعنا، فلا خلاف أنها ليست شرعاً لنا، مثل حكم شريعة مُوسَىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: (إن العاصي لا يُكَفِّر عن ذنبه إلَّا أن يقتل نفسه) هٰذَا الحكم مرفوع عنا، لأنه منسوخ بتشريع التوبة.

ج- أما الحكم الذي لم يرد في شرعنا ما ينسخه أو يقرره، فقد اختلف فيه الفُقَهَاء علىٰ قولين:

القول الأول: يكون شرعاً لنا، وعلينا تَطْبِيْقه، لعدم الدليل علىٰ نسخه، وهو من الأَحْكَام التي جاء بها الرسل، وهو قول الحَنَفِيَّة وبعض المَالِكِيَّة والشَّافِعِيَّة.

القول الثاني: لا يكون شرعاً لنا، لأن شريعتنا ناسخة للشرائع السماوية جَميعاً، إلَّا إذا ورد في شرعنا ما يقرره.

والحق هو المَذْهَب الأول: لأن شريعتنا إنما نسخت من الشرائع السَّابِقَة ما يخالفها فقط.

ولأن قص القُرْآن علينا حكماً شَرْعِيّاً سَابِقاً بدون نص علىٰ نسخه، هو تشريع لنا ضمناً، لأنه حكم إلٰهِيّ بلغه الرَّسُوْل إلينا.

ولأن القُرْآن مصدق لما بين يديه من التوراة والإنجيل، فما لم ينسخ حكماً في أحدهما فهو مقرر له[١].

وسبب ختم شريعة الإسلام الرسالات السَّابِقَة، هو ما يأتي:

١- شريعة الرَّسُوْل ﷺ بينة واضحة، ينظر إليها المتزود الطَّالِب العلم في أي وقت وفي أي مكان، فينهل منها ما يسد حاجته.

٢- لا حاجة إلىٰ شريعة تضيف إلىٰ الإسلام، أو تنقص منه، لأنه لا قصور فيه عن حل أية مشكلة تواجهه.

وأوضح دليل عليه هو أنها أعطت حكمها في كل المشاكل الكثيرة، التي لا حصر لها، والتي حدثت للمُسْلِمِيْن في جوانب الحياة كافة، من لدن عَصْر النَّبِيّ ﷺ إلىٰ يومنا هٰذَا.

بل الحاجة قائمة إلىٰ من ينشر شريعتنا الإسلامِيَّة، ليتزود العالَمُ بالعلاج الناجع الذي يستأصل شأفة أمراض الأُمَم جَميعاً.

٣- ونُبُوَّة مُحَمَّد ﷺ عامة إلىٰ جميع أهل الأرض، فلم تختص بها أُمَّة أو بلدة أو زمن[٢].

عموم رسالته ﷺ

ورسالته ﷺ عامة إلىٰ جميع الناس، علىٰ اختلاف ألوانهم وأجناسهم ولُغَاتهم، بدليل:

١- قوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ - الأنبياء ١٠٧.

---

(١) أُصُوْل الفِقْه لعَبْد الوَهَّاب خَلَّاف ص٩٣-٩٤.

(٢) مبادئ الإسلام للمَوْدُوْدي ص٦٠.

وقوله سُبْحَانَهُ: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ - سَبأ ٢٨.

وقوله عَزَّ وجَلَّ: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ - الأعراف ١٥٨.

٢- قتاله ﷺ لأهل الكتاب، وضرب الجزية عليهم، وفتوحات الخلفاء الراشدين، لنشر الإسلام محل الأديان الأُخرىٰ.

بينما كان الأنبياء السَّابِقون مُرْسَلين إلىٰ أقوامهم خاصة. وهٰذَا واضح في القران الكَرِيْم، قال تعالىٰ:

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ ﴾ - الأعراف ٥٩.

﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ - الأعراف ٦٥.

﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ - الأعراف ٧٣.

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ ﴾ - الأعراف ٨٠.

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ ﴾ - الأعراف ٨٥.

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ ﴾ - الأعراف ١٠٣.

وقال تعالىٰ في عِيسَىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ - آل عِمْرَان ٤٩.

وفي الحَدِيْث الصَّحِيْح: (أُعطيت خمساً لم يُعطَهن أَحَدٌ قبلي: كان كل نَبِيّ يُبعث إلىٰ قومه خاصَّةً، وبُعثت إلىٰ كل أَحْمَر وأَسودَ...)، وسيأتي بعد قليل.

وبناءً علىٰ ذٰلِكَ: فمن اتبع النَّبِيّ مُحَمَّداً ﷺ فقد اتبع الأنبياء جَميعاً، ومن أنكر نبوته فقد أنكر نُبُوَّة الأنبياء جَميعاً، وما ذٰلِكَ الإنكار إلَّا مكابرة وعناد وهدر لقيمة العقل، لذٰلِكَ يستحق صاحبه العقاب الشديد يوم القيامة.

مُحَمَّد ﷺ أرفع الأنبياء منزلة

الأنبياء جَميعاً يشتركون في وصف النُّبُوَّة، فهم علىٰ حدّ وَاحِد فيها، لأن النُّبُوَّة في نفسها لا تتفاضل، إلَّا أن مُحَمَّداً ﷺ خاتَم الأنبياء والمُرْسَلين أرفعهم منزلة، وأعلاهم مقاماً، فتفضيله ﷺ علىٰ غيره من الأنبياء يعود إلىٰ زِيَادَة الأحوال والكَرَامَات والرتب. ودليل تفضيله هو:

١- قوله ﷺ: (أَنا سَيِّد وَلَد آدمَ يومَ القيامةِ ولا فَخْر)[١]. أي: لا أقول ذٰلِكَ فخراً بنفسي، بل تحدثاً بنعمة ربي.

٢- أنه ﷺ يفضل غيره بأُمور، ذكرها في الحَدِيْث الصَّحِيْح: (أُعطِيتُ خمساً لم يُعطَهن أَحَدٌ قَبلي، كان كُلُّ نَبِيّ يُبعثُ إلىٰ قومه خاصَّةً، وبُعثتُ إلىٰ كُلِّ أَحْمَر وأَسودَ، وأُحِلَّت لي الغنائمُ، ولم تُحَلَّ لأَحَدٍ قَبلي، وجُعلت لي الأَرضُ طَيِّبَةً طَهُوراً ومَسْجِداً، فأَيُّما رَجُل أَدركتْه الصلاةُ صَلَّىٰ حيثُ كان، ونُصِرتُ بالرُّعْب بين يَدَيْ مَسِيْرَة شهرٍ، وأُعْطِيْتُ الشفاعةَ)[٢].

٣- أن أُمَّته أفضل الأُمَم، قال تعالىٰ: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ - آل عِمْرَان ١١٠، وذٰلِكَ تابع لفضل نبيها مُحَمَّد ﷺ.

---

(١) **حَدِيْث: أَنا سَيِّد وَلَد آدمَ**... إلخ، رواه أَحْمَد في مُسْنَده والتِّرْمِذِيّ وابن مَاجَة عن أبي سَعِيْد، وهو حَدِيْث حَسَن. / الجَامِع الصَّغِيْر ص١٦١.

(٢) **حَدِيْث: أُعطِيتُ خمساً لم يُعطَهن**... إلخ، في: صَحِيْح البُخَارِيّ في: ٧ كتاب التَّيَمُّم، ١ باب التَّيَمُّم، رقم ٣٣٥، عن جَابِر بن عبد الله. و٨ كتاب الصلاة، ٥٦ باب قول النَّبِيّ ﷺ: جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، رقم ٤٣٨، عن جَابِر.

وفي صَحِيْح مُسْلِم، واللفظ له، في: أول ٥ كتاب المساجد ومواضع الصلاة، رقم ٥٢١، عن جَابِر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

أي: أن فضل أُمَّته لا يحصل إلَّا باتباع أوامره ﷺ، والانتهاء عن نواهيه والاهتداء بهديه ﷺ.

فإذا قيل:

إن الرَّسُوْل ﷺ نهىٰ عن التفضيل بأَحَادِيْث منها:

أ- قوله ﷺ: (لا تُخَيِّرُوا بَيْنَ الأَنبياء)(١).

ب- وقوله ﷺ: (لا يَنبغي لعبدٍ أن يقول: أنا خَيْر من يُوْنُس بن مَتَّىٰ)(٢).

فالجواب:

أن هٰذِهِ الأَحَادِيْث محمولة علىٰ أنه ﷺ قالها علىٰ سَبِيْل التواضع ونفي العجب، أو أن المقصود منها ألّا يفضل بينهم تفضيلاً يؤدي إلىٰ تنقص بعضهم أو الغضّ منهم(٣).

---

(١) **حَدِيْث: لا تُخَيِّرُوا بَيْنَ الأَنبياء**، في: صَحِيْح البُخَارِيّ في: ٤٤ كتاب في الخصومات، ١ باب ما يذكر في الإشخاص والملازَمة والخُصُومة بين المسلم واليَهُوْد، رقم ٢٤١٢، عن أبي سَعِيْد الخُدْرِيّ.

وفي صَحِيْح مُسْلِم في: ٤٣ كتاب الفَضَائِل، ٤٢ باب من فَضَائِل مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، رقم ٢٣٧٤ (١٦٣)، عن أبي سَعِيْد الخُدْرِيّ.

(٢) **حَدِيْث: لا يَنبغي لعبدٍ**... إلخ، مُتَّفَق عليه وهو في: صَحِيْح البُخَارِيّ في كتاب الأنبياء. ومُسْلِم في كتاب الفَضَائِل. / اللُّؤْلُؤ والمَرْجَان ص٦٢٧.

(٣) تَفْسِيْر الرَّازِيّ في تَفْسِيْر آية البقرة ٢٥٣: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ ج٦ ص١٩٤ وقد جاء بتسع عشرة حُجَّة علىٰ هٰذَا مع مناقشة المخالفين. وانظر: الشفا ج١ ص٢٢٥-٢٢٨ وشَرْح العَقَائِد النَّسَفِيَّة للتَّفْتَازَانِيّ مع شَرْح الكَسْتَلِيّ ص١٧٢ وشَرْح الجَوْهَرَة للبَاجُوْرِيّ ص٢١٤.

شفاعة الرَّسُوْل مُحَمَّد ﷺ

الشفاعة لُغَةً: الوسيلة والطلب.

وعرفاً: سؤال الخَيْر للغير.

وهي مشتقة من الشَّفْع الذي هو ضد الوتر. فكأن الشافع ضم سؤاله إلىٰ سؤال المشفوع له. والمُشَفِّع، بكسر الفاء: الذي يقبل الشفاعة وتُطلَب منه. والمُشَفَّع، بفتح الفاء، ويُسَمَّىٰ الشافع والشَّفِيْع والمُسْتَشْفِع: هو الذي تقبل شفاعته[1].

والشفاعة قسمان مثبتة ومنفية:

١ - **الشفاعة المثبتة**: وهي التي أثبتها الله تعالىٰ لأهل الإخلاص، ولها شرطان هما: إذن الله تعالىٰ للشافع، ورضاه تعالىٰ. وهما المذكوران في قوله تعالىٰ: ﴿ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ ﴾ - النَّجْم ٢٦، وقوله سُبْحَانَهُ: ﴿ يَوۡمَئِذٖ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوۡلٗا ﴾ - طه ١٠٩[2].

فيقف الشافع من الله سُبْحَانَهُ موقف الضَّارع يستنزل رحمة الله وإحسانه. فالشفاعة هٰذِهِ دعاء مستجاب، وسبب من الأسباب التي يرتب الله تعالىٰ عليها المغفرة أو التخفيف أو رفع الدرجات، بدليل حَدِيْث الصَّحِيْحَيْن وغيرهما: أن النَّبِيّ ﷺ يسجد تحت العرش يوم القيامة، ويثني علىٰ الله تعالىٰ الثناء يلهمه يومئذٍ، (فيقال: يا مُحَمَّد، ارفَعْ رأسَكَ، واشْفَعْ تُشَفَّعْ، وسَلْ تُعْطَهْ).

وليس في الشفاعة بهٰذَا المعنىٰ أن الله تعالىٰ يرجع عن إرادة كان قد أرادها لأجل

---

(١) لَوَامِع الأَنْوَار البَهِيَّة ج٢ ص٢٠٤.

(٢) الكواشف الجَلِيَّة عن معاني الوَاسِطِيّة ص٣٥٢.

الشافع، بل مرد ذٰلِكَ كله الإرادة الأزلية والعلم القديم[١].

٢- **الشفاعة المنفية:** هي التي تطلب من غير الله تعالىٰ، أو بغير إذنه، أو لأهل الشرك. قال سُبْحَانَهُ: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ ۗ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ - البقرة ٢٥٤[٢].

فتفسر بأن يحمل الشافع المشفوع عنده (المشَفَّع) علىٰ فعل كان قد أراد غيره، كأن يطمع ضعيف في معروف لدىٰ عَظِيْم، ويعتقد أنه ينوي حرمانه من معروفه، فيستشفع إليه بوجيه مقرب لديه، يحمله علىٰ أن يشمله بمعروفه وإحسانه.

والشفاعة بهٰذَا المعنىٰ مستحيلة بالنسبة لله تعالىٰ، لأن المشفوع عنده كان عاقداً النية علىٰ أمر خلاف ما شفع عنده فيه، فيجيء الشفيع ويبدي له أسباباً للفعل أو الترك لم يكن عالماً بها من قبل، والله سُبْحَانَهُ لا يقع في ملكه إلَّا ما هو به عَلِيْم مريد، ولا يستطيع أحد أن يتصرف في إرادته ومشيئته.

ويؤدي هٰذَا المعنىٰ أَيضاً إلىٰ القول بالبَدَاء، بمعنىٰ أن الله تعالىٰ يبتدئ تدبير الأشياء

---

(١) الشَّرْح الجديد لجَوْهَرَة التَّوْحِيْد للعَدَوِيّ ص١٤٠.

وحَدِيْث: فيقال: يا مُحَمَّد، ارفَعْ رأسَكَ... إلخ، في: صَحِيْح البُخَارِيّ، واللفظ له، في: ٦٠ أَحَادِيْث الأنبياء، ٣ باب قول الله تعالىٰ: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ﴾ - نُوْح ١، رقم ٣٣٤٠، عن أبي هُرَيْرَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وهو بألفاظ مقاربة في: صَحِيْح البُخَارِيّ في: ٦٥ كتاب التَّفْسِيْر - سورة البقرة، ١ باب قول الله تعالىٰ: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ - البقرة ٣١، رقم ٤٤٧٦، عن أَنَس. و٨١ كتاب الرِّقَاق، ٥١ باب صفة الجنة والنار، رقم ٦٥٦٥، عن أَنَس. و٩٧ كتاب التَّوْحِيْد، ١٩ باب قول الله تعالىٰ: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ - ص ٧٥، رقم ٧٤١٠، عن أَنَس. و٢٤ باب قول الله تعالىٰ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾ - القيامة ٢٢، رقم ٧٤٤٠، عن أَنَس.

وفي صَحِيْح مُسْلِم في: ١ كتاب الإيمان، ٨٤ باب أدنىٰ أهل الجنة منزلةً فيها، رقم ١٩٣ (٣٢٢ و٣٢٦)، عن أَنَس. و١٩٤، عن أبي هُرَيْرَة.

(٢) الكواشف الجَلِيَّة السَّابِق.

أولاً فأولاً، ويستأنف علمها من جديد بعد أن لم يكن عالماً بها، وكل ذٰلِكَ محال علىٰ الله سُبْحَانَهُ.

وهٰذَا هو الذي أنكره الله تعالىٰ بالآيات النافية، منها: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ - المُدَّثِّر ٤٨، و﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ - الانفطار ١٩، و﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ ۗ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ - البقرة ٢٥٤ [1].

أنواع الشفاعة المثبتة

ذكر العُلَمَاء أنواعاً عديدة للشفاعة المثبتة، منها:

١- الشفاعة العظمىٰ الخاصة بنبينا مُحَمَّد ﷺ من بين سائر إخوانه من الأنبياء والمُرْسَلين، وهي التي يشفع فيها لأهل الموقف، حتىٰ يقضىٰ بينهم، ويراحوا من شدة الموقف وهوله، بعد أن يتدافعها الأنبياء أصحاب الشرائع آدم إلىٰ نُوْح وإبْرَاهِيْم ومُوسَىٰ وعِيسَىٰ عليهم الصلاة والسَّلَام. وهي المقام المَحْمُوْد.

ووردت في ذٰلِكَ جُمْلَة من الأَحَادِيْث الصَّحِيْحة عن جُمْلَة من الصَّحَابَة، بلغت حد التواتر.

٢- شفاعته في إدخال قوم الجنةَ بغير حساب، بدليل حَدِيْث عُكَّاشَة بن مِحْصَن في الصَّحِيْحَيْن حين دعا له رَسُوْل الله ﷺ أن يجعله من السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بغير حساب، وهم الذين لا يَسْتَرْقُوْن ولا يَكْتَوُوْن ولا يَتَطَيَّرُوْن وعلىٰ ربهم يَتَوَكَّلُوْن.

٣- فيمن استحق دخول النار أن لا يدخلها. وذٰلِكَ بمحض عَفو الله تعالىٰ.

---

(١) الشَّرْح الجديد السَّابِق.

٤- في إخْرَاج المَوَحِّدِين من النار بعد انْقِضَاء مدة المؤاخذة المقررة لهم في علم الله تعالىٰ.

٥- الشفاعة في بعض الكفار لتخفيف العذاب عنهم.

٦- في رفع درجات أُناس في الجنة[١].

أما النوع الأول من الشفاعة والثاني والسادس فلا خلاف فيها، وكذٰلِكَ ينبغي أن لا يكون في الخامس خلاف.

لٰكِن الخلاف في النوعين الثالث والرابع، فهما اللذان تنكرهما المُعْتَزِلَة والإبَاضِيَّة.

وأنكر جَهْم الشفاعةَ، وأن قوماً يخرجون من النار[٢]. وأنكر الشفاعةَ أَيضاً المُرْجِئَة، لقولهم: لا يضر مع الإيمان ذنبٌ[٣].

---

(١) الشَّرْح الجديد ص١٤١. وانظرها وغيرها في: شَرْح العَقِيْدَة الطَّحَاوِيَّة لابن أبي العِزّ ص٢٨٢ وما بعدها، ولَوَامِع الأَنْوَار البَهِيَّة ج٢ ص٢٠٤ وما بعدها، وشَرْح الجَوْهَرَة للبَاجُوْرِيّ ص٣٠٥ ونقل عن السُّيُوْطِيّ وغيره. وانظر روايات الصَّحَابَة عن رَسُوْل الله ﷺ في الشفاعة لأهل الكبائر في: شَرْح أُصُوْل اعْتِقَاد أَهْل السُّنَّة والجَمَاعَة ج٥ ص٣٨٧ وما بعدها.

وحَدِيْث عُكَّاشَة بن مِحْصَن، في: صَحِيْح البُخَارِيّ في: ٧٦ كتاب الطب، ١٧ باب من اكتوىٰ أو كوىٰ غيره، رقم ٥٧٠٥، عن عِمْرَان بن حُصَيْن. و٨١ كتاب الرِّقَاق، ٢١ باب ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ - الطلاق ٣، رقم ٦٤٧٢، عن ابن عَبَّاس.

وفي صَحِيْح مُسْلِم في: ١ كتاب الإيمان، ٩٤ باب الدليل علىٰ دخول طوائف من المُسْلِمِيْن الجنة...، رقم ٢١٨ (٣٧١ و٣٧٢)، عن عِمْرَان بن حُصَيْن. ورقم ٢٢٠ (٣٧٤)، عن ابن عَبَّاس.

(٢) التَّنْبِيْه والرَّدّ ص١٣٤.

(٣) كِفَايَة الطَّالِب الرَّبَّانِيّ ج١ ص٦٧.

واحتج المُعْتَزِلَة والإبَاضِيَّة علىٰ إنكار الشفاعة فيمن استحق دخول النار (وهو النوع الثالث) بما يأتي:

١- قوله تعالىٰ: ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ ﴾ - البقرة ٤٨.

٢- قوله تعالىٰ: ﴿ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ - غافر ١٨.

وأجاب الجُمْهُوْر بما يأتي:

١- بأن المُرَاد بالنفس بالآية الأُوْلَىٰ هو النفس الكافرة، لأن مساق الخطاب معهم، والآية نزلت رداً علىٰ اليَهُوْد الذين يزعمون أن آباءهم تشفع لهم. والظالمون في الآية الثانية هم الكفار، فإن الظالم علىٰ الإطلاق هو الكافر.

٢- إن غفران غير الكفر من الذنوب بلا توبة ولا شفاعة جائز، فبالشفاعة أَوْلَىٰ. ولأن العقاب حقه تعالىٰ فله أن يعفو ويصفح، وله أن يعاقب. قال تعالىٰ: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ - الشُّوْرَىٰ ٢٥، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾ - الزُّمَر ٥٣.

وأنكر المُعْتَزِلَة ومثلهم الإبَاضِيَّة النوع الرابع من الشفاعة في قوم موحدين دخلوا النار، وقالوا: إن من دخل جهنم يخلد فيها، لأنه إما كافر، وإما صاحب كَبِيْرَة لم يتب منها.

وحجتهم علىٰ هٰذَا الإنكار هي أن من أدخله الله النار فقد أخزاه، والشفاعة لا تكون إلَّا لمن ارتضاه الله، ومن أخزاه الله لا يرتضيه، ومن ارتضاه لا يخزيه.

وأجاب الجُمْهُوْر بما يأتي:

أ- قوله ﷺ: (شفاعتي لأهل الكبائر من أُمَّتِي)، صريحٌ في ذٰلِكَ[1].

---

(١) شَرْح العَقِيْدَة الطَّحَاوِيَّة لابن أبي العِزّ ص٢٩٠. وانظر: الإنْصَاف للبَاقِلاَّنِيّ ص١٧٠.

وحَدِيْث: **شفاعتي**... إلخ، قال الشيخ شُعَيْب الأرنَؤُوط في هامش الصفحة المذكورة من

ب- إننا لا نُسَلِّم أن الفاسق غير مرضي مطلقاً، بل هو مرضي لإيمانه، مبغوض لفسقه. علىٰ أن هٰذَا النوع من الشفاعة لم يحل بين المشفوع فيهم وبين العذاب المقدر لهم، بل يخرجون من النار بعد انتهاء مدة المؤاخذة المقدرة لهم في علمه[1].

شفاعة غيره ﷺ

وبعد شفاعة مُحَمَّد ﷺ يفتح باب الشفاعة لمن ارتضاه الله تعالىٰ. قال تعالىٰ: ﴿ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوْلًا ﴾ - طه ١٠٩. أي: لمن كان قوله

شَرْح العَقِيْدَة الطَّحَاوِيَّة: حَدِيْث صَحِيْح بطرقه وشواهده، أَخْرَجَهُ أبو دَاوُد والتِّرْمِذِيّ وأَحْمَد والطَّيَالِسِيّ وأبو نُعَيْم في الحِلْيَة والطَّبَرَانِيّ في الصَّغِيْر من حَدِيْث أَنَس، وصَحَّحَهُ ابن حِبَّان والحَاكِم، وأَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيّ وابن مَاجَة والطَّيَالِسِيّ وأبو نُعَيْم في الحِلْيَة من حَدِيْث جَابِر بن عبد الله، وصَحَّحَهُ الحَاكِم وأَخْرَجَهُ الطَّبَرَانِيّ من حَدِيْث ابن عَبَّاس، والخَطِيْب البَغْدَادِيّ من حَدِيْث ابن عُمَر.

(١) الشَّرْح الجديد السَّابق، ولَوَامِع الأَنْوَار البَهِيَّة ج٢ ص٢١٧. وانظر: تَمْهِيْد الأوائل ص٤١٥ وشَرْح العَقَائِد النَّسَفِيَّة للتَّفْتَازَانِيّ ص١٤٨ وشَرْح الجَوْهَرَة لعبد السَّلَام ص٢٤٤ والمُعْتَزِلَة لعَوَّاد المُعْتِق ص٢٣٦.

وانظر تفصيل الكلام في الشفاعة عند الإبَاضِيَّة في: البعد الحَضَارِيّ ص٦٧٠ وما بعدها. وفيه نقل عن عَمْرو التلاتي قوله: (إن أصحابنا رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ تعالىٰ قالوا: إن الشفاعة حقٌّ لا شك فيه، وإنها للمُؤْمِنين لا لأهل الكبائر العاصين والفجار الفاسقين)، ونقل في ص٧٥٢ عن عَمْرو التلاتي أَيضاً إنكار خروج المُعَذَّبِيْن في النار من عصاة أُمَّة مُحَمَّد ﷺ منها.

وقال السَّالِمِيّ في مَشَارِق أَنْوَار العُقُوْل ج٢ ص١٤٣: (مَذْهَب أهل الاستقامة - أي: الإبَاضِيَّة - والمُعْتَزِلَة أن أهل الكبائر من معاصي الله كانوا مُشْرِكِيْن أو فاسقين مُخَلَّدُوْن في النار دائماً، وأهل الطاعة مُخَلَّدُوْن في الجنة دائماً، لٰكِن أهل الاستقامة يقولون: إن التعذيب بعَدْل الله والثواب بفضله، والمُعْتَزِلَة يقولون بوجوب ذٰلِكَ عليه تعالىٰ عن ذٰلِكَ، بناءً علىٰ أصلهم الفاسد في التَّحْسِيْن والتَّقْبِيْح العَقْلِيَّيْن). ونقل قول السَّالِمِيّ في البعد الحَضَارِيّ ص٧١٦. وانظر: الحق الدامغ ص١٨٥.

واعْتِقَاده لا إلٰه إلَّا الله مُحَمَّد رَسُوْل الله ﷺ[١].

قال ﷺ:... فيقول الله عَزَّ وجَلَّ: شَفَعت الملائكةُ، وشَفَعَ النَّبِيُّوْن، وشَفَعَ المُؤْمِنون، ولم يبقَ إلَّا أَرحمُ الراحمين، فيَقبِضُ قَبْضَةً من النار، فيُخرِجُ منها قوماً لم يَعملوا خَيْراً قَطُّ.

وقال رَسُوْل الله ﷺ: إن من أُمَّتِي من يَشفع للفِئَام من الناس، ومنهم من يَشفع للقَبِيلة، ومنهم من يَشفع للعَصَبَة، ومنهم من يَشفع للرجل حتىٰ يدخلوا الجنة.

وقال ﷺ: يُشَفَّعُ الشَّهِيْدُ في سبعينَ من أهل بيته[٢].

وقال رَسُوْل الله ﷺ: يَشْفَعُ يومَ القيامة ثلاثةٌ: الأنبياءُ، ثم العُلَمَاءُ، ثم الشهداءُ[٣].

---

(١) نور الإسلام لعبد الكَرِيْم المدرس ص٢٩١.

(٢) نور الإسلام ص٢٩١. وانظر: لَوَامِع الأَنْوَار البَهِيَّة ج٢ ص٢٠٩ وشَرْح العَقِيْدَة الطَّحَاوِيَّة لابن أبي العِزّ ص٢٩٣.

وحَدِيْث: شَفَعت الملائكةُ، وشَفَعَ النَّبِيُّوْن... إلخ، في: صَحِيْح مُسْلِم، واللفظ له، في: ١ كتاب الإيمان، ٨١ باب مَعْرِفَة طريق الرؤية، رقم ١٨٣، عن أبي سَعِيْد الخُدْرِيّ.

والحَدِيْث في: مُسْنَد الإمَام أَحْمَد ج٣ ص٩٤، عن أبي سَعِيْد الخُدْرِيّ.

وحَدِيْث: إن من أُمَّتِي من يشفع... إلخ، في: سُنَن التِّرْمِذِيّ في: ٣٤ كتاب صفة القيامة والرَّقَائِق والوَرَع، ١٢ باب منه، رقم ٢٤٤٠، ص٣٩٩، عن أبي سَعِيْد الخُدْرِيّ. وقال: حَدِيْث حَسَن.

وحَدِيْث: يُشَفَّعُ الشَّهِيْدُ في سبعينَ... إلخ، في: سُنَن أبي دَاوُد في: ١٥ كتاب الجِهَاد، ٢٦ باب في الشَّهِيْد يُشَفَّع، رقم ٢٥٢٢، عن أبي الدَّرْدَاء. وقال الشَّيْخ شُعَيْب في تَحْقِيْقِهِ سُنَن أبي دَاوُد ج٤ ص١٧٦: صَحِيْح لغيره، وهٰذَا إسناد حَسَن. وحَسَّنَهُ السُّيُوْطِيّ في الجَامِع الصَّغِيْر ص٥٩٠.

(٣) نور الإسلام ص٢٩١ وشَرْح العَقِيْدَة الطَّحَاوِيَّة لابن أبي العِزّ ص٢٩٣.

وحَدِيْث: يَشْفَعُ يومَ القيامة... إلخ، رواه ابن مَاجَة، عن عُثْمَان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ. / الجَامِع الصَّغِيْر

حكمة الشفاعة

والحكمة من الشفاعة تكَرِيْم الشَّافِعِيْن، ورفع شؤونهم علىٰ رؤوس الاشهاد، وإفاضة الكرم الإلٰهِيّ علىٰ المشفوع له[١].

وليس القول بالشفاعة إعداد الناس للجرأة والجسارة علىٰ المعاصي، كما توهمه البعض، لأنه ليس في علم أي شخص أنه يشفع له، حتىٰ يكون ذٰلِكَ جالباً لإقدامه عليها[٢].

أُصُوْل دعوة الرَّسُوْل الأعظم مُحَمَّد ﷺ

تتجلىٰ دعوة الرَّسُوْل مُحَمَّد ﷺ في جزئي الشهادة، اللذين هما الرُّكْنان الأَسَاسِيّان لها[٣]، ويندرج تحتها كل ما جاء به الإسلام.

الرُّكْن الأول:

الإيمان بوجود الله تعالىٰ، وبوحدانيته، وأنه يتصف بصفات تليق بكَمَاله. وقد تَحَدَّثْنَا عن هٰذَا الرُّكْن في قسم الإلٰهِيَّات من هٰذَا الكتاب، وذكرنا ما يجب وما يستحيل وما يجوز في حقه تعالىٰ.

للسُّيُوْطِيّ ص٥٩٠ وحَسَّنَهُ. وقال ابن أبي العِزّ: رواه الحافظ أبو يَعْلَىٰ. وخَرَّجَهُ مُحَقِّقُهُ الشيخ شُعَيْب في الهامش.

(١) نور الإسلام ص٢٨٧.

(٢) نور الإسلام ص٢٨٨.

(٣) شَرْح السَّنُوْسِيَّة للبَاجُوْرِيّ ص١٦٥. وانظر: شَرْح أُمّ البَرَاهِيْن للسَّنُوْسِيّ وحَاشِيَة الدُّسُوْقِيّ عليها ص١٩٠و٢١٩ وشَرْح الجَوْهَرَة للبَاجُوْرِيّ ص٢٠٨ ومَشَارِق أَنْوَار العُقُوْل ج١ ص٢٧٣ وشَرْح غَايَة المُرَاد ص١٨.

ويكفي أن نشير إلىٰ أن القُرْآن العَظِيْم نبذ بهٰذَا الرُّكْن عَقِيْدَة التثليث عند النَّصَارَىٰ والهنود، والإشراك عند اليَهُوْد، وعِبَادَة الأصنام والنجوم والوثنية بأشكالها عند العَرَب وغيرهم بآيات كثيرة منها: قوله سُبْحَانَهُ: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ - المائدة ٧٣.

ومنها قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ - المائدة ١١٦.

وعَقِيْدَة التَّوْحِيْد في القُرْآن أعلىٰ المَعَارِف التي ترقىٰ بالإنسان إلىٰ الأعلىٰ.

وكان تَوْحِيْد المُسْلِمِيْن الأولين لله وحبهم له وتوكلهم عليه، هو الذي زكىٰ نفوسهم، وأعلىٰ هممهم، وكَمَّلهم بعزة النفس، وشدة البأس، وإقامة الحق والعَدْل، ومكَّنهم من فتح البلاد، ومن تَحْرِيْر الناس من ظلم الملوك، ورِقّ الكهنة والأحبار والرهبان، فأقاموا دَعَائِم الحَضَارَة، وأحيوا العُلُوْم والفُنُوْن، وتم لهم ما لم يَتِمّ لأية أُمَّة من الأُمَم، حتىٰ قال الدكتور غوستاف لوبون في كتابه (تطور الأُمَم): (إن ملكة الفُنُوْن لا يَتِمّ تكوينها لأُمَّة من الأُمَم الناهضة إلَّا في ثلاثة أجيال، أولها: جيل التقليد، وثانيها: جيل الخضرمة، وثالثها: جيل الاستقلال والاختصاص. قال: إلَّا العَرَب وحدهم، فقد استحكمت لهم ملكة الفُنُوْن في الجيل الأول، الذي بدؤوا فيه بمزاولتها)[1]، وقد تقدم أثر عَقِيْدَة التَّوْحِيْد في حياة الإنسان بما فيه الكِفَايَة.

وهٰذَا الرُّكْن هو المقصود بالشطر الأول من الشهادة (أشهد أن لا إلٰه إلَّا الله)[2].

---

(١) الوحي المُحَمَّدِيّ ص١٣١.

(٢) انظر: شَرْح أُمّ البَرَاهِيْن وحَاشِيَة الدُّسُوْقِيّ عليه ص٢١٩.

الرُّكْن الثاني:

الإيمان برَسُوْل الله مُحَمَّد ﷺ. ومعناه:

أ- وجوب التَّصْدِيْق بأنه نَبِيّ الله تعالىٰ وخاتَم المُرْسَلين.

ب- وجوب التَّصْدِيْق بما أخبر به.

ج- وجوب طاعته في كل ما صدر عنه من قول أو فعل أو تَقْرِيْر من الأوامر والنواهي، ووجوب اقتفاء آثارهم، والتزام طريقته في سُبُل الحياة كلها، لأن طاعته من طاعة الله، قال تعالىٰ: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾ - النساء ٨٠ وقال سُبْحَانَهُ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ﴾ - الحشر ٧. وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ مِنۡ أَمۡرِهِمۡۗ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلٗا مُّبِينٗا﴾ - الأحزاب ٣٦... إلخ.

فيدخل في هٰذَا الرُّكْن:

الإيمان بالملائكة والجن والمغيبات جَميعاً والإيمان بسائر الأنبياء بلا تفريق، وما يجب في حقهم من صفات، وما يستحيل، وما يجوز، وبكتبهم السماوية جَميعاً التي أُنْزِلَت عليهم، والتي هي موافقة في أُصُوْلها القُرْآن الكَرِيْم، لأن مصدرها وَاحِد وهو الله تعالىٰ، وتكفل بالكلام عن هٰذَا موضوع (النُّبُوَّات) كما تقدَّم.

والإيمان باليَوم الآخِر، وهو يوم الجزاء عند القيامة، وهو البَاعِث علىٰ العَمَل الصالح وترك المُنْكَرَات، ومُقَوِّي الوازع النفسي الذي يصد الإنسان عن الشر والظلم. وسيأتي كلام وافٍ علىٰ هٰذَا في فصل الحياة الأُخرىٰ.

وهٰذَا الرُّكْن هو المقصود بالشطر الثاني من الشهادة (وأشهد أن مُحَمَّداً رَسُوْل الله)[1].

وبهٰذَا يتبين أن كلمة الشهادة بشطريها، قد تضمنت مع قلة حروفها جميع ما يجب

(١) المصدر السَّابِق.

علىٰ المسلم المُكَلَّف معرفته من عَقَائِد الإيمان في حقه تعالىٰ وفي حق رسله عليهم الصلاة والسَّلَام[١].

أو بعبارة أُخرىٰ:

هي الإيمان بأن دين الله تعالىٰ الإسلام هو الدِّيْن الحق، الذي يجب أن يؤمن الفرد بكل ما جاء به من جزئيات، ويعمل بها، ولذٰلِكَ قال السَّنُوْسِيّ: (ولعلها لاختِصَارها مع اشتمالها علىٰ ما ذكرناه جعلها الشَّرْع ترجمةً علىٰ ما في القلب من الإسلام، ولم يُقبل من أحد الإيمان إلَّا بها)[٢].

فكانت عُنْوَان الدخول في الدِّيْن الإسلامِيّ، إذ لا يُقبل الإسلام من أَحَد إلَّا بالنطق بشطريها معاً.

فعليه أن يكثر من ذكرها، كما هو المَأْثُوْر في الأَحَادِيْث الصَّحِيْحة، مستحضراً لما حوته من معانٍ جَلِيْلةٍ، حتىٰ تمتزج مع معناها بلحمه ودمه، فإنه يرىٰ لها من الأسرار والعجائب إن شاء الله تعالىٰ ما لا يدخل تحت الحصر[٣].

واجبنا نحو الرَّسُوْل الأعظم مُحَمَّد ﷺ

بعد أن أنعم الله تعالىٰ علىٰ المسلم بأن آمن بالله ونبيه الأعظم ﷺ، كان عليه أن يعرف واجبه نحوه، وهو:

١ - محبته أكبر من النفس والولد، والمال والناس.

قال النَّبِيّ ﷺ: (لا يُؤمنُ أَحَدُكم حتىٰ أَكونَ أَحَبَّ إليه من وَلَدِه ووالدِه والناسِ أجمعين)[٤].

---

(١) المصدر السَّابِق ص٢٢١.

(٢) أُمّ البَرَاهِيْن وشرحها للسَّنُوْسِيّ ص٢٢٢.

(٣) المصدر السَّابِق ص٢٢٤.

(٤) **حَدِيْث: لا يُؤمنُ أَحَدُكم**... إلخ، أَخْرَجَهُ أَحْمَد والبُخَارِيّ ومُسْلِم والنَّسَائِيّ وابن مَاجَة، عن أَنَس. وهو صَحِيْح. / الجَامِع الصَّغِيْر ص٥٨٦.

وهٰذِهِ المحبة لا تتجلىٰ إلَّا في طاعته طاعةً كَامِلَة في كل ما يقول.

٢- تبجيله واحترامه حياً وميتاً، ففي حياته: لا يجوز سبقه بالحَدِيْث، قال تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ - الحُجُرَات ١.

ولا يجوز رفع الصوت أمامه، قال تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ - الحُجُرَات ٢.

ويبقىٰ هٰذَا الاحترام حتىٰ بعد مماته، فلا يرفع الصوت عند قبره أو في مسجده ﷺ، كما يجب التأدب عند سَمَاع حَدِيْثه، والرضا بما قال، وعدم الخروج عليه.

٣- عدم إيذائه بأي نوع من أنواع الأذىٰ.

قال تعالىٰ: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ - التوبة ٦١.

والإيذاء شامل: للسَّبِّ، أو الطعن به، أو بشرعه، أو بزوجاته الطاهرات، قال تعالىٰ: ﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ﴾ - الأحزاب ٦. أو الطعن بآل بيته، أو أصحابه، أو سبهم... .

٤- الصلاة والسَّلَام عليه.

قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴾ - الأحزاب ٥٦[1].

٥- وجوب التأسي بالرَّسُوْل ﷺ، قال تعالىٰ: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ - الأحزاب ٢١. والتأسي هو الاقتداء به في كل أقواله وأفعاله ﷺ.

(١) انظر: الشفا، وسُبُل الهُدَىٰ والرَّشَاد ج١٢ ص٤٥٧ وأُصُوْل الدعوة ص٣٦-٣٧.